

أصل وفصل



دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس

009722340035

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

*

سحر خليفة

أصل وفصل

*

الطبعة الثانية (2014).

*

لوحة الغلاف: الفنان الفلسطيني اسماعيل شموط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

رواية

أصل وفصل

سحر خليفة

.....

.....

المقدمة

بقلم: الدكتور نبيه القاسم

لم يعدم شعبنا الفلسطيني الكثيرين من أبنائه البررة الذين شاهدوا ما يجري، وتوقعوا الذي سيكون، وحذروا ونبّهوا وصرخوا، منهم مَنْ مات مَقهوراً وقد غلبه الحزن، مثل: ادوار سعيد وفيصل الحسيني والدكتور حيدر عبد الشافي ومحمود درويش، ومنهم مَنْ لا يزال يصرخ ويصرخ ويُحذّر، وخوفي أن يمضي العمرُ ولا شيء تحقّق.

سحر خليفة واحدة من الذين شاهدوا وتوقعوا وحذروا ونبّهوا وصرخوا، وتكاد تكون الوحيدة التي لم تُهادن ولم تتراجع ولم تقبل بكلّ التفسيرات والتعليلات والتطمينات والإغراءات وظلّت على موقفها المنتقد الرافض تُعلنُ صرختها العالية القوية: لا.

تعود معرفتي بسحر خليفة إلى سنوات السبعين الأولى من القرن الماضي (القرن العشرين) فقد قرأت روايتها الأولى (لم نعد جوارى لكم) وكتبتُ عنها دراسة في مجلة . الجديد، وفي بيت سحر في رام الله تعرّفت على العديد من المبدعين والمبدعات والأصدقاء. ومن يومها لم تضعف صداقتنا ولم ينقطع حبلُ تواصلنا رغم بُعد المسافات. وسحر التي عرفتها عصبية سريعة الغضب وردّ الفعل، غير مُتهادنة في حقّها، وصلبة في موقفها والمُعلنة صرختها العالية: لا. هي سحر

اليوم التي يأخذها تاريخُ الوطن الفلسطيني الجريح لتستقرَّه من جديد وتعيد صياغته الحقيقية ليعرف كل فلسطيني أين كانت جذور المأساة ومُسببات النكبة وتشريد الشعب وضياع الوطن. وقد شرعت بذلك في روايتها (أصل وفصل) و (حبِّي الأول).

كانت كلمات سحر وتساؤلاتها المثيرة لكل مكان من الغضب والحزن والألم في مؤتمر الإبداع الروائي الذي عُقد في القاهرة يوم ١٦ شباط ٢٠٠٨: "نحن -الفلسطينيين- عشنا على الهامش كشعب مأزوم. وسرّ الأزمة، بل محورها، أننا لا نعرف واقعنا بل نحلم عنه وربما نشطح، وهذا الأصح لما نفعل أو فعلنا. عشنا شعارات وعلّونا فوق السحب عبّر الأوهام ثم هويّا. قيل لنا إنّنا قوّة، أقوى قوّة ضاربة في الشرق الأوسط قبل حزيران ١٩٦٧، فماذا نتج عن ذاك الشعار؟ قيل لنا إنّ المشكلة في الغازي وليست فينا، فغضضنا النظر عمّا فينا وغضضنا النظر عن تفاصيل ذاك الغازي وبتنا لا نعرف من هو، ولا من نحن، ولا نعرف كيف نُجيب على السؤال حول أسباب هزيمتنا. يعني لا نعرف ما الواقع. يعني لا نعرف كيف نجيب، ولا حتى نعرف ما نسأل."

وتابعت سحر خليفة أمام المجتمعين من مثقفي ومُبدعي العالم العربي بألم الإنسان الفاقد كل شيء في حياته، والمنبوذ من كل العالم ومن الله: "لدينا سؤال، لديّ سؤال. أنا المحتلة لديّ سؤال. أنا المهزومة لديّ سؤال. أنا المأزومة لديّ سؤال. وسؤالي هو: لماذا هزمت؟ أين القوّة ونقاط الضعف؟ من أنا، من هم، من يعرفني؟ والسؤال الأهم: هل أعرفني؟"

وتؤكد سحر خليفة للمستمعين: "هذا ما أسعى لتحقيقه. لأنني قبل أن أكون فنانة، أنا إنسانة، بنت البيئة، والاحتلال، والهزيمة. وفني هذا لخدمة ذاتي، دفاعا عنها، ذاتي الكبرى في مجتمعي، لأنني محروقة من الداخل ومن الخارج، ولا يمكنني أن أغض النظر عن هذا الوجد وآلامه."

وحتى يتفهّم القارئ عالم سحر خليفة الإبداعي عليه أن يرافقها في سيرة حياتها التي تركت أثرها العميق في حياة سحر وإبداعها وعلاقاتها. تقول سحر في حوارها مع الصحفي راشد عيسى الذي التقاها في دمشق في مؤتمر (الثقافة والمدينة) حول مدينتها نابلس وأثرها في رواياتها: "ii" كتاباتي كلّها عن نابلس، مسقط رأسي، التي أعتبرها المختبر والنموذج الحميم والصادق للعالم العربي بأسره كمجتمع، لتعدد التناقضات فيها. ففيها من التناقضات والتوتر والعلاقات الاجتماعية، ورسوخ الهوية القومية العربية ما يمكنني من التقاط ملامح المجتمع العربي، ذلك من خلال تصوير العلاقات الأسرية والاجتماعية في مدينتي نابلس."

في هذه المدينة المحافظة التقليدية ولدت سحر في عائلة محافظة حيث نشأت في بيت حُرَم من الصبيان فعانت مع أمّها من غربة اجتماعية نفسية، وخاصة بعد أن تزوّج الأب امرأة أخرى بحثا عن إنجاب الصبي. وتصف سحر في روايتها (مذكرات امرأة غير واقعية) ما عانته من تفضيل المولود الصبي عليها، وما كان من فرض كلّ القيود والممنوعات عليها بينما أعطيت كلّ الحرية للمولود الذكر. وتصف استمرارية معاناتها كأثني عندما أرغمت على الزواج من رجل رفضته،

ونجحت في التحرّر من قيّد الزواج منه بعد ثلاثة عشر عاماً. هذه المعاناة الذاتية جعلت شخصيّة المرأة في روايات سحر، كما يقول الدكتور حسين المناصرة في قراءة نقدية في شؤون النصّ الأدبي قدّمها بقسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود يوم الثلاثاء ١٤٢٢/٢/٧ هجرية، تبدو على صورة "المرأة الضحية التي عليها أن تسعى إلى بناء المساواة بين الذكورة والأنوثة في الحقوق والواجبات داخل بنية المجتمع، متكئة على رفض المفاهيم الثلاثة: سيطرة الأب (بطريكيّة الرجل)، واعتبار الجنس أو النوع صالحاً لتقسيم الأدوار، وهيمنة القضيب!"

لكنّ سحر خليفة تجاوزت الذاتية في واقع الاحتلال الإسرائيلي للوطن وخرجت لتواجه جنود الاحتلال جنبا إلى جنب مع الرجل، ولكنها لم تتنازل عن موقفها الدفاعي عن المرأة ضدّ موقف الرجل العدائي منها لكونها أنثى، وأعلنت في أكثر من موقف أنّ الشعب الذي يضطهد المرأة لن يستطيع أن ينتصر على عدوّه، مهما حاول أن يفعل، لأنّ نصفه النّسوي مُغيّب ومُكبّل بقيود كثيرة!! وأنّ تحرّر الوطن لا يكون تاماً إلا بتحرّر المرأة من قيود الرجل. وتحرّر الرجل والمرأة وثورتها على قيود المجتمع بعاداته وتقاليده ومفاهيمه التي يجب أن تتغيّر وتُراعي تغيّرات المجتمعات العالمية والتطوّر الجاري في كل العالم.

وقد شدّدت في دراستي لرواية (مذكرات امرأة غير واقعية) على تميّز سحر خليفة في إبداعاتها بالتزامها بمعالجة "هموم الشعب ونصوير حياته اليومية وما فيها من تعقيدات وتشابكات خاصّة بكلّ ما يتعلّق

بوضع المرأة وعلاقتها بالرجل، وبالمقابل في مرافقة نضال الناس في مواجهتهم لاحتلال الأرض وظلم الإنسان حتى باتت سحر خليفة تُوطّر بين ثنائيتين، هما: المرأة في مواجهة الرجل. والإنسان الفلسطيني في مواجهة جندي الاحتلال. هاتان الثنائيتان المترافقتان والمتلازمتان في معظم روايات سحر خليفة حتى أصبح من الصعب الفصل ما بين النضال ضد المحتل الغريب والنضال ضد ظلم الرجل والمجتمع للمرأة، والافتناع أنّ تحرّر الوطن من ربقة الاحتلال لا يكون كاملاً وناجحاً إذا لم يُرافقه تحرّر المرأة من قيود المجتمع والرجل. iii.

ويرى الدكتور حسين المناصرة في قراءته النقدية أنّه "في ضوء تشابك الأنساق الثلاثة: الذاتي والاجتماعي والوطني، نهض خطاب سحر خليفة السردية يحمل رؤية أو منظور الواقعية النقدية التي ترى العالم مسكوناً بالسّواد، وفي أحسن الأحوال بالرمادي. حتى ولو أنّها كانت تُنهي بعض رواياتها بنظرة متفائلة أحياناً عن طريق تغييب أو تخدير التناقضات الذاتية والاجتماعية لصالح ضرورة الاستمرار في مواجهة الاحتلال من خلال الانتفاضة الشعبية التي تظهر فيها شخصية المرأة أكثر حكمة وفاعلية من الرجل."

وفي جوابها عن سؤال الصحفي توفيق عابد الذي أجراه مع الكاتبة لموقع (الجزيرة نت): لماذا يُطلق عليك (كارهة الرجال؟) قالت: "لأنني طرحتُ بقوة فكرة أنّ المرأة مُساوية للرجل، وأنّ اضطهادها التاريخي من المفروض مُراجعتة، ولن تقوم قائمة هذه الأمة ونصفها مسحوق تماماً، فالمجتمع الذي لا يَفْتَقِدُ دورَ نصفه لا يُمكن أن يكون فاعلاً."

سحر خليفة التي انطلقت في إبداعاتها المتميّزة لم تر في الأدب كما قالت في المُقْتَبَسِ الذي جمّعته ونَشَرْتُهُ الكاتبة عالية كريم "حلية تُعلّقها في صدر البيت، وشكّلة على الرأس.. بل إحساس أعمق، مجبول بالتراب، بالشوارع، بهوموم الناس، برصاص المحتل والمدافع، بالضحايا ودم الثوّار. وأيضاً بالحبّ والتمنّي وحنين القلب، وجمال الرّوح والتّصدّي للكآبة بأجنحة الحلم. الأدب بالنسبة لها ليس نزهة، بل جدّاً وأجنحة ومرايا وعتابا دائماً للذات، وسماء ماطرة وقذائف وماذن في أرض ما عَرَفَتْ إلا الدم. iv

وكما قالت للكاتبة عناية جابر ونشرته في جريدة السفير اللبنانية: "الأدب هو بالضرورة أداة تعبير عن الحياة وتجاربها، ومُنْطَلَقِي المنطقي هو المكان الذي عشتُ فيه، مكاني أنا، مجتمعي أنا، ألي أنا، جذري وتجربتي وتاريخي v

وترى الكاتبة عناية جابر في سحر خليفة "روائيّة فلسطين، ومن الصعب أن نفكّر برواياتها بدون أن نفكّر في فلسطين. هذه هي وهذا هو مشروعها الروائي الذي تضيق الشّقة بينه وبين البحث الاجتماعي كما تضيق الشّقة بينه وبين النضال الفعلي. iv

وسحر نفسها تقول: "إنّ مشروعِي الروائي هو رصدُ تأثير تجربة الاحتلال على المجتمع الفلسطيني في تحولاته المختلفة، وبالتالي فإنّ رواياتي هي حكاية مجتمع بأسره. أردتُ أن أصوّر الناس كأحياء من لحم ودم، وأن أستعير لغتهم وتعبيراتهم، وأنّ أصفَ معاناتهم وإحباطاتهم، وأيضاً تضحياتهم، وصدّقيني، لقد رأيتُ ما قدّمه الناس من تضحيات

تفوقُ الوصفَ. أنتم في الخارج تسمعون وتعرفون عن توضيحات الشهداء والمقاتلين، لكنّي أنا كباحثة، وروائيّة، ومواطنة، رأيتُ بعيني كيف أعطى الناسُ كلَّ ما لديهم: أموالهم، أبناءهم، بيوتهم، مصدر رزقهم، أقول كلَّ شيء، خصوصاً في الانتفاضة الأولى التي عشتُ حذافيرها وعبرتُ عنها في رواية "باب الساحة. vii

وتقول سحر خليفة في حوارها مع راشد عيسى: viii (باب الساحة) رصدتُ الانتفاضة الأولى. وفي (الميراث) رصدتُ مرحلة أوسلو. وفي (صورة وأيقونة وعهد قديم) رصدتُ تحولات القدس. وفي (ربيع حار) رصدتُ الانتفاضة الثانية. بمعنى أنّ الوضع الفلسطيني العاصف، السريع التحوّل مع الضربات والانتكاسات، لا بدّ له من عين مُتفحّصة وكاميرا مُدقّقة لتستطيع أن تُوثّق وتُورّخ الأبعاد المأساويّة التي يمرّ بها شعب صغير ولكنه ذو عزيمة وإرادة قويّة وإيمان خارق بالحرية ورفض الاستعمار والعبوديّة. لا بدّ لهذه الظواهر من أن تُحَفَظ في كُتب، في لغة مكتوبة كي لا تضيع هذه التجارب من الذاكرة الفلسطينية العربيّة، ولا حتى من الذاكرة الإنسانيّة.

كانت سحر قد عرضتُ مواقفها الواضحة في مختلف القضايا الحادّة والمثيرة التي تعرّضتُ لها في رواياتها بجرأة وقوّة وإثارة وتحدّ، وقد أبرزتها في دراستي للروايات. ففي رواية (لم نعد جوارى لكم) نادى بتمرد المرأة على قيّدها الطويل، ودعت المرأة للخروج لمواجهة الرجل ومطالبة بكلّ حقوقها. كما أنّها اهتمّت بتعرية الطبقة البرجوازيّة المتعلّمة العفنة، وتعرية أفكارها ونهجها وواقعها، وأظهرت استحالة

الاعتماد عليها في تسيير دفة الحياة ومواجهة الصّعب. فهي طبقة مُخادعة تافهة، تمضغ الفلسفات حول الموائد، مغرورة عاجزة عن المبادرة ولا يؤمن جانبها.

وتبنّت في رواية (الصّبّار) أسلوب الحرب اللامتهادنة مع الطرف الآخر في تعاطفها الشديد مع أبي العزّ الذي أهّدته روايتها. ولما سألت الصديقة سحر: هل حقاً ترين في أبي العزّ الطريقَ الوحيدةَ لحلّ القضية؟ وهل انتهى دورُ أمثال عادل الكرمي الواقعي؟ أجابت سحر وحراب الفاشست الكتائبين والشّمعونيين وقنابل الأنظمة الرجعية في العالم العربي وإسرائيل تنعكس من قلب (تل الزعتر) على شفيتها: لست أدري! كلّ شيء في هذا العالم غريب، غريب، وللقضية أكثر من بُعد واحد.

وهدف سحر من روايتها (الميراث) إلى إعلان موقفها من مجمل المواقف السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة التي يعيشها الشعب الفلسطيني في ظلّ الاحتلال، وتصوير وضع المرأة الفلسطينيّة، وكيف أنّها لا تزال أسيرة العادات والتقاليد، وخاضعة للرجل، لم تنل أيّ حقّ من حقوقها رغم بطولاتها وتضحياتها سنوات الانتفاضة، ورغم التحولات الكبيرة التي ألمّت بالشعب الفلسطيني سنوات الاحتلال الطويلة.

وكانت دمعهُ سحر الكبيرة التي فجرتها في روايتها (صورة وأيقونة وعهد قديم) حزناً وألماً على ما حدث للوطن تحت حراب الاحتلال الإسرائيلي، وأنّه لم يبقَ من القدس في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي غير الهياكل والكنائس وما عداها انتهى وفي طريقه للزوال.

واهتمّت سحر خليفة في (ربيع حار) التي عرضت فيها لزمن الانتفاضة الثانية، بفضح الواقع غير المقبول، وكشف حقائق الناس الكبار المتسربلين ثوب الطهارة والنبل والوطنية والتضحية والشرف، فعزّتهم على حقيقتهم وكشفت أسرارهم.

وأظنّ أنّ سحر خليفة، بعد فوات العمر وتكرّر الحيات والنكسات والنكبات، التي عايشتها وشاركت في بعضها وتابعت تفاصيلها، قد وعّت ووصلت مع نفسها، كما مع كل أبناء الشعب الفلسطيني إلى المواجهة الحادة الدائمة مع الأسئلة الصعبة الموجهة: إلى أين تمضي بنا الطريق! وإلام المصير؟! ولماذا نحن الفلسطينين وحدنا من بين شعوب الأرض كُتِبَ علينا الشقاء الأبدى؟ والغربة الأبدية والعذاب الأبدى؟ كيف جرى الذي جرى لنا؟ ولماذا؟ ما سبب ما أصابنا؟ وماذا فعلنا لنخرج من قمقم نكبتنا؟

وكان أن اتخذت قرارها الحاسم بالبحث عن الجذور وتوجيه أصابع الاتهام للمسؤولين المباشرين عن النكبة وضياع الوطن وتشريد الشعب. فتركت الحاضر بأحداثه المكررة، وكلّ ما فيه من الم والحزن ودموع وفقدان أمل وابتعاد حلم وتلاشي وطن. وانسحبت لتستعيد كلّ الماضي بأحداثه، وكانت روايتها الطويلة بجزأيا: (أصل وفصل) و (حبّي الأوّل).

وتؤكد سحر في لقاءها مع عناية جابر: "في (أصل وفصل) اعتمدتُ البحث والتوثيق وذكر المصادر حتى تكون التجربة المرصودة ذات مصداقية لا تسمح بالتكذيب أو مُزاودة المُزاودين. نحن

ورثنا كمّية ضخمة من الأكاذيب لا بُدّ من دَحْضها حتى نتعلم من أخطائنا ومآسينا. اعتدنا تَغْلِيْقَ خَيَّاتنا على شِّماعة الاستعمار وعلاقة الإسرائيليين. واستمرَّ أنَا أن يُقال عَنَّا وأنْ نقول نحن عن أنفسنا ما يفوقُ قدراتنا بمئات المرات. وهذه للأسف خاصّية يتمتّع بها الإنسان العربيّ بشكل عام ولا تخصّ الفلسطينيين فحسب. وقد عمّدتُ في هذه الرواية أن أعيدَ قراءة التاريخ بشكل روائيٍّ يعتمد البحث والتوثيق. فمن ناحية، أردتُ أن أجعل تاريخنا في متناول يد مَنْ ليس لديهم الصّبر ولا الإمكانيّة على التّقيب في كتب التاريخ وآثاره. ومن ناحية ثانية، أردتُ أن أقول: انظروا كيف يُعيد التاريخُ نفسه، ونُعيدُ نحن الأخطاءَ نفسَها، ونظّل نحن كشعب، ندفع ثمنَ غباء وجهل وتخلّف قياداتنا، وكذلك نظل نُصدّق مقولاتهم وادّعاءاتهم التي سبق وسمعها آباؤنا وأجدادنا من قبل على ألسنة قادتهم الذين لا يَخْتَلِفون عن قادتنا. أردتُ أن أقول: انظروا كيف أنّ التخلّف الاجتماعي يؤدّي إلى التخلّف السّياسي. انظروا كيف يتخبّط أبطالنا في عالمهم المليء بالثّغرات والعثرات. أردتُ قولَ كلّ ذلك من خلال رواية تعتمدُ أسلوباً سهلاً يستطيع الوصولُ إلى كلّ الناس. وكذلك تعمّدتُ التركيزَ على التّشويق بحيث لا يتمكن القارئ من قَذْف الرواية بعيداً وقد ملّ من أجوائها وشخصياتها وحكاياتها.^{ix}

وأتمت سحر رواية قصّة النُكبة بروايتها (حبّي الأول) بإيصالنا مع الأحداث المثيرة المؤلّة الجارحة القاتلة الكاشفة عَفَن القيادات العربية وتأمّرها وخيانتها وعُهرها وصفافقتها إلى ضياع الوطن وتشريد الشعب

عام ١٩٤٨

وما يُثيرني ويُغضبني وي طرح أمامي ألف سؤال: لماذا يُخسُّ البعض من النقاد والكتّاب الذين تناولوا روايتي (أصل وفصل) و (حبّي الأول) أهميّتهما القيمية، ويتعاملون معها كروايتين عاديتين، ولا يُجهدون أنفسهن ويتناولون التفاصيل المثيرة التي تعرّضت لها الكاتبة؟ ولماذا يقوم هؤلاء بمسخ رواية (حبّي الأول) وكأنّها قصّة حبّ مبرح. ولماذا تجاهلوا كلّ التفاصيل والحكايات وقصص الخيانة التي أودت بضيايع الوطن وتشريد الشعب؟

ولماذا توقّف بعضهم في حديثه كلّ حول عبد القادر الحسيني، ولا اعتراض لي على ذلك، ولكن ماذا عن حكايا وقصص خيانات الزعماء والقادة وكشف المستور عمّا جرى من أحداث أوصلتنا إلى النكبة وضيايع الوطن وفيما بعد إلى النكسة وضيايع كلّ الوطن ووقوعه تحت الاحتلال وتلاشيهِ في غمرة الزحف الاستيطاني الشرس؟

لماذا هذا التجاهل لمضامين الروايتين؟ وكيف توصل الكاتبة رسالتها إلى القراء إذا قبلت وشاركت بمسخ روايتها وتحجيمها تحت تعريف (حكاية حبّ مبرح)؟

أسئلة تُثيرني وتُغضبني وتشدّني لأصرخ عاليا: كفاكم تشويه ومسح وقتل كل برعم جميل نفرح به.

وتظّل سحر خليفة، كما كانت في مسيرة إبداعها الطويلة صاحبة الرؤية الثاقبة الصحيحة، والرؤية البعيدة، والرّافضة لكل مخادعات الواقع ومغريات الحياة مُعلنة صرختها العالية القويّة المتحدة: لا.. لا.

المصادر والمراجع :

- I - الجديد عدد ٣ / ١٩٧٧
- ii - جريدة السفير اللبنانية يوم ٢٣ أيار ٢٠٠٨
- iii - مذكرات امرأة غير واقعية رواية سحر خليفة التي تجاهلها النقاد؟! جريدة الاتحاد ١٧ حزيران ٢٠٠٥
- iv - "سحر خليفة صوت قويّ وحضور ملموس": مقتبسات أعدتها عالية كريم - السفير ٢٧/٣/٢٠٠٩
- vi - السفير ٢٧/٣/٢٠٠٩
- vii - السفير ٢٣/٥/٢٠٠٨
- viii - السفير ٢٣/٥/٢٠٠٨
- ix - السفير ٢٧/٣/٢٠٠٩

لا تقولوا لي إني لم أفل شيئاً جديداً،
إنَّ طريقة ترتيب العناصر هو الجديد.

باسكال

.....

أصل

ستي زكية

كانت ستي زكية القحطان أحلى راوية ورواية. كانت تقصّ علينا القصص فننسى العالم ونسرح وندوخ وندخل معها عبر الكانون عوالم مسحورة ، لها نوافذ تنفتح على أفق أزرق فنعلو ونطير كعلاء الدين، تلك القصص كانت حواديث. أما عن الناس، فتقول فلان قال: كذا... وتبدأ بالقصّ وبالتقليد حتى تظن أنك تسمع ما قاله فلان شخصياً، يعني صوته، يعني نفسه، يعني الشخرات وهو يضحك أو يتجشأ، فنضحك ونقول: آه يا ستي، ما أحلاك! لكنها حين تهلل نبكي ونموت في داخلنا؛ لأن التهليل يذيب الإحساس ويُخرج منا حناناً دافقاً مثل المطر ودموع الحب. أما القمر فله قصة، قصة تتعلق بالتنجيم. يعني تفتح؛ يعني تكشف، يعني تقول: انكشف وبان، فيجمد فينا خفقان القلب.

قالت أمي في ذاك الليل: هل انكشف؟ ماذا رأيت؟ قالت: يا حرام! قالت: قولي! قالت: يا حرام. هتفت أمي: من هو؟ من مات؟ قالت: آلاف، ناس مثل النمل، وعَلَم كبير يسقط من فوق ويغرق بالدم. الدم للركب، آه يا ويلي! وبكت وبكىنا وما زلنا نرتعد بخوف.

كنا نجلس في ذاك الليل على الشرفة. ستي تمسك بصفحة مرآة، وظهرها مقلوب لوجه القمر، والقمر بدر كالمرآة، أبيض ناصع، وبوجه جميل. كان الفصل صيفاً، وكانت الطريق إلى حيفا قد سُدت بمدافع ودبابات. كنّا صغاراً، وكنا نسمع نشرة أخبار تقلقنا وتقول: لليهود أخذوا يافا،

أخذوا حيفا، أخذوا صفد، أخذوا الرملة. وبدأت جيوشنا تتراجع، وبدأ التاريخ يهرب منا. كنّا صغاراً، وكنّا نخاف مما نسمع. لكن الكبار كانوا أشطر. ثم مع الوقت هبط التاريخ وباتوا أصغر. لماذا؟ ما السر؟ قالوا سقطت وهما هم في القدس. قالت أمي: هذا كذب، هذه إشاعات. هيا نفتح؛ فالقمر يقول ما لا نعرف، وكان ما كان، وقالت ستي: آه يا ويلى. يا حرام، يا حرام! وظلّت تقول كلمة "يا حرام" حتى ماتت، وصرنا يا حرام!

أما قصة ذاك الفتح، فهي التالي: الدنيا ليل، والقمر الكامل كالفضة، وأمى تجلس خلف الجدة تقرأ آيات من القرآن، وستى تمسك بصفحة مرآة تكشف فيها. أحياناً تمر بضع ساعات ولا تكشف، وأحياناً بضع دقائق، فتقول: فتح. فتسكت أمى، وتقول: هس، ولا نص كلمة. ولا نكون بحاجة لذلك التنبيه، إذ كلمة فتح تعني القمر بدأ يفتح، أي يتنبأ، أي ستي تقول ما يكشفه داخل مرآة. هل يتحرك؟ يعني الأشياء والعوالم داخل مرآة تتحرك؟ كانت تقول: مثل السينما، مثل الأفلام. يعني أفلام أنور وجدي وعبد الوهاب ولىلى مراد في شاشات تحكي بوضوح. لكن القمر لا يتكلم، فقط الصور مثل السينما من غير كلام. أي صور تتحرك وآدميون يمشون ببطء، وكذا الأشياء تتحرك. صور ورموز ومعان لا نفهمها إلا حزراً. نحزر ما معنى ذاك الرمز وتلك الصورة. يعني العَلَم حين تهاوى فوق الرؤوس في برك الدم كان النكبة، فبكت ستي، وقالت: راحت، ضاعت البلاد. وبدأت تبكي فحدقت الأم وقالت بخوف: لا مش معقول! فقالت ستي، وهي ترمي بتلك المرأة: أقول لك راحت، ضاعت البلاد، والناس يا حرام مثل النمل، والدم للركب، آه يا ويلى! ورمت المرأة.

كان ذلك قبل النكبة ببضعة أشهر، وكنا ما زلنا نتفاءل، وكان العرب مثل النمل، وجيوش زاحفة من سيناء ومن العراق ومن الأردن. كنا نظن أن القوة هي بالكثرة. كنا نظن أن العرب أقوى وأهم، مثل العيلة. لكن القمر قال قوله، وانكفأ العِلم فوق رؤوس تغرق بالدم. هل كانت ستي تتخيل؟ أنا لا أعرف. أنا حتى الآن لا أعرف. أحياناً أقول مثل الأحلام، يعني تفسير تلك الأحلام. لكنني أعود وأتذكر ما قاله القمر عن أشياء لم نفهمها في ذاك الوقت ثم مع الزمن تحققت على سطح الأرض. فما سر القمر ومرآته وهل من تفسير؟ وهل هذا ما يذكره بعض النشطاء في ذاك العِلم أو ذاك الفن عن قوى خفية ننكرها لأننا بالأصل لا نعرفها؟ أنا لا أعرف. وقد كنت أقول وأنا أصغر، وأنا ما زلت أتفلسف، تلك خرافات نبدعها أو نصنعها حتى نفهم، وتكون النتيجة لا نفهم. والآن أقرب بعد كل السنين، وبعد تجارب تخرق العظم: أنا لا أفهم. لكن ستي الأمّية، وما كانت تقرأ أو تكتب، وكانت أمية على السكين، كانت تفهم. وهذا ما قصدت بلغة القمر. يعني المخبوء والغائب والمستبطن في أزمنة فوق الإنسان.

جدي الفناء

وجدي أيضا كان غريبا في جو غريب. كان فنانا بالفطرة رغم عمله بالميكانيكا. كان يدير - في ذاك الزمن المتأرجح بين حوافر تركيا المندحرة وجيوش الحلفاء المنتصرة - جهازا أسموه بالبابور. كان جدي يدير البابور (المطحنة). يفكّه بيديه كلعبة أطفال. يزيل الصدأ ويزيته ويشحمه ويجعله يدور مثل الساعة. كان يحبه، يحب البابور. يحب الصوت المندفع من أركانه مثل المدفع. ومن ذاك الصوت ورعشات الأذن المرتجفة تحت الضربات المنسجمة مثل الإيقاع يسمع نغمات ومقامات تعصف جَوَّاه مثل الشهوة ونداء الجنس، فيهرع للدار مثل المجنون، ويخرج قانونا مخبوءا خلف خزانة ويبدأ بالعزف. وتراه ستي منشغلا عن كل الدنيا ومن فيها بتلك الأوتار، وشعره منبوش كدجاجة وأصابعه مثل الأسماك تسبح وتلعبط وتتقافز وتصدر ألحانا عاصفة ثم رقيقة، فتهمس بخشوع: هس، ولا كلمة، خليه يرتاح. كانت تحسّ، كانت تفهم، أن القانون بالنسبة له حاجة ملحة مثل التفريغ، مثل الشبع، مثل الشهوة ونداء الروح.

وجدي أيضا كان ذكيا، كان يفهم لغة الأرواح عبر القانون وصبا ونهاوند وسيد درويش. أما أخوها وكان جميلا بعيون زرقاء خافية، مثل الإفرنج فكان غيبا. كان أبوها يجلس ليلا؛ ليسمّع للولد سور القرآن والمحفوظات وجدول الضرب وما تعلمه عند الكتاب. يقول له بصوت هادر: سمّع، اقرأ. فيرتبك الولد ويتلو، ويقول عن السورة صورة، وعن القدر قدر، وعن خمسة بستة تساوي ستين. فيصيح

أبوه: وَلَهْ يا حيوان، لسه امبارح كانت ثلاثين. وَلَهْ يا زكية. وتكون هي عند الكانون مُحْمَصْ أرغفة الحبز:

- وَلَهْ يا زكية، خمسة بستة؟

فتقول بخوف:

- تساوي ثلاثين.

- وسبعة بأربعة؟

- ٢٨.

- وسبعة بسبعة؟

- ٤٩.

فينزل بالكف على عنق الابن، ويقول بغيط:

- شايف يا حمار؟ حتى البنات تعرف هذا. وأنت أئيس من أئيس بنت.

ويلتفت إليها، ويسألها:

- وشو حفظتِ كمان؟ هات لنسمع!

فتبدأ بقراءة ما حفظته عن ظهر قلب وتتلو القرآن والمحفوظات وجدول الضرب من غير كتاب. يعني ستي كانت أشطّر، لكن أخوها الأفندي هو من أرسلوه إلى الكتّاب. أمّا هي، فضلت أُمِيَّة على السكين. لكنها رغم ذلك كانت موهوبة وقوية وتحب الحياة. وحين كبرت صارت زوجة رجل صنيدي يدير البابور، مثل الساعة ويعزف القانون مثل المجنون، ويمشي على الأرض فيهِزّ السوق. ورغم ذلك فلم تكن تسمع كلامه حين يمنعها عن الزيارات والاستقبالات. كانت تحب الزيارات وشم الهوا. تخرج من الدار وهي تهرول حتى لا تضيع فقرة صغيرة مما يقال أو يقدم عند الجارات. وفي يوم ما حلف عليها إن هي خرجت ألا تكون على ذمته حين ترجع. فتحت الباب، وقالت بعناد:

- لاء، أنا خارفة.
- وتكونى طالق يا زكية؟
زّت كتفيتها وأعادت:
- لاء، أنا خارفة.
- طب والطلاق؟ أنا صرت حالف!
- اخرج فتوى من عند الشيخ، دبرّ حالك.
لقت غطوتها على رأسها وشدت الرضيع إلى صدرها وخرجت تركض.
وجلست في العرس وهي تصفق مع جموع النساء. وحين صاح الطفل
ألقمته ثديها، وهي تردد لازمة الغناء لامرأة ترقص وتتمايل وسط
النسوة ثم أخرى ثم أخرى حتى انتهت مراسيم العرس. وحين عادت
كانت الشمس قد غابت وشبابيك الجيران مغلقة ويغطي الزقاق ظلام
دامس. ورأته يجلس على العتبة ينتظر بحزن. كان الغضب قد تلاشى
وحلّ محله حزن ساحق. إذ أن زوجته الجميلة أم الأولاد باتت طالقا
وحراما عليه. فبعد خروجها ولومها لعدة ساعات لام نفسه؛ لأنه تسرّع
وحلف اليمين وخرب بيته. وقد كان عليه أن يتوقع أن زوجته الجميلة
كانت تختلف عن كل النساء؛ لأنها سليفة عائلة شريفة تمتد أصولها إلى
جذر النبي. يعني عائلة مشهورة بأصالتها وشهامتها وانكشاف السر
واختراق الغيب. فأبوها شيخ متصوّف، وجدها وليّ له حضرة، وجدتها
معروفة بقدرتها على مكالمة الجن ورؤية أحلام تتحقق في وضوح النهار.
وهكذا عاد إليها أو عادت إليه عبر الفتوى. استخرج فتوى من عند
الشيخ، وأخرج كفارة، وصام عن الأكل ولم يقرب زوجته عدة أيام.
ومن ذاك اليوم حرّم أن يرمي عليها الطلاق أو يمنعها عما ترغب. يعني
ستي كانت أقوى. لكنها رغم القوة كانت أميّة على السكين. ولهذا حين

.....

مات الزوج بضربة بابور سحبه إليه وفرم نصفه، وجدت نفسها من غير معيل. إذ أن ميراث الفقيد صار هباء حين سرقه كبير العيلة، سليل العائلة النبوية وكليم الجن.

كبير العيلة

كان عمها، كبير العيلة، رجلا مهيبا محترما بجبة واسعة كالوطواط وعمامة ضخمة بحجم القدر. كان يجلس في حوش الدار حول البركة تحت النارنج، فيقصده الناس للتبرك وسماع النصيح من الشيخ الجليل ذي العمامة والأصل الشريف. كان يحفظ سور القرآن، وأحاديث الرسول، وما قال علي، وما قال عمر، يفتي ويشرع ويفسر، ويقول للناس: صوموا تصحّوا. فيسألونه: حتى المرضى؟ فيقول بثقة: الصوم يشفي من القرحة ومن الغازات. وكذا الزواج المتعدد يشفي من الفسق والغواية وحب النسوان. كما أن اللحية الممتدة تحد من الفتنة والإغراء. ولهذا كانت لحيته مثل الجاعد، وفي ذمته طابور نساء، وفقس منهن مليون ولد. فكنت ترى أنحاء الدار مثل الحسبة وسوق الإثنين. لكن الحوش حيث الديوان والدكة ونصف دسنة من الأراجيل، كان مزارا لا يدخله إلا الوجهاء والمحتاجون ومن كان بحاجة للفتوى حتى يأمن معصية الله.

إذن عمها كان شريفا من أصل شريف. لهذا حين مات الزوج وخلف لها ألف مجيدية ذهبية وسبيكة ذهب ذهبت للعم فور الحادث، وقالت همسا: خذ يا عمي. ألف مجيدية ذهبية وسبيكة ذهب مال الأيتام. خذ خبئها حتى تنتهي مراسيم الدفن وحصر الإرث وما شابه. أطفالي القصر سيكونون تحت وصاية عدة أعمام. وهؤلاء هل هم أمناء؟ هل هم تقاة ويخافون الله؟ أنا لا أعرف. لكنك أنت، أنت عمي. أنت الكبير

المتفضل على كل الناس. خذ الأمانة وخبئها حتى نضمن حق الأيتام.
قال: طيب، بالحفظ والصون. وأخذ الأمانة وخبأها ونسي الموضوع.
حين عادت لتذكره بالأمانة، قال بغضب: أي أمانة؟ قالت: مجديات
وسبيكة ذهب! نفخ الدخان ولوى بربيش الأرجيلة، وقال بدهشة: أي
مجديات وأي سبيكة؟! قالت: التي أعطيتك إياها قبل الدفن. وأخذت
تبكي. فأمسك لحيته، وقال بعطف: اسمعي يا زكية يا بنتي. بك ذلك زكاة؟
بك صدقة؟ حاضر، على راسي، من عيوني. لكن تقولي لي مجديات
وسبيكة ذهب؟ عندك ورقة؟ عندك شهود؟

قالت بذهول:

- لا عندي ورق، ولا عندي شهود. أنت عمي.
أمسك لحيته وشد بها، وهي تبكي وتجوّح وتنوح.

قال بأسف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. خذي يا بنتي. خذي هذا المبلغ عن روحه.
نظرت إلى المبلغ بين يديه، وسألت بذهول: "عشر مجديات؟!"
قال بإشفاق:

- هذي المجديات عن روحه، لستر الأيتام.

خرجت من عنده وهي تنوح، ووقفت في الحوش تحت النارج،
وأخرجت ثديها ونظرت للسماء، وقالت: يا رب، بجاه النبي
وملائكتك، تقطع أثره وتعمي بصره وما تخلي في بيته نور ولا نار. بجاه
الرسل وملوك الجن اخفض قدره، واهدم حجره، ويدور شحاذ من
دار لدار.

وهذا ما كان. إذ فقد عائلته في زلزال كبير هزّ الدنيا، فانهدت الدار
على من فيها. وحين سحبوه من تحت الردم كان ضريرا، ومات فقيرا،

وأَمْضَى ما تبقى من عمره يشحذ قوته عند الجامع ويدور شحاذاً ذليلاً من دار لدار.

أما ستي، فلجأت للرفو والماكينة. ففي ذاك الزمن من التاريخ وما خلفته تركيا من فقر وقحط وأمية، فقد كان الناس، حتى الوجهاء، يلبسون المرقوع والمدور ويخيطون ملابسهم عند الخياط. وستي الموهوبة الذكية بدأت بالرفو والترقيع ثم ترقت وصارت تخطط القنابيز والبراقع، وصارت مشهورة بموضتها وأناقتها والدرزة النظيفة المخفية من غير حواشٍ مهمة أو قطبة نشار. ومع ذلك، ظلت تسترشد بضوء القمر وانكشاف السر عبر المرأة. لكن القمر والماكينة لا يستويان، إذ مع الوقت طغت الماكينة على المرأة ودخل القمر دائرة الظل وكذا ميراث آل قحطان.

جد الأجداد الشيخ قحطان

لم تكن ستي سليلة عائلة صغيرة، بل كبيرة واسعة ممتدة فيها المتعلم والأُمِّي وراعي الغنم، يعني قبيلة. وكانت القبيلة لها أفخاذ، أي ذبول وأطراف وحواشٍ تصل مكة، وواسعة باتساع الصحراء، حيث جاءوا. وطبعاً ممتدة ومديدة لأن الأفخاذ إذ تتزوج تبدو للعين مدملجة في أحسن حال. لكن الحال ليس جميلاً بكل الأحوال؛ لأن المؤسس - جد الأجداد الشيخ قحطان - جاء من الربع الخالي واستلم الخراج زمن الأتراك وصار من الخاصة والأعيان. كانت له سحنة جادة وعيون واسعة عسلية. كان جميلاً، طويل القامة، عريض المنكبين، وله صوت مثل المارد حين ينهر ويقول بحزم: شبيك لييك. وهذا ما قاله حين زاره والي السنجق في ذاك الزمن، زمن السلطان. رآه جميلاً فاستحلى الطول والصوت العريض ولون الناقة. كانت ناقته مسحوبة مثل سفينة ذات شراع يمتخر في الأفق فيتلاً مثل القمر في ليل بهيم. وليل البادية إذا تحلَّك ينبت أشباحاً وشياطين.

كان الوالي في رحلة صيد فلم يصطد، وحل الظلام فضلَّ طريقه وأرسل من يبحث عن مأوى وماء وطعام، فعاد الياور، وقال بلهفة: سيدي العربان خلف الكثبان. ماء ونخيل وربابة وناقة بيضاء مثل القشطة وحليب الغنم. فالتفت الوالي لحاشيته، وقال بهمة: ابشروا يا رجال، سنجد هناك من يطعمنا ومن يسقينا وننام بعيداً عن الضواري

ووحوش الفلاة. فحاضوا في الرمل حتى وصلوا ورأوا نارا وأشجار نخيل، ورأوا نوقا تقعي وتلوك خلف الماعز وقطيع غنم، ورأوا خياما وصواري وبسط حمراء تلمع كالجمر خلف الموقد. انطلق نباح فوق الراعي وهزّ بعصاه، وقال للكلب: اركض، جيبه. فصاح الوالي: ضيوفك يا شيخ. من منكم شيخ القبيلة، من يُقري الضيف؟

وقف جدي، جد الأجداد الشيخ قحطان، وقال:

- أهلا، شرفت الديرة وحماها، أنا شيخ القوم وأنت الوالي، أليس كذلك؟

دهش الوالي، وقال:

- أحسنت، فكيف عرفت؟

قال:

- من الياور والشاويش ونياشينك. الدار أمان، تفضل، حوّل. طعام وشراب من خير الله وخير السلطان. ونادى ابنه:

- اذبح يا سعد، أغلى ناقة واحضر ثريدا وتمورا وحليب النوق.

قال الوالي وهو يشمر عن أردانه ويغطس بالثريد حتى كوعيه:

- جازاك الله. كرم العربي لا يضاهى. جازاك المولى من خيره.

قال جدي:

- خير المولى مثل المزنة فوق الصحراء تمطر ماء فيخضر العشب.

قال الوالي:

- وهو كذلك، سيخضر العشب، وبدل الناقة نوقا وحميرا وبغالا

وخراج المال.

وهذا ما كان، إذ بعد شهرين أو ثلاثة، كان جدي، جد الأجداد الشيخ

قحطان، شيخ الناحية الصغرى ثم الكبرى ثم السنجق وخراج المال.

جد الأجداد الشيخ قحطان صار من العلية والأعيان. كان يعتصر الفلاحين ويذيق البدو مرّ الأهوال فأسماء الناس الشيخ قاحط. حتى أن إماما من الأوقاف قال عنه في خطبة جمعة أمام الجموع: الناس بقحط ونحن بقحطين، يعني قحطان. وحين جيء بالشيخ كي يحاكم، قال للدرك: أنا ما قصدت قحط الوالي، إنما قصدت قحط المولى -جل جلاله- لأن الجراد لم يُبق لنا عرقا أخضر. قحط المجاعة وعرفناه، ثم جاء الجراد ليمحقنا فصرنا بقحطين، يعني قحطان، هذا ما قصدت. أدخلوا سبيلي. فأخلوا سبيله. لكن الناس فرحوا جدا بذلك التعبير، وصاروا يقولون لمن ييخل أو يتجبر: أنت قاحط، أنت قحطان. ولمن انضحك عليه من التجار والفلاحين: أنت مقحوط، أنت مقحط.

إذن جدي الشيخ قحطان صار وجيها ومن والأعيان، فسكن المدينة وطورها وبنى قصرا يشبه قصور بني الأحمر في غرناطة فيه أعمدة وجنائن وبرك ومآذن وسرايب. كان السرداب لحبس الأشرار، أي لمن لا يلتزم بدفع الضريبة والجزية أو يتمرد على حكم الوالي والسلطان. وكان السرداب مثل مغارة طويلة كالنفق عند المدخل وتمتد طولا تحت الأرض حتى تصل سفح جرزيم. كان من يدخل في السرداب لا يخرج منه إلا للقبر، فأسماء الناس بحبس الدم. وحبس الدم صار لقباً يطلق على الشارع برمته ليومنا هذا. فإذا مررت بحبس الدم وأنت قادم من باب الساحة وخان التجار تجد المذكور على يمينك في ذاك الزقاق، لأن

الشارع صار زقاقا مع مرور الزمن واتساع المكان. صار الناس بمئات الألوف، وصارت نابلس أم السنجق مدينة بقضاء وفلاحين وزيت وزيتون وجبنة غنم وصابون شهير، وصارت شوارعها مرصوفة ببلاط ناعم للعربات وبغال الجيش والبلدية، وصارت بعنود بتنانير من اسكتلنده وايرلنده إضافة إلى الهند واستراليا وسود السنغال. وكذلك صارت بحاخامات جاءوا من روسيا وبولنده ثم أميركان. لكن الأميركيان تأخروا جدا، أو بعض الشيء، لأن الانجليز ظلوا في البلد حتى داخت، وصارت بيهود بعد الجراد والمجاعة والشيخ قحطان.



الشيخ قحطان ليس فريدا، فمثله أمثال. قبيلة قحطان في المدينة صارت عائلة كبيرة، عريقة جدا، ذات أركان وزوايا. ومثلها في العراق والهيبة وخراج المال عدد محدود من العائلات وكلها تمتد إلى مكة والنسب الشريف والصحابة والحسن والحسين. أما جدي، فهو قحطان ابن قحطان يضاهي الآخرين حسبا ونسبا، لأنه أيضا من أصل شريف وامتداد الرسول. وهؤلاء، كل هؤلاء، صاروا الأعيان والقادة بمرور الوقت، وتوارثوا الألقاب والوظائف وحتى الأوقاف أباً عن جد، وأيضا توارثوا حروب الغبراء والتنافس على كسب ود من حكمونا بدءا من الأتراك وبريطانيا حتى أميركا وأبناء سام. لكن للحق كان منهم من ضحى من أجلنا، وآخرون من ضحوا بنا لدرجة أن بن غوريون، شيخ اليهود، قال يوما أن باستطاعته شراء أكبر عربي مهما تكبر. وهذا للحق قول مردود على قائله لأن المذكور هو الآخر لبس الطربوش وخدم

السلطان وتذيل له وتغزل به قبل أن يعلو ويتربع على عرش اليهود. وكذلك وايزمان ذو المقام الرفيع قال عن الشيوخ ما قال ذاك. قال عن القادة والأعيان ما أكدته بعض الشعراء والمثوقين في ذاك الزمن، زمن التشهير، وما أكّده الوثائق وصكوك البيع. لكن بالرغم من كل ذاك البيع وتلك السرقات، لم يرق أحد من العربان إلى ما وصل إليه أبناء سام، إذ سرقوا بلداً بأكمله، بكل قراه، بكل مدنه، بالدور بالعفش وحلي النساء. وكل ما قيل عن الشيخ قحطان وأمثاله يعد غباراً إذا ما قيس بما فعله شيوخ اليهود بأبناء الرسول والشيخ قحطان.

زلزال كبير هز الدنيا وعيلة قحطان

انهدمت دار آل قحطان على من فيها ومات كبيرها وهو شحاذ وأعمى ومقطوع بلا ذرية، ولم يبق له من أصل وفصل إلا ستي وأخوها الغبي ذو العيون الزرقاء الخائبة مثل الإفرنج. فأرسلت ستي في طلبه حتى يتقاسما بقايا الميراث فلم يجبها. كان قد سافر إلى مكة في بعثة حج كمرافق، فالتقطته امرأة غنية من الحجاز وتزوجته، لأنه كان جميلا وكانت بشعة. لكنها كانت أذكى وأغنى وأهم، فجعلته مُمَهَّمًا بعد خمول، وجعلته غنيا بعد فقر، وأنجبت منه دسته أطفال، فترسخ وكبر وانتفخ ونسي أصله. وهكذا حين جاء ميراث ذاك العم وهو عبارة عن دار مهدمة وحاكورة وبابور طحين لم يكلف نفسه عناء الرد أو حتى السؤال. كيف لا؟ وهو لم يسأل عن أخته، وما حل بها بعد الرملة، وعن مدينته بعد الزلزال، وعن أهل الحي وعن أهله! فرأت ستي أن الله قد كافأها وأستد لها من ذاك العم بأن جعلها الوريثة الوحيدة لأُملاكه، بما فيها بقايا الدار والحاكورة وبابور الطحين. وحين أجالت النظر في تلك الدار وجدت أن الزلزال قد أبقي منها غرفتين في وضع سليم صالحتين للسكن، وبابور طحين مليء بالعناكب وبعر الفئران. أما الحاكورة فما زالت - رغم الإهمال - تنعم بعبير زهر النارنج والياسمين فوق البركة وأنقاض الدار. فنادت بكرها، وقالت: يا وحيد، تعال يا ابني، هذه الدار صارت لنا والحاكورة وبابور الطحين. سنقيم هنا.

نظر حوله ورأى الأنقاض، فقال بدهشة:

- هذي خرابة!
 قالت بحزم:
 - هذه الدار سنصلحها، والحاكورة سننظفها، وبابور الطحين تُديره أنت.

كان الولد ما زال في الثالثة عشرة من عمره وكان ما زال يقرأ عند الكتاب، ويفك الخط. ومن حسن الحظ أنّه لم يرث ذكاء خاله، فحفظ الفاتحة وجدول الضرب وبعض الأشعار.
 قال لها، وهو يفكر:

- طيب الدار سنصلحها، والحاكورة سننظفها، أما البابور فكيف أُشغله؟ أنا لا أعرف.
 قالت بحزم:

- تعال يا ابني، تعال معي. في البداية تشتغل عند الطحان حتى تتعلم أصول الطحن وتحصل على أجر يساعدني، لأن الخياطة لا تأتينا إلا بقروش.

هزّ الولد رأسه بدون تعليق، إذ كان يعرف رغم صغره أن العائلة بحاجة إليه فهو الأكبر، أما الباقون فما زالوا أطفالا بلا قوة قاصرين وأيتاما. وحتى هو كان قاصرا ورقيق العود إلا أنّه كان ذكيا، وكان قد تعلم عند الكتاب. والتعليم في ذاك الزمن بضع سنوات عند الكتاب كان بمقام البكالوريوس. وهو وقد بات يتيما ولديه أم قادرة تفتح بالقمر وتحلم أحلاما لها معنى، فقد أحس أن الأقدار قد اختارته ليقوم بأعمال هامة. وهكذا هجر الكتاب وبدأ يعمل. يحمل أكياس القمح على ظهره وينقلها من هنا لهنالك ومن تحت لفوق. وبعد شهرين بدأ يطحن. وبعد سنة أدار البابور. وبعد سنتين فكّ البابور وأصلحه وزيّته وجعله يدور

مثل الساعة. ورث الموهبة عن الوالد، لكنه بات أقوى لأنّه مسنود بأم مكشوف عنها الحجاب ويجدول ضرب تعلّمه عند الكتاب. أما ستي، فقد استمرت في تحصيل القرش من الخياطة ورقع القنايز. وحين رأت أن ابنها بدأ يتدّمّر وبابور الطحين بدأ يخسر، حيث أن اليهود بدءوا يتوافدون على الساحل ويحضرون مطاحن حديثة وسيارات تمشي على النفط، قالت لابنها: نبيع البابور ونشتري سيارة تُشغلها على خط حيفا. وكان السائق في ذاك الزمن له هبة مثل الطيار في هذا الوقت. أما السيارة فكانت حينها أعجوبة مثل الصاروخ وسفن الفضاء اليوم. وهكذا فحين عاد إلى نابلس يسوق الشفروليه على تراب الأرض وبلاط السوق وقف الناس يتفرجون على الحنطور العجيب الغريب، الذي لا ينجر بأية دابة بل يمشي وحده من غير حصان! أما وحيد فقد جلس خلف المقود ينظر إلى الناس باعتزاز عظيم وهم يلمسون مقدمة الحنطور وينفضون أيديهم ويقولون: سُخن!! وينادون بعضهم بعضا، ويقولون: عمرك شفت حنطور بلا حصان؟ فيقول: لا. ويقترّب من الحنطور ويمس مقدمته، ويقول: سخن! سبحان الله! عشنا وشفنا. الله ينجينا من الأعظم. شويا وحيد، منين هالفنون؟ فيقول وحيد بكبرياء:

- هذا من هناك، من الساحل، من الانجليز ومن السكناج.
- أي سكناج؟
- سكناج جاين من أوروبا، يعني لاجئين مثل الأرمن.
- مثل الأرمن؟ يعني مساكين!
- ابتسم وحيد، وقال بهزء:
- اليهود مساكين؟!

وأجال عينيه في الشارع، شبه شارع، أشباه دكاكين. فقر وذُلّ وتعاسة ورقع قناييز. وخبز أكلوه من مطحنته ممزوج بوسخ الفئران والعناكب وبيض الصراصير. وأطفال يدورون في الشارع حفاة عراة. فقال بإشفاق: نحن المساكين!

وعاد يمشي بالشفروليه ليرى الدنيا بعين أخرى عند اليهود والانجليز على الساحل. كان اليهود يتمركزون في مجموعات حول يافا، حول حيفا، حول عكا وصفد والجليل. كانت موانئ مفتوحة على العالم بفعل التجارة والاستيراد وبعض الوجهاء ممن خدموا عند الأتراك وتعلموا في الأستانة، وكذلك بعض الجاليات الأجنبية والرهبان. هناك وجد اليهود بيئة مناسبة للاستيطان فاستقروا. أما العرب، وقد خلفتهم تركيا شبه معاقين بعد أن امتصت دماءهم واقتنصت خيراتهم وشنت رجاءهم وساقطهم لحروبها مثل الأغنام فقد كانوا قطعانا مشتتة ينهشها الفقر. لكن طبعاً، بفضل الإقطاع، هناك أحياء ومبانٍ إن مررت بها في ذاك الوقت تحس أنك في الأستانة عاصمة الكون. لكن الآن، وقد باتت الخلافة مهددة بغريم جديد فقد تراجع العزّ وتآكل ونخر السوس أعمدة الحكم، فدخل الانجليز على أرض تمور بالثورة وترحب بالغزاة الجدد وتساعدتهم ليجيء الخلاص. ومن المفارقات وسخريات القدر أن الخلاص ما جاء لهم ولا وصلوا إليه. إذ أن الانجليز، وقد أصبحوا الأولياء والمتدينين على القصّر ومال الأيتام فعلوا ما فعله كبير العيلة حين خان الأمانة وأكل الميراث ونسي الموضوع. وهذا ما كان. إذ أن الانجليز حين ورثوا ما آل إليهم من الأتراك ليتدبوه ويحجروه ويطوروه، تصرفوا به تصرف الملاك والسادة، فصالوا وجالوا وأخذوا وأعطوا واقتسموا الغنائم وباعوها ووعدوا العرب ثم اليهود ثم فرنسا. وهذا كان وعد بلفور وسايكس بيكو ثم الدولة، فوق ميراث كومة أيتام.

فصل

بعد اندحار الأستانة ومجيء اليهود، اهتز اقتصاد عيلة ستي، إذ بات القنباز موضة قديمة. فما عادت ترفو أو ترقع فاختل الدخل. ابنها وحيد ظل يكافح حتى لا ينهار ويهزمه اليهود. لكن اليهود طبعا أشطر، إذ جاءوا بأموال ومعارف ولغات أوروبية - أميركية، ومهندسين من كل لون وجنسية فحدّدوا شكل الشارع ولغة الكوشان. وكان بلفور ينفذ وعده والجنرال اللبني يحايي اليهود وذاك المندوب، غير السامي، جاء ليتأكد من الموضوع. وبالفعل تأكد من أننا بالكاد نفك الخط وأن العرب صاروا قاب قوسين أو أدنى من السقوط، وأن العروش باتت تحكم والشعب ينخ. وهكذا صرنا بلا ظهر يحمينا وما من غطاء لهامتنا إلا الطربوش ولباس الست. ولحسن الحظ، بسبب التغيير، بات الطربوش، وكذا الغطوة، أهم مصدرين لتحسين الرزق. فركبت ستي تلك الموجة وبدأت تحيط ما يسترهم، أقصد بالذات لباس الست. في ذاك الزمن، زمن التغيير، عاد أخو ستي من مكة. بعد وفاة زوجته السعودية، عاد محملا بما تركته زوجته من ذهب وجواهر ومنقولات، واشترى سرب مراكب بخارية تنقل الحمضيات إلى أوروبا وتعود محملة بالبضائع وما لذ وطاب من مأكولات. كان قد بات ثريا فاشترى بيّارة حمضيات، وبنى بيتا جميلا في الكرمل، وجعل من أسطوله أسطورة، فبات اسمه على كل لسان.

رغم غناه، لم يتقدم أحد لخطبة بناته أو يجرؤ أحد على مصاهرة ابنه. كان ابنه قد ورث شكل أمه وذكاء أبيه، فخرج إلى الدنيا مزودا بأغرب ميراث وأقبح خلقة. كان بطرا مترفا، بجبين ضيق وأنف شاق. يسهر للصبح وينام للظهر ويضاجع الجنكيات واليهوديات وينثر النقوط على رؤوس الراقصات، ويشعل السجائر بورقة العشرة جنيها. كانت

سمعت لا تحمد، لكن أباه لم ير فيه إلا غزالا شاردا قلّ نظيره. كان إذا قيل له: ابنتك فالت، يكون ردّه بثقة واعتزاز: خليه يشبع. لكن الولد لا يشبع، ولهذا لم يفلح مع ذوات العفاف. إذ بعد أن خطب ابنة عائلة عريقة ضبطه أبوها في ماخور ينثر النقوط على أقدام الراقصات، ويشعل سيجارة لغانية بورقة العشرة جنيهاً، ففسخ الخطوبة وكتب الكتاب. منذ ذاك الحين سدت في وجهه أبواب العائلات وحجبت عن عينه كل المصنونات، فعاد إلى المواخير ينهل ويعبّ ويتدحرج حتى التقطته غانية يهودية لجمت جماعه وجعلته ينخ. علم أبوه بالأمر فبدأ يقلق ويلتمس النصيح من الأقارب والأصدقاء، فقليل له: الحق بابنتك وزوجه قبل أن يجعلك نسيباً للنور والسكناج. وحين فشل في إيجاد واحدة محترمة ترضى بابنه، تذكر ابنة أخته فجاء متوددا يطلب الرضا والقرب، بعد أن كان مترفعاً مبتعداً متمنعا بدون عواطف. استقبلته أخته بالحفاوة والحماس المضاعف. فها هو يطلب ابنتها المتواضعة لابنه الغني الثري ابن العزّ والمستقبل البهي. وقد كانت تتخوف أن يطالبها بميراث عمهما فلم يفعل. أشار إلى الموضوع بطرف خفي، وقال بمواربة وبها معناه: أن ذاك الميراث لا يذكر قياساً بما سيكون لدى ابنه وبناته بعد عمر طويل. وكان لذلك التلميح أثره البليغ إذ أنه يشير إلى ما لدى بناته البائرات من مواهب وإمكانيات فانتبهت. صحيح أنهن غيبات شبه معاقات ويلتغن بالسين وينثرن الكلام بشكل مضحك، إلا أنهن مدججات بالذهب والألماس واكتناز العجول. فإذا أخذت واحدة منهن لابنها وحيد فستكون قد اصطادت عصفورين بحجر واحد. تكون قد ضمنت لابنتها عشا راسخا بزواج البذل، وضمنت لابنها أدم ميراث وأرقى زيجة.

حين زفت الخبر إلى الأولاد انبرى الأوسط رافضاً. قال إن أخته ليست سلعة وإن الاقتراب من ذاك الخال ليس مزية، فخاله معروف بالجشع وافتقار الذكاء، وابنه معروف بالاستهتار وسوء الخلق، أما بناته فغيبات بطرات ويخربشن الكلام وينطقن السين ثاء، هذا ما قاله أمين، فبدأ الصغير يقلدهن ويجعل منهن أضحوكة. نهرتها الأم وحذرتها من التفوه بمثل ذاك الكلام أمام وحيد، فوحيد هو المسؤول عن العيلة وأمور الزواج. أليس هو المسؤول عن شؤون الدار ورزق الأيتام؟ لوى أمين شفثيه وغادر الدار وهو يتمتم، وعاد الصغير لدروسه، وعادت هي للاستماع لأخيها وما يسرده على سمعها من معجزات وأعاجيب قام بها مذ فارق نابلس أم الهم - كما كان يسميها - وجال في بقاع الأرض وتبرّك من بثر زمزم.

قال بإيجاز:

- رحمة الله عليها. تركت من المال ما لا تقدر على أكله النيران. كانت محترمة ووقورة. كانت تصلي وتصوم ولا تقطع فرضاً. الحمد لله، فقد ورث أبناءؤها ورعها وتقواها وكل ما تركته من أملاك. سبحان الله! من كان يظن أو يتوقع أني سأعود من الغربة بكل هذا العز والثروة؟ وقد كنا نظن هنا في نابلس أن عمنا كان أغنى من كل الناس! عمك يا زكية يا أختي، إذا ما قيس بأموال شيوخ السعودية وذهب البترول فلم يكن أكثر من شحاذ. عمي وعمك، ذاك النصاب، أنسييت ما فعل بميراثك ورزق الأيتام؟

هزّت رأسها، وقالت بأسى:

- لا تجوز على الميت إلا الرحمة.

- إلا الرحمة! وهل رحمك ورحم الأيتام؟

رمقته بنظرة مستغربة من ثلامته وقلة حساسيته، فهو لم يسأل عنها وعن أولادها طوال سنوات. وها هو الآن يذكرها ويذكرها. الآن احلّوت في عينه! لماذا؟ ما السبب؟ بسبب ابنتها؟ أو ربما بسبب بناته؟ قال بحماس:

- ابنك وحيد ما شاء الله، جدع ومسؤول ولا ينقصه شيء. لو يطلب أحسن واحدة في الدنيا تقبل على طول، بدون تردد. هزّت رأسها، وقالت بأسى:

- هو من أسندي وواساني بعد المرحوم. نزل للشغل وهو ابن ١٣. حمل أكياس على ظهره مثل العتال، ودور بابور عمي وعمك مثل الرجال، وبعدها ساق السيارة. صاح مستغربا:

- أية سيارة؟ يعني سواق؟ بكرة أخليه أحسن قبطان. ويمكن إذا الله وفقنا نشترى بواخر. ابني وابنك يا أم وحيد، شباب زي الورد. جمال ومال وصحة وعافية وذراع من حديد. إيه! نعم، ابني دلّوع وناقص شد، لكن لما يشتغل مع ابنك يتعلم منه أصول الشغل ويصير قبضاي. أنا متأكد. أولادنا يا أختي حيلتنا وزينة الدنيا. إذا أنت وأنا وجّهناهم ولينا الشمل ممكن نصير أحسن عيلة ويرتاح البال، صحيح والا لأ؟ هزّت رأسها باقتناع شديد:

- آ والله صحيح.

- طيب إذن نقرأ الفاتحة.

ثم حدجها بنظرة فاحصة مشحونة، وتابع قوله: أو الفاتحتين؟ فهمت قصده لكنها ظلت صامئة تفكّر بقلق وشرود. أعاد السؤال:

- نقرأ فاتحة ابنك وبنتك؟

- طيب يا أخي لما أشاور.
- أنت المسئولة وست الدار!
- قالت مفسرة معذرة:
- صحيح يا أخي، لكن وحيد بدل المرحوم وكبير الدار. وحيد يا رشيد، الله يخليك ويديم عزك كبير ومسؤول، ضروري يوافق.
- ورمته بنظرة مطمئنة مشجعه:
- طبعاً المسألة شكلية، لأنّه يوافقني على أي شيء. لكن ضروري آخذ رأيه. صح، والا لأ؟
- هزّ رأسه بتفاؤل:
- طبعاً، طبعاً، هذا الولد ما شاء الله! شاطر وموزون وكلّه رجولة. أنا متأكد يا أمّ وحيد، لما يعرف كل التفاصيل لازم يوافق ونقرا الفاتحة، وبإذن الله الفاتحتين.
- لم تعلق وظلّت صامته تفكر بأمل مشوب بالخوف. فالعرض هام ومغرّ جداً. صحيح أن ابن أخيها سخيّف ودلوع وقبيح الشكل، إلا أنّه غني جداً وسيحيل ابنتها إلى ملكة تغطس بالعزّ. وتلميح أخيها إلى ابنته والفاتحتين يعني اشتراط زواج البدل. فهل يرضى وحيد؟

1

وافق وحيد بفضل تشجيع أمه وحماستها. قالت له:

- رشا يا وحيد، بيضا وشقرا مثل أبوها. تلثغ بالسين لثغة خفيفة يمكن من الدلع وزيادة العزّ. لكن لما تصير عندك في البيت ممكن تربيها على كيفك. وأخوها رشاد صغير ودلوع وبكره يكبر ويصير مسئول. أنت لما تشتغل مع خالك ممكن تعلّمه على كيفك. يعني الاثنين خام بلا خبرة، ممكن تربيهم على إيدك.

هزّ وحيد رأسه وقال، بأمل:

- على بركة الله. خالي وأولاده على راسي، خير وبركة.

بالنسبة له، كل الناس خير وبركة ونواياهم طيبة مثل نيته. كان خجولا طيبا وبقلب أبيض لا يعرف اللف ولا الدوران. كان لا يرى سوى الجانب الطيب من الأشياء. وبما أنّه لم يتعلم فقد ظل عقله محدودا وبمنظرة سطحية وبسيطة. ربما لهذا السبب أحبه كل من تعامل معه أو اقترب منه. كان صادقا مستقيما قليل الكلام كثير العمل. كان يعتمد على نفسه ويثق بأمه، فقد علّمته الدنيا منذ الصغر أنّه قادر على القيام بأي عمل مهما كان، فنشأ عصاميا كادحا لا يعرف التعب ولا يكل من حمل الأثقال. كانت أمه هي مدرسته، وكان يراها تعمل وتكدّ بالخياطة حتى منتصف الليل، فتعلّم منها أن يضع قلبه وعقله في عمله ولا يلتفت إلى ما يدور حوله من مناورات ومناوشات تنتجها العلاقات بين الناس. وما زاد في عزلته ومحدوديته هو أن ما قام به من أعمال لا

يتطلب الاحتكاك المتواصل بالزبائن والناس. فهو مع البابور ومندمج فيه، سواء في المطحنة أو في كراج السيارات. كان العمل هو موهبته وفيه تجلّى وأبدع ونجح. ولهذا حين فاتحته أمه بمخطط خاله لم ير من المشروع إلا الجانب العملي منه. فالزواج بالنسبة له أمر طبيعي لا بد منه، وابنة خاله أحق من الغريبات. وإذا كانت تلثغ بالسين فلا ضير عليها، فلتلثغ بالسين كما شاءت طالما أتمها ستحمل منه، وتلد وتنجب أطفالاً أصحاء يرثون عنها الصحة والجمال والأصل الطيب.

قال له أخوه أمين ناصحاً:

- وإذا ورثوا الغباء والτίαςة؟

نهرته أمه، وقالت:

- عيب يا ولد تقول مثل هذا الكلام عن بنت خالك.

- بنت خالي صحيح، لكن غبية ودلوعة وتلثغ بالسين.

- ومين قال ناخذها لتتوظف؟ البنت حلوة وصحتها عال، بكرة تجيب له دسنة أولاد.

- أولاد بعقل مثل المحروس؟

- ماله المحروس؟ بكرة يكبر. اشكر ربك. هذي نعمة. نعمة من السما نزلت علينا لتعوضنا عن الشقا وأيام الفقر. الدنيا بكرة تتغير ويصير أخوك زي البكوات.

- طيب وأختي؟

- مالها أختك؟

- نعطيهها لواحد ما يسوى..؟!!

حدجته بنظرة هازئة، وقالت: رشاد، ابن أخي، صحيح أن الولد "داير وداشر" كما قال الناس، لكن الولد ما زال صغيراً وسيكبر. هذا

- الولد سيكبر حتما كما قال أبوه. قال الزواج سيكبره والشغل مع وحيد
سيجعله يسير مثل الساعة.
سألها بغضب واستفزاز:
- وهل استشرت وداد؟
بهتت الأم وانتبه وحيد فردت بوجوم:
- البنت صغيرة ولا تعرف مصلحتها.
ابتسم بسخرية، فصاحت بغضب:
- أنا أدرى منك بمصلحتها. روح لدروسك.
فخرج من الغرفة وخط الباب.

2

لم يستشرها أحد. كل ما قيل لها أثناء العشاء إن خالها الغني قد طلبها
لابنه رشاد، وأن وحيداً سيكون معها ويتزوج من ابنة خاله. وانتقلت
الأم مباشرة لتعدد مآثر ذاك الخال وكرم نفسه، لدرجة أنه لم يسأل عن
تركة عمها وعن حصته في إرث الدار.
غمغم أمين وهو يأكل: عنده بدل الدار عشرين! فقاطعت الأم قائلة أن
لدى الخال دور ومخازن وبيارات. ولديه قصر في الكرمل وخدم وحشم
وسيارات. ولكزت ابنتها، وقالت بحماس: بكرة تصيري زي الملكة
وتغرقني بالعز.

ابتسمت البنت وطأطأت رأسها وهي تأكل ولم تعلق، بل فتحت
أذنيها لتسمع المزيد عما سيكون، إلا أن الحديث توقف عند ذاك الحد،
وكان المسألة منتهية. فقامت عن الأرض وحملت ما فرغ من الصحون

وخرجت على رؤوس أصابعها حتى لا تخدش جو الصمت.

مرت أمام مرآة الممر، فلمحت شبحها الشاحب على ضوء قنديل البيرو، فتوقفت لحظة ثم أسرعت كي لا يراها أحد، إذ أن النظر في المرآة قد يفسر بعدة أشياء. فماذا يقولون لو رأوها تفعل ذلك؟ ماذا يقولون؟ كان قول الناس هو المحور. الناس هم، أي إختها وأمها والحارة والجيران. الناس هم، هم يقولون وهي تسمع. هم يطلبون وهي تلبى. هم يأمرّون وهي تنفذ. يقول وحيد وهو ينظر بعيدا بلا تحديد: يرضى عليك شربة ميه. فتقوم لتحضر كوب الماء. ويقول أمين: أختي حبيتي بدي آكل. فتقوم لتجهّز له الأكل. تقول الأمّ: ناوليني المقص والقطي حواشي هذا الفستان. فتفعل بالضبط ما قيل لها.

لم تفعل مرة ما يحلو لها أو تطلب شيئا يلزمها. كانت الأمّ تزودها بكل ما يلزم وتقول عنها كل ما يقال، ولهذا اعتادت عدم السؤال. حتى في المدرسة، كانت لا تسأل أو تضحك بصوت عال. كانت تبتسم إذا سئلت، ولا تجيب إلا بغمغة مفهومة أو غير مفهومة، فليل عنها: "عاقلة وآدمية وعلى البركة." وأحيانا يقولون: "طبطوبة" أي لا تفهم. لكنها تفهم ما يقال إذا ما قيل بشكل واضح. أما الإشارات والتنويهات والغمز واللمز، فتلك أشياء لا تعرفها ولا تلقطها، ولهذا أسموها "الطبطوبة."

حين بلغت، وكانت قد أكملت الصف الرابع، أخرجتها الأمّ من المدرسة وخاطت لها غطوة وإزارا أسودين لتلبسهما حين تخرج معها للزيارات أو لشراء الأقمشة والحاجات. ونادرا ما حدث ذلك. فظلت الغطوة على حالها شبه جديدة، وكبرت رجلها على الحذاء ولم تستعمله إلا حين خرجت مع أمّها وبعض الجارات إلى حمّام البلد. تلك

الزيارة لم تتكرر، واختبأ الحذاء في الخزانة حتى كبرت رجلها وبات صغيرا، فقالت أمها: سبحان الله، رجلك كبيرة زي أبوك! فهربت من الغرفة إذ اعتبرت أن كبر القدم عند المرأة ليس جميلا، بل هو دليل الفظاظة وقبح التكوين.

على أية حال، لم تكن جميلة ولا جذابة. كانت شاحبة رقيقة بعود ضامر وضميرتين نحيلتين وصدر ممسوح. لم ترث الجمال وقوة الإرادة والشخصية عن أمها. وربما كانت شخصية أمها الطاغية السبب الرئيس في ضمور شخصيتها وعدم نموها، فظلت مركونة على الهامش في ظل الأم. وظلَّت الأم تعاملها بصيغة النفي حتى بلغت. حينذاك أحست أن لديها أنثى تحتاج للرعاية واهتمام خاص فخاطت لها غطوة سوداء وإزارا وأخذتها لحمام البلد مع الجارات. لكن شحوب ابنتها وضمور الصدر والردين أثار تعليقات بنات الجيران، فاحمَرَّت البنت وأُخرجت الأم وتولَّد لديها إحساس راسخ بأن ابنتها ليست حلوة، ولن تجد من تتمناها زوجة لابنها، فأغلقت الباب وظلَّ الحذاء في الخزانة، وكذا الغطوة شبه جديدة. لهذا، حين جاء الخال وطلب الفتاة لابنه طار عقل الأم ونسيت، أو تناست، كل المحاذير وشجعت الابن على زواج البذل حتى تضمن زواج البنت، وتضمن الغرق في بحر العز.

3

كانت في الخامسة عشرة حين كتبوا الكتاب. ألبسوها الكعب العالي، وحشوا صدرها وغطّوا وجهها كي يراها الشيخ ويتأكد أنها ناضجة بالغة تصلح للزواج. أما ابنة خالها، وكانت طبعاً أكبر حجماً وأكبر سناً، فما كانت بحاجة لذلك الحشو. وقفت بكامل قامتها تحت الغطوة، بثقة تامة، وقالت: "وَكَلْتُ" فقال الشيخ "على بركة الله." وكتبوا الكتاب. حين كشفت عروس وحيد النقاب عن وجهها أصيب برجفة كالزلزال. بياض الوجه مثل القشطة، ولون العينين الدعجاوين جعلاه يهيم في بحور الشوق ويتلهف على لمسة يد. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى امرأة قريبة منه، غريبة مكشوفة الوجه أمام عينيه. كان يرى اليهوديات في شوارع حيفا ويافا، فيحسّ أنّه يشاهد جنساً آخر من عالم لا يمتّ لدينانا أو دنيا البشر بأية صلة. كن مكشوفات الوجوه والأرجل وبلا أكمام، لكنهن لا يثرن الإحساس أو الشهوة. كن غريبات. كن بعيدات. كن بلا جنس. أما هذه، ما شاء الله! فلديها صدر من مرمر، ووجه كالبدر، ثم عجيذة تدير الطاحون. كان الجمال في ذاك الوقت يقاس باللحم والشحم والبياض الوفير. وكان لديها ما يوصف بكامل الأوصاف. لكنها حين فتحت فمها لتتكلم أصيب بخيبة أمل لم تستمر إلا لحظات ثم تناسى.

أما ابن خاله رشاد، فحين رفع النقاب ورأى أمامه طفلة صغيرة ممسوحة الصدر رغم الحشوة، شاحبة الوجه رغم الحمرة، وبلا تعبير،

أصيب بخيبة أمل شديدة، فلوى بوزه ونظر بعيدا وأخذ يتمتم بالشتائم ومسبات الدين عمّن كان السبب في ذاك الفخ. أما أبوه، وكان المقصود، فكان سعيدا يضحك بحبور، ويسلم بكلتا يديه، ويغدق على المهنيين أحلى الألفاظ. كان ما زال في الخمسينات وما زال يحتفظ بقوته وجثة ضخمة، وهذا ما أورثه لبناته. أما ابنه، فصغير البنية ضئيل الحجم مثل أمه، ولونه بني على أخضر وبأنف ضخمة. كان قبيحا، وهذا ما أسعد عمته - أي حماته؛ لأنها رأت أن ابنتها، قياسا بدمامة عريسها، جميلة جدا وتليق له ويليق لها. أما هو، وكان قد اعتاد النوريات وغنج وحلاوة اليهوديات، فرأى بنتا لا تحظى بذوقه ومزاجه، فقرر من فوره أن يهجرها ويتزوج عليها في أقرب وقت.

قال له أبوه بتهديد خفي: أوعى تنجن وتغلط معها. تذكر أختك. فتمتم بكلمات غير مفهومة ولبسها الخاتم وهو ينظر يمنة ويسرة وإلى أخته التي كانت تجلس بجوار عروسه، وتملأ الكرسي بحضن واسع ووجه كالبدر، وكانت تبتسم بسعادة. أما عروسه، فكانت مجفلة خائفة تنظر للجمع من تحت لتحت، ثم تركّز على ذهب الشبكة في يديها دون أن تُعير العريس أية نظرة أو تقول له أية كلمة. كانت تنتظر أن يقول لها ما تجيب عليه. لكنه لم يقل إلا "إمسكي هذه"، وهويناولها علبة الذهب المخملية، ويفك الزردات، ويغلقها حول معصمين رفيعين مثل العيدان.

شبكة العروسين كانتا فخمتين. الخال اشترى الشبكتين كنقود منه. وكان الاتفاق على أن تتم الخطوبة وكتب الكتاب في احتفال بسيط في نابلس، على أن يحتفل بالعرس المزدوج في حيفا بعد أشهر. في تلك الأثناء تقوم العروستان بشراء الجهاز، ويقوم وحيد بترتيب أموره العملية

والعائلية بحيث ينتقل إلى حيفا دون إرباك. وهكذا، في ذاك المساء، بعد أن انفضّ الجمع وغادر أهل حيفا إلى حيفا واختلى وحيد بأمه، قال لها بقلق واضح إن انتقلهم إلى حيفا سيكون صعباً على الجميع؛ لأن التغيير سيكون كبيراً وأكيداً. فقاطعته بسرعة وثقة:

- أنا وأخوتك نظل بدار العيلة، وأنت وأختك عند خالك هناك. حيفا قريبة، كلّها ساعتين أو ثلاث وأكون عندكم. أنا قلبي عليك مطمئن، لكن أختك...

وتلفتت حوالها، وقالت همساً:

- وداد يا وحيد مسكينة، وهذا الولد، ابن خالك...
هزّ رأسه، وسأل بقلق:

- يعني غلطنا؟

نظرت بعيداً، وهمست بخوف:

- أنا خايفه عليها من الدنيا! البنت صغيرة ومغمضة.
وصمتت لحظات ثم عادت لتقول بلهجة اعتذارية كما لو كانت تبرر فعلتها:

- أنا خفت عليها تتعسّس. أنت عارف...

وكانت تقصد أن شكل وداد ليس جميلاً، وأن ذاك الشكل لا يؤهلها للحصول على حظ أفضل. لكن الولد ابن أخيها لم يبادل ابتهاجاً كلمة. سألت وحيداً إذا كان قد لاحظ ذلك، فهزّ رأسه نفياً وظلّ صامتاً، لأنّه لم يلاحظ ولم ينتبه، فقد كان مشغولاً بعروسه، يتأملها ويبتسم لها وتبتسم له، ويتحين الفرصة ليقول لها كلمة من هنا وكلمة من هناك في غفلة عن جموع النسوة المحتفلات. في ذاك الجمع، وصوت الفونوغراف يلعلع بأغنية مصرية، وصوت النسوة، وعدد كبير من الأطفال، وانشغاله التام

بعروسه، لم يلحظ ما كان يدور حوله بجانب أخته، فسأل بفضول:

- يعني ما قال لها ولا كلمة؟

قالت بقلق:

- ولا حتى ابتسم.

حدّق في وجهها يتفحصها، فقالت بأسى:

- ولا نص كلمة.

٤

بعد كتب الكتاب لم تذق وداد طعم النوم. كانت تفكّر بالعريس، ماذا سيقول وماذا سيفعل؟ منذ كتب الكتاب لم تسمع منه. فرحت جدا بذهب الشبكة، وأصيبت بإثارة كالحمى وهي تخرج مع أمّها لانتقاء الجهاز. كانت صغيرة وبريئة ولا تعرف من دنياها إلا ما تسمع من أمّها ومن أخوتها. ولهذا كانت فرحتها بالشبكة والملابس فوق العادة. كأن السماء انفتحت فجأة واستجابت لدعاء لم تطلقه، لأن ما حدث كان أكثر من أي دعاء أو أي حلم. ذهب وملابس حريرية وحذاء جديد وآخر وآخر ثم فساتين. سبع فساتين كل واحد منها بلون: أحمر وأخضر وأصفر وأزرق وغيره وغيره. وملابس داخلية مزوّقة بالتّل وبالذاتيل. كل هذا لها؟ مثل الأحلام! أما العريس، فلم تفكّر فيه كثيرا، لأن الذهب والملابس كانوا أهم. ولكن، بما أن وجود العريس كان السبب في كل ذاك السخاء، إذن لا بد من تقديره.

أمّها قالت ما لم تفهمه. قالت إن على المرأة أن تكون قوية حتى تتحمل مزاج الرجل وطلباته، وأن تكون ذكية حتى تعرف كيف تلجمه

وتحتفظ به. لم تسأل أمها ما معنى هذا وما معنى ذاك، إذ فهمت أن على المرأة أن تكون قديرة في أمور المطبخ وشؤون البيت، هذا مفهوم. أمّا أن تلجمه لتحتفظ به، فهذا ما عجزت عن فهمه. إذ كيف تلجمه؟ هل هو حصان حتى تلجمه؟ وكيف تحتفظ به، وهي على ذمته بعد كتب الكتاب؟ احتفاظه بها واحتفاظها به تحصيل حاصل بفضل كتب الكتاب والخواتم، وذهب وجهاز وملابس. ألم يشتروا كل هذا وذاك ليحتفظ بها وتحتفظ به؟

توتر أمها وقلقلها جعلها تستغرب وتتساءل: لماذا لا تبدو سعيدة؟ ألم تقل لها منذ أول يوم "بكرة تصيري زي الملكة؟" ألم تقل أن باب السماء انفتحت لهم وسيصير وحيد مثل البكوات؟ لماذا إذن تبدو غاضبة وحزينة؟ لماذا لا تكفّ عن ترديد كلمات وعبارات لا معنى لها؟ لماذا سألتها كما لو كانت غاضبة أو مستاءة عمّا قالاه؟

قالت الأمّ:

- أنا شفته قال لك كم كلمة.

قالت البنت بسداجة:

- قال لي امسكي هذي العلبة.

همرت الأمّ:

- هذا كل شيء؟

واستدارت بوجهها، وهمست بقلق:

- استريارب!"

وتركت البنت ترتب الجهاز في أهرامات.

5

دعاهم الخال لقضاء يوم في جريشة. وجريشة مكان للنزهات فيه نهر وشجر وقوارب وشلال صغير، يضعون تحته سلال الفاكهة والبطيخ حتى يبرد. وهناك مغارة يخرج منها ماء بارد برغوة كثيفة يكتشفها الرجال برفع البناتيل والخوض في الماء حتى الركبة، بينما تجلس النساء بالملاءات تحت الشجر قريبا منهم يعددن الأكل بسعادة. كانت فلسطين كالجنة، وكان الناس في غيبوبة.

ابتدأ التحضير للنزهة بإعداد الأكل. امتلأ المطبخ بالخيرات ودخان الفرن وزيت القلي. كُبة ومقالي وصفيحة وأقراص سبانخ ومتبل. سأها وحيد وهو يضحك:

- كل هذا الأكل ليوم واحد؟

قالت باعتزاز:

- خالك أرمل، وبناته كسالى ودلوعات.

قال متوددا:

- تسلم ها لايد ما نعدمها.

وتركها واستدار نحو الساحة، وجلس وحده عند البركة تحت الخشخاش. كان سعيدا، فأحست الأم بالخيبة. فها هو سندها ورفيقها في العبء ينشغل عنها بعروسه. وهذا الانشغال لا مبرر له؛ لأن عروسه مثل اللعبة، وجه جميل ورأس فارغ. رأتها مرة تصب القهوة وتدلّق وتشرشر وترشرش. فإذا كانت تفعل ذلك بصب القهوة، فماذا

تفعل بطبيخ الزوج؟ ماذا تفعل بشؤون البيت؟ ماذا تفعل بالأُمومة حين تحبل وتلد الأطفال؟

لم تتفوه بأي من ذلك لأنّها المسئولة عما حدث. ألم تكن هي من شجعتَه على ذاك الزواج؟ ألم تتحمّس لزواج البدل حتى تزوج ابنتها فلا تتعنّس؟ إذن السكوت أحسن وأشرف، لأن الاعتراض فات أوّانه، ولا اعتراض على حكم الله. هذا نصيبه ونصيب البنت. على كل حال، لا أحد يعرف من أين يأتي الخير وما الأفضل. فلو ظلت وداد كالعوانس، أهذا أفضل؟ ولو ظل وحيد في نابلس، أهذا أحسن؟ لا، لا يمكن. فلو ظل في نابلس لظلّ فقيراً على قد الحال يعمل في سواقه السيارات ويعود إليها كل مساء بما لا يكفي، فتضطر للعمل في الخياطة ورقع القنايين. إذن لا اعتراض على حكم الله. الخيرة فيما اختاره الله. نصيب البنت ونصيبه. وما عليها سوى أن ترضى بحكم الله وتقع به.

لكن، الغريب، أنّها لا تحسّ بالسعادة وينخرها الخوف، فماذا تفعل؟ صلّت ركعات إضافية. قرأت سورة ياسين عشر مرات. عملت استخارة للاثنتين، والاستخارة تنبئها أن الخيارات ليست خيراً، فتعيد الاستخارة ثانية وتكون النتيجة واحدة، فيزداد الخوف وتزداد صمتاً وشحوباً، فتسألها البنت: مالكِ يَمّه؟ فتَهزّ رأسها وتقول بوجوم: ما مالي شيء. فتسألها البنت: خايفه نتزوج ونسأك؟ فلا تجيب. تغرز رأسها في جهاز البنت تحيط هذا وتسوي ذاك، فتقول البنت بسعادة: حيفا قرية، تعالي زورينا كل جمعة، تنامي عندي. البنت أقرب من الكنّة، صح يا أمي؟

تقول "صح" وقلها يخفق، لأن القول صحيح جداً. البنت أقرب من الكنّة. البنت أضعف من الولد، جناح مكسور. البنت صغيرة على

الزيجة، والعريس قبيح، قبيح جدا. تصلها أخبار بأنه دابر، ما زال يدور. يسكر ويخمر وينثر النقوط على الرقاصات والجنكيات ويشعل سجائر اليهوديات بعشرة جنيهات.

سألت أخاها، فقال لها:

- الولد صغير. بكره الزواج يخليه يعقل. أنا متأكد. وجود وحيد معي فوق رأسه لازم يوعيه. أنا متأكد. وبعدين يا أختي، كلام الناس ماله نهاية ويعمل من الحبة قبة. اسمعي مني. أولادنا بخير، وأنا وأنت بخير. خذي هذا المبلغ يا أختي ودبري أمورك. بلاش خياطة. الخير كثير والحمد لله واسمعي مني اتركي نابلس. حيفا أحسن. الدنيا هناك أحلى وأحسن. بحر ومينا وناس زي النمل وشوارعها فيها كهارب وفيها عمارات ما شاء الله! وأنا عندي عمارة في الكرمل ثلاثة طوابق: طابق لرشاد، وطابق لرشا، وطابق لك إذا وافقت. يعني تكوني قريبة منّا.

هزّت رأسها، وقالت بقنوط:

- أنا لازم أظل بدار العيلة. أنت لك في الدار أكثر مني. نهرها أخوها وأسكتها:

- هس، ولا كلمة. أقول لك عمارة تقولي لي الدار!

قالت بحزن:

- الدار لمتنا وسترتنا أنا واولادي. ما شفنا بظلمها إلا الخير.

قال ساخرا:

- خير الخياطة ورقع القنايز!

نظرت اليه من تحت لتحت، وقالت بخبث:

- لولا الخياطة ورقع القنايز لمتنا من الجوع.

وصممت فجأة كي لا تكمل وتكيل له اللوم وتقول له كلمة جافة تذكره

بما نسي هو، ولم تنس هي، أنّه لم يسأل عن أخته حين احتاجت. أنّه لم يسأل عن الأولاد حين كانوا صغارا أيتاما وبحاجة لكتف تسندهم وتحنو عليهم. في ذاك الوقت حين احتاجوا لم يجدوا أحدا يسندهم أو يطعمهم إلا الخياطة ورقع القنايز، ثم هذا البيت وبابور الطحين والسيارة هنا في نابلس. ماها نابلس؟ صارت كخة؟ لأن نابلس بقناديل تضوي على الكاز وحيفا بلمبات وكهارب؟ لأن نابلس بلا ميناء وحيفا على البحر؟ لأن نابلس بلا أجنب ولا يهود ولا رقّاصات؟ نابلس مستورة بعتمتها. نابلس للناس المستورين. نابلس لها، وهي لنابلس.

ونظرت حوله، فرأت الدار، دار العيلة، مثل الجنة. سقف عال وكليل عريض وزجاج نوافذ يصل السقف، وساحة الديار حيث البركة وشجر الخشخاش وأصص الريحان والياسمينه تظلل شبابيك غرفتها وغرف الأولاد.

سيرحل ولدان من هذا البيت. وحين يتخرّج أمين سيلحق بهما ليدرس في القدس، ومن بعده سمير. كل في طريق. كل في اتجاه. وتبقى هي في ظل الدار والياسمينه وشجر الخشخاش. الابن يغيب وهي تبقى. مهما غابوا ومهما رحلوا ستظل الدار، وتظل هي، لأن الأم أصل العيلة، هي سند الدار.

نزهة غريبة ونسيم الخرب

وصلوا جريشة فاستقبلوهم بالتهليل والقبلات. وقفت البنات صفاً واحداً بجوار الخال وبجانبهم امرأة غريبة مكشوفة الرأس ولباس غريب مثل الإفرنج، قالوا بأن ضيفتهم من القدس. الكل سعيد ويهلل ويسأل ويجاب ويأزح إلا رشاد، فقد وقف بعيداً مسافة خطوات. البنات ارتعن على العمة يُقبّلنها ويتسابقن على إجلاسها في أحسن مكان، يقدمن لها العصير والمكسرات وهي تضحك. نسيت مخاوفها لبضع لحظات، ثم انتبهت وأخذت تراقب تفاصيل الجو.

لاحظت أن ملابس البنات مختلفة عن السابق، فملايسهن أكثر تلويها وأناقة. صحيح أنهن ما زلن يضعن المناديل، إلا أنهن مناديل ملونة تلتف حول رؤوسهن مثل "الشمك"، بينما اختفى الإزار وحلت محله جاكيتات تبرز من تحتها ملابس ملونة قصيرة تصل الركبتين. كانت قد رأت مثل تلك الملابس على نساء القدس حين زارت الحرم آخر مرة. حين رأت تلك الموضة، قالت في نفسها: نسوان القدس فرنجيات برنجيات مثل اليهود والانجليزيات. وها هي ترى بنات أخيها وقد أصبحن كالقدسيات. ربما بتأثير الضيفة واسمها ليزا. ما هذا الاسم! ما هذا الشكل! سيكون لها أسوأ تأثير على البنات وعلى ابنتها. وقررت أن تفتح أخاها بالموضوع. ستحكي معه وتلفت نظره.

لكنها لم تتمكن، فأخوها محاط بالرجال من كل جانب، ابنه وأبناؤها وسائقه ورجل غريب قالوا عنه إنه تاجر مثله ويعمل معه. من هو ما أصله وما فصله؟ قالوا يهودي. ففتحت عينها بانتباه وقررت أن تحكي مع أخيها بشكل مضاعف، فهو محاط بالأغراب من كل جانب. ألا تكفي القدسية المكشوفة؟

وأخذت تراقب تلك المرأة. كانت تبدو في أواخر العشرينات وتلفت

النظر بأناقتها. كما أنها مكشوفة الرأس تماما، فلا مندبل ولا غطوة ولا حتى شال يسترها. حاولت أن تقترب منها كي تسمعها وتحكي معها، إلا أن دائرة النساء الصغيرات بما فيهن ابتتها كن يحطن بها ويستمعن إليها ويتسمن بأدب واستحياء. كما أن عددا من الخادومات والطبائحات كن يجلسن قريبا منها، يحضرن الأكل ويصدرن طقطقات ووشوشات تزعجها وتجعل التنصت على البنات وتلك الشابة صعبا جدا. فنادت كتنها، وسألتهن من تكون تلك الشابة. أعادت رشا ما قيل سابقا بأنها الأستاذة الست ليزا. حين حاولت معرفة التفاصيل أجابت ببساطة وعدم اهتمام، وبقرط السين: إئالي بابا.

أسأل بابا؟! منذ متى تقول عن الوالد بابا؟ البنات تربين في السعودية وكن يقلن عن أخيها "أبي ويابا" مثل كل الناس، فمن أين أتت كلمة بابا؟ أكيد من الأستاذة الست ليزا. وحاولت أن تسأل بتفصيل أكثر، إلا أن رشا استدارت وانضمت للبنات تستمع باهتمام للأستاذة. وكانت تلك تفسر، وتقول:

- الدنيا اختلفت عن زمان. المرأة في مصر خلعت الحجاب ومشت في المظاهرات ودخلت الجامعات. هدى شعراوي تقول إن المرأة مثل الرجل. وقاسم أمين قال المرأة أصل العيلة وأصل التغيير. شوفوا أوروبا. شوفوا أميركا. شوفوا روسيا. روسيا كانت أتعس منا. لكن لما علّمت البنات، روسيا صارت دولة كبرى، زي أوروبا ويمكن أحسن. يعني التعليم وتربية البنات أساس الأمة. وإذا كانت الأم أمية تظل الأمة في خبر كان.

سألتهما واحدة بخجل وارتياب:

- يعني وين يكون خبر كان؟

ابتسمت ليزا، فضحكت البنات بحيرة وخجل، إلا أن رشا سألت
ببساطة طفولية:

- يعني إذا خلعنا نتغير؟

ضحكت ليزا وضحكت البنات بما فيهن وداد. واستمر الحديث
طويلا، ليزا تحكي وتسأل وتحجب، والبنات ينصتن باهتمام وتعجب.

كن يجلسن على البسط والحشيات تحت الشجر، فزحفت وداد بضعة
أقدام حتى أصبحت ملاصقة لأمها، وهمست كما لو كانت تفشي سرا:

- هذي تقول إن الواحدة منا لازم تكون مثل الرجال، وتمشي في
الشارع بلا غطوة.

هزّت الأم رأسها باستياء دون تعليق.

أضافت وداد بحذر شديد:

- يمه شو في بنات خالي كيف بلا غطوة؟

هزّت الأم رأسها وتمتمت باستياء:

- شايفه، شايفه.

- ولا بسات الأحمر والأصفر!

- شايفة، شايفة.

- وسمعت رشا بتقول "بابا؟!"

ولوت فمها، وهي تقول كلمة "بابا" بسخرية واستهجان.

فقالت الأم، وقد فاض بها الكيل:

- وَلِكَ شايفه، والله شايفه!!

وفكرت بسرعة كما لو كانت تستعد لدرء هجوم على ما يشكل أغلى

وأهم ما في العالم، وقالت بحدة واستفزاز،

- هات الأقراص وهات الكُبة، يالله بسرعة.

- فأخرجت البنت كل الأطباق الملفوفة، ووضعتها على الأرض أمام
الأم. ناولتها الأم طبقاً في كل يد، وقالت لها بلهجة تحريض ونفاذ صبر:
- خذي ضيفيهن.
- ثم نادت كنتها بصوت عال:
رشا، يا رشا، مدي إيديك.
استدارت رشا، فناولتها طبقين آخرين، وقالت لها بصوت آمر:
- خذي ضيفيهن.
وحين رأت البنات أصناف الأكل صحن بحبور:
- كُبة وأقراص! الله أكبر!
واستدرن عن المتحدثة، وهجمن بحماس على الأقراص.

6

ذهب الرجال ليخوضوا في المغارة حتى الركب، وذهبت البنات لركوب قارب سياحي، وظلَّت الأم في موقعها لتشرف على تحضير الأكل. كانت لا تثق بأيِّ كان فيما يتعلق بأمور المطبخ وإعداد الأكل. كانت سمعتها في العيلة وبين المعارف والجارات أنَّها ذات نَفَس رهيب في الطبخ لا مثيل له بكل فلسطين، بل ربما بكل العالم. فأكلة الرؤوس والكوارع من بين يديها حدث لا يمكن نسيانه. ومحاشي اللفت والخيار والفقوس وقائمة طويلة من الأكلات المعروفة وغير المعروفة، لا توجد امرأة أخرى مهما اجتهدت بإمكانها مجاراتها في هذا الفن. شهرتها بهذا الميدان جعلتها تحسُّ أنَّها المسئولة عن المذاق وفن التقديم في أي مكان تدعى إليه ويكون الطعام هو المحور. وغالبا، في كل مناسبة مهما صغرت، يكون الطعام هو المحور. في الأعراس وحفلات الطهور ومباركات الحج والمآتم وحتى النزعات، يكون الأكل هو المحور. وحينذاك، تتصدر الرِّكب كقبطان ماهر يعرف وجهته بلا بوصلة ولا دليل إلا خبرته وإلهامه.

جاء أخوها ليشاهدها وهي تقود جوقة الخادومات وتغطس بيديها حتى الكوع في طشت اللحم. رفعت رأسها، وقالت بعجب: ما رحت معهم!! فضحك وقال: خلص كبرنا. ناقص أشمر عن ركبي وأخوض في النهر. خلص كبرنا. وجلس في مواجهتها وفي نيته أن يفاتحها بشأن الملاية وغطاء الرأس لكنَّه وداد إذ لا يمكن أن تظل البنت على حالها - دقة قديمة - في الوسط الراقي في حيفا. ابنه رشاد شاف الدنيا ودار

العالم ورأى النساء العصريات من كل لون وجنسية. كما أنه بسبب عملهم في الاستيراد يخالط اليهود والأجانب وكبار الوجهاء من التجار ويحضر حفلات الأكابر ويسافر ويودّع ويستقبل ألوف السياح. بادرها بثنائه المعهود على شطارتها في صنع الفطائر والكُبة، ثم هذا اللحم بين يديها مثل الفستق، الله الله! وهذه التوابل والرائحة التي تسيل اللعاب وتجعل الإنسان يتمنى لو يأكل اللحمة من غير شواء. هي الأستاذة في المطبخ ولا أحد يجاريها في هذا الفن. صحيح من قال إن أقرب الطرق إلى قلب الرجل هي المعدة.

فكرت هي بابتسام خبيث: بل أقرب الطرق إلى عقله وعقول النساء. ألم تر كيف أدارت عقول الفتيات، حيث تركزن ليزا تنعق في الجو منفردة حين رأين الأقراص؟ إذن فليكن هذا المدخل هو فرصتها لمفاتيحه بشؤون البنات وتأثير الموضة على العفة. ألا يفهم أخوها أن العين هي المدخل؟ يعني كالأكل. ألا يعترفون ويعترف هو بقول المثل أن المأكّل يبدأ بالعين؟

قالت له، وهي تضيف رشة فلفل على طشت اللحم:
- صحيح يا أخي أن الطبخ فن وشطارة. اللقمة الحلوة بتدوّخ. أصلا يا أخي، يا تاج راسي، شطارة الواحدة أن تعرف كيف تتحايل على زوجها بأن ترضيه وترضي بطنه. وحتى ترضيه لازم تعرف فنون المطبخ وتقديم الأكل وتخلي المنظر على السفرة مثل الزهور في الجنيه. العين بتاكل قبل الفم. صح والّا لأ؟ لكن لما ترضي العين وترضي الفم، الله أكبر، كأنك صليت. ولما الواحد يشبع بطنه ويثقل رأسه يغرق في النوم من غير ما يحس. معقول تنام وبطنك جوعان؟

قال مبتسما وهو يمد إصبعه في طشت اللحم ويلحسه ويهزّ رأسه:

- طبعاً لا.
- مضبوط كلامي والآلاً؟
- هزّ رأسه موافقاً وهو يتذكّر وليمتها الأخيرة بعد كتب الكتاب، وكيف أنّه ظل يأكل حتى انتفخ بطنه وطار صوابه وأنّه نام على الكنبه الممسطول، فاضطروا لهزّه هزّاً شديداً حتى لا تبرد الكنافة ويجمد السمن على الكلاج. وحين عجزوا عن إيقاظه قربوا صحن الكنافة من أنفه، ففزّ من النوم وهو يصرخ كالملدوغ: كنافه! كنافه! وهجم على الكنافة، وهو يقول: الله أكبر!
- عادت تكرر مقولتها، لتسحب اعترافاً لا يتراجع عنه:
- مضبوط كلامي والآلاً؟
- قال معترفاً:
- مضبوط، مضبوط.
- يعني الواحدة مهما عملت ومهما سوّت الطبخ يغفر كل ذنوبها؟
- رمقها ضاحكاً، وقال بسرعة:
- مثل ما غفر كل ذنوبك.
- ابتسمت، وقالت بمكر ضاحك:
- ذنوبي أنا؟ أنا عندي ذنوب؟
- هزّ رأسه، وهو يتسم ويتذكّر:
- إيه يا زكية! نسيت المرحوم شو ذاق منك؟
- ذاق مني أنا؟
- نسيت المسكين شو كان يتحمل؟ نسيت زيارتك والأعراس والاستقبال وشطحات الخلّة والحمام؟ نسيت كم مرة حلف عليك وما سمعت الكلام؟ نسيت كم مرة راح يشحذ فتاوى من الجامع ومن

سيدنا الشيخ؟ أنا أتذكّر قال لي مرة: أنا لازم أوظف شيخ عندي بأجر شهري حتى يفتي أعمال أختك.

ابتسمت هي مشجعة بارتياح لاتجاه الحديث:

- الله يجازيك يا أبو رشاد، كيف متذكّر؟

هزّ رأسه يمينا وشمالا، وقال ضاحكا:

- معقول أنسى؟

قالت كاذبة تتملقه:

- طول عمرك شاطر ومفتح. عقلك اسم الله زي البرلنت لكن أنا، يا

حسرة علي! عقلي مشنت.

قال مشجعا:

- ما له عقلك؟ اسم الله عليك ما حدا مثلك. طول عمرك شاطرة

ومدبرة. أنت يا أختي شاطرة وتحفة. أنا متأكد أن تأثيرك على بنتي

سيكون له أحسن تأثير. مُناي يا أختي تصير مثلك. بناقي يا حرام دقة

قديمة. تربية الحجاز والسعودية.

سألته بخبث:

- طيب والست؟

- قصدك ليزا؟ هذي أستاذة محترمة، ضيفة من القدس. أبوها علّمها

أحسن تعليم. أبوها كان أحسن زبون وأحسن صاحب. مات من

ستين، وبعد ما مات هاجرت مع أمّها لأميركا عند أخوالها. ظلت

هناك شهر أو شهرين وبعدين رجعت. قلت لها خليك في حيفا، الشغل

في حيفا أحسن بكثير، لكن قالت القدس أحسن.

قاطعتة ساخرة:

- طبعا، طبعا القدس أحسن، لأن القدس فيها النسوان مثل اليهود

والرقاصات. يا أبو رشاد عندي كلام لازم أقوله. بناتك حلوات ومؤدبات بس يا أخي، ناقصهن شد. هز رأسه موافقا بأسف وقلة حيلة:

- آ، والله صحيح. بناتي يا زكية دلع وكسل ودقة قديمة. أنا قلت يمكن ليزا يكون لها تأثير وتعلمهن. لكن ليزا قاعدة يومين وبعدين للقدس. قلت لها خليك بحيفا الشغل أحسن، أحسن بكثير. الشغل بحيفا زي الرز وبحر ومينا وناس مثل النمل من كل لون ومن كل مطرح، حتى شغلنا، ما شاء الله! مراكبنا دايمًا مليانة. ساعة حمضيات، وساعة بضاعة، وساعة انجليز، وساعة يهود.

سألته بذعر:

- تشتغل مع يهود؟!

لم ينتبه للقلق في لهجتها، وقال بشرود:

- البركة بإسحق وطلباته. طلباته دايمًا بالآلاف. ساعة إسمنت، وساعة حديد، وساعة فواكه، وساعة خضار. الشغل معه مريح ومريح. قالت بجفاف:

- يهود يا رشيد؟! أنت ما سمعت والا كنت بعيد؟ يمكن بعيد.

أرادت أن تعطيه مجالا كي يجد عذرا أو مبررا للشغل مع يهود، إلا أنه استطرد بغباء وثلامه:

- يا أختي، ما لنا ومال الطوشات؟ قنابل ورصاص ومظاهرات وحكي فاضي. أنا واحد مسالم وبحالي، وشغلي دايمًا حسب القانون. وبعدين يا أختي مال اليهود؟ مش بني آدمين؟ شوفي اسحق وشوفي بناته. لو تشوفي بناته ما أحلاهن!

قاطعته، بترم واستنكار:

- بناتك أحلى!

قال بأسف:

- لكن يا أختي بناته شاطرات ومتعلمات. الواحدة منهن قبضاية عن عشر رجال.

قالت بسخرية وتبرم:

- الله خلقهن وكسر القالب؟

قال بأسف وكأنه لم يسمعها:

- وبناتي أنا، الله يسهل...

وطأ رأسه الذي بدأ يصلع وخطه الشيب، فأحست بإشفاق لا تعرف سببه. ربما بسبب رملته الحديثة، وربما بسبب خوفه على بناته من التعنيس، وربما بسبب إحساسها المزمن أنه الضعيف وهي الأقوى رغم ماله. إذ ما نفع المال وما الثروة أمام نصف دسنة بنات غيَّات شبه معاقات يقرطن بالسين، وينزعن الحجاب بمجرد سماعهن كلمة تشجيع من تلك القدسية الست ليزا؟ لا كانت ليزا ولا... وخطرت لها كلمة قبيحة فبدأت تضحك. فرفع رأسه وسأل بأسى، وكان ما زال مبتئساً:

- مالك؟ مالك؟ خير إنشا الله؟

قالت ضاحكة بشماتة:

- اسم المسخوطة يضحكني.

- أي مسخوطة؟

- الست ليزا.

- ما لها ليزا؟

- يعني هذا الاسم على وزن شو؟

سأل بغباء:

- على وزن شو؟

قالت محرّضة كي تضحكه وتخرجه من همه واكتتابه، وكذلك كي تقلل من قيمة الأستاذة ذات التأثير السيئ على بناته، لتسقطها من عينه وتجعل من اسمها مهزلة، فتحلّ الكلمة القبيحة كقلب لها بدل الأستاذة الست ليزا.

عادت تكرر منغمة:

- ليزا، ليزا، إيزا، كمّل...

فصفّق كفيه وأخذ يضحك وخرج من اكتتابه بسهولة. ولولعه الشديد بالمزاح والضحك وحب الحياة، قال لها:

- اسمعي هالنكتة يا تحفة. آخر نكتة. قالتها ليزا وأعجبتني. النكتة تقول: لما الله خلق النسوان صفهن بالدور زي الطابور، وقال لموسى: يا الله يا موسى، نقيّ نسوانك على كيفك. موسى نقيّ أحلى النسوان ودار ظهره. قال لعيسى: يا الله يا عيسى، الدور دورك، نقيّ نسوانك على كيفك. عيسى نقيّ أحلى الباقيات وترك البايرات والبرارة. قال لمحمد: الدور دورك، يا الله يا بطل، نقيّ نسوانك على كيفك. تطلع محمد وشاف نسوان الله وكيلك زي الغولات، دار ظهره، وقال: غطّوا يا نسوان والحقوني.

وأخذ يضحك وهو يصفّق يدا بيد، ويردد: غطّوا يا نسوان، غطّوا يا نسوان. فانتبهت هي لأبعاد الكلام وبدأت تغلي. إذن هكذا، نحن البايرات والبرارة، وهن وجه السحّارة. نحن الغولات وهن غزالات. إذن هكذا أقنعتة الست ليزا. بنكتة قبيحة مثل خلقتها، عرفت الحيوانة كيف تضحك عليه وتسلب عقله. ولأنّه غبي، أراد أن يثبت للدنيا أن

بناته مثل اليهوديات وبنات الخواجات، يعني بلا غطوة ولا ملايات. طيب، طيب، يا ست...يزا. سنرى من تكون البرارة، ومن فينا وجه السحارة. من بعد اليوم سترى ليزا.

7

قبل بدء الأكل ببضع دقائق، وكانت رائحة الشواء تعبق في الجو، جاء أخوها يستأذنها. قال لها إن اسحق شالوم يريد الانضمام إلى بناته ليأكل معهن. بناته هناك تحت الجوزة، من هنا تراهن بكل وضوح. فلماذا لا يدعو بنات شالوم للأكل معهم فيلتمّ الشمّل؟

قال لها ذاك الكلام همسا، فجمدت عيناها في اللاشيء. كان الاختلاط باليهود مقصورا على الرجال أثناء العمل في المتاجر وفي الشركات أو في الحانات والكباريات. أما الحياة الأسرية داخل البيوت وفي النزعات، فانفصال تام لا يُجسر. إذ بالإضافة إلى التوتر القومي بين الطرفين، فهناك الفارق في العادات والانفتاح والخلفية. فهنا مجتمع ما زال يعاني مشكلة الانفصال عن العالم وعن تاريخه. بعد الأتراك بات يتبها لا سند له من أي اتجاه، فانكفاً ليحمي أساساته في ركن الحريم وتقاليده خوفا من اجتياح اليهود وغزو الغرب. أما اليهود فقد جاءوا إلينا بخلفية من كل لون وجنسية. لهذا اختلطت صورتهم وأسرهم وبدت المرأة مثل الإفرنج.

المهم في الأمر أن أخته وقد وجدت نفسها في ذاك الجو، قالت بحيرة وتخوف:

- نفعد مع يهود؟ شو يقولوا الناس؟!

قال باستهانة:

- شو يقولوا الناس؟ يغوروا الناس.
- كيف يغوروا؟! بكره يقولوا فاتح بيته لى ما يسواش.
- لى ما يسواش؟! اسحق شالوم أغنى منى. كيف ما يسواش؟
- قصدي بناته، بناته لابسات ومش لابسات، كأنهن بالزلط وعريانات.
- يا أختي يا أم وحيد، منشان الله ما تعقديها. كل واحد يلبس على كيفه. مالنا وماهم؟ كل واحد حر بحياته. وبعدين يا أختي، يا حبيتي، كلها ساعتين أو ثلاثة وكل واحد يرجع لبيته. هن بحاهن ونحن بحالنا. الزلّة مليح وينفعني. الشغل مع شالوم عن عشرة. بيني وبينه عشرة وبزنس. خليني أتباهى وأتفاخر. خليه يشوف مين الأحسن أكل الخواجات والا أكلنا. قولي طيب، يرضى عليك. قولي طيب. فقالت طيب وقلبها يضرب، ورأسها يتمايل من الصدمة.

8

قبل البدء في وصف تفاصيل ذاك اللقاء المدهش بين النساء، لا بد من إعطاء لمحة وجيزة عن الخلفية التي جاءت منها بنات شالوم. إذ لا يمكن أن نفهم أسباب الخلاف دون الرجوع إلى الماضي والخلفية. فنحن نعلم أن النساء قياساً بالرجال أرقّ وأنعم، ألطف وأحن. وقد قيل الكثير حول الموضوع. لكن الأهم في هذا المجال هو السؤال حول العسكر وشؤون الحرب. فقد قال البعض فيما قالوه أن الرجل أميل للحرب، وأن المرأة لو أتيح لها حكم العالم لحذفت الحروب من قاموس الشعوب والبشرية. فهل هذا صحيح؟ دعونا لا نستبق الأحداث

ولتتمهل. فقد يكون ما حدث في جريشة له معنى، أو ربما كل المعنى.
 بنات شالوم ولدن وعشن في بغداد حتى بلغن. أمهن من أصل
 مختلط نصفه روسي والنصف الآخر بولندي، أما أبوهن فهو عراقي ابن
 عراقي أبا عن جد. التقى الاثنان على ظهر باخرة سياحية كانت تتجه إلى
 روما فوقعا بالحب، وتزوجا وعاشا في العراق لعدة سنوات، حتى أقنعتة
 بالهجرة إلى فلسطين. كان أقاربها قد سبقوا وأخذوا يكتبون عما وجدوه
 في أرض السمن والعسل، أرض الميعاد، وعما تقدمه الوكالة اليهودية
 من دعم وفرص وتسهيلات، وعن الحياة الرائعة في الكيبوتسات،
 وعن الانجليز ووعد بلفور الذي ينصّ على إقامة الدولة اليهودية
 على أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. بعد تردد قرر اسحق اللحاق
 بالركب، فأخذ عائلته الصغيرة وكذلك عائلته الكبيرة: أمه وإخوته
 وأخواته واتجه بهم نحو فلسطين. في البداية، عاش الجميع في كيبوتس
 قريب من يافا حتى ملّوا. لم يطبقوا الحياة الجماعية حيث ينتزع الأطفال
 من أهاليهم وتقوم حاضنات بتربيتهم بشكل جماعي. كما أن اسحق
 حين قرر المجيء إلى فلسطين كان يحلم بامتلاك ما عجز عن امتلاكه
 في بغداد... ألم يقولوا بيتا خاصا لكل مهاجر؟ ألم يقولوا أرضا خاصة؟
 ألم يقولوا عملا خاصا في دولة تقوم على أسس الغرب؟ فأين كل هذا
 وذاك؟ أين الدنيا؟ أين الحياة المدنية في كيبوتس لا يرون فيه إلا الشجر
 وتراب الأرض، وبقر وروث ودواجن؟!

تركوا الكيبوتس وعاشوا في مزرعة قرب يافا بضعة أشهر. وهذه المرة،
 كانت زوجته من سئمت. قالت إن الحياة الاشتراكية هي ما تطلب.
 فهي لم تحبّ إلى فلسطين حتى تعيش كنساء الشرق. جاءت هنا حتى
 تبني، حتى تعمل، حتى تنفذ ما عجز اليهود عن تحقيقه عبر الأجيال.

جاءت لتعيش حلم الدولة، دولة يهودية اشتراكية، دولة تقوم على أسس الكيبوتس. لكن اسحق وهو ابن الشرق وتقاليده، يريد أجواء محافظة وخصوصية، بيتا خاصا، ملكا خاصا، وأعمالا حرة خصوصية. رجعت هي لتعيش في الكيبوتس، وظلّ الجميع في المزرعة قرب يافا، ثم حيفا، ثم تجارة عبر البحار والاستيراد.

باختصار، هذه خلفية بنات شالوم. عشن مع أب يهودي جاء من الشرق، لكن في بيئة غربية. يهود إشكناز ويهود سفارديم باتوا يشكلون نواة الدولة واقتصاد حر، لدولة على أسس غربية.



حين رأَت الفتيات بنات شالوم قادمات شبه عاريات، انتابتهن موجة من الضحك المستيري والتعليقات، فهذه تقول: "شوفي أفخاذهن" وتلك تقول: "شوفي صدورهن" وثالثة تقول: "شوفي لباسهن." والأُم تلهث وتنفس بصوت مسموع.

التفتت وداد إلى أمّها، وهمست بذهول:

- يَمّه، يَمّه، بنات خالي قالوا كلام ...

ووضعت يدها على فمها وسكتت. فسألتهن الأُم وهي مطبقة الأسنان:

- قولي، قولي.

طأطأت وداد رأسها، وهمست:

- عيب أعيده.

هزّت الأُم رأسها يمينا وشمالا وهي تتأمل القادمات ودمدمت وهي ما زالت مطبقة الأسنان:

- أستغفر الله العظيم. لا حول ولا قوة إلا بالله! اقعدي مليح وأوعي تحكي، ولا نص كلمة. لم تجب البنت وظلّت تحملق كالمفلوجة.
مرت الفتيات أمام دائرة الرجال، فغضّ وحيد بصره وذكر اسم ربه واستغفر عدة مرات. وحدّق أمين بعجب وإعجاب واستنكار. وجحظت عينا رشاد وارتحى فكه، بينما قال أبوه مبتسما: ما شاء الله! أما أبوهن فاستمر يحكي عن البضائع والأسعار بلا توقف.
تقدّمت البنات، وقلن محييات بلهجة ودودة:
- مساء الخير.

فردت ليزا بلهجة محايدة ووجه خلا من أي تعبير:
- مساء الخير.

وردت الأمّ، وهي تتفحصهن:
- مساء الخير.

أما بنات الخال فظلّلن يضحكن ويمسحن دموعهن بمناديلهن ويحاولن الاختباء خلف أكفهن وخلف أكتاف بعضهن.
قالت ليزا:

- أهلا وسهلا. تفضلوا. تفضلوا.
وقالت الأمّ مشيرة إلى أماكن بعيدة عن ابنتها وعن كتّتها:
- تفضلوا هناك. فيه مكان هناك.

أعمار الفتيات العربيات والعبريات متقاربة، فكلّهن ما بين الخامس عشرة والعشرين. طبعاً ليزا كانت أكبر، فهي كما أشرنا بالعشرينات، وربما تبدو أكبر من سنّها ببضع سنوات بسبب التعليم والوظيفة والانفتاح على الدنيا ولندن وباريس وواشنطن.
قالت الكبرى معتذرة، وكانت ما زالت تتذكّر عادات الشرق:

- كنا نسبح، لا تؤاخذونا.
- وتلفتت حوالها بابتسامة دبلوماسي، وهي تتأمل المناديل والملايات وتحسّ بعدم الارتياح من ذاك الجو، فالتفت للصغرى، وقالت لها بالعبرية: "اقعدي مليح." ثم مدت يدها بصندوق يشبه المحفظة وفتحته وأخرجت عدة ساندويشات وزجاجة عصير وتفاعات.
- وقالت بأدب وهي توجه الكلام إلى ليزا:
- هذا غدانا.
- سألت رشا بفضول شديد:
- ممكن نذوق؟
- حدجتها الأمّ باستنكار إذ أن طلبا مثل ذاك الطلب يدل على فراغة عين ورفع الكلفة. فقياسا بكل ما جاءت به من كُبة وأقراص وفطائر، هذه شطائر لا وزن لها. خبز إفرنجي أبيض محشو بشيء غريب الشكل. هل هذا أكل؟ هل هذا غداء؟ ثم أن تطلب كتّتها أن تذوق من أكلهن بتلك السرعة فذاك يعني رفع الكلفة. ألا تفهم الست الدلوعة أن هؤلاء يهود؟!
- قالت الكبرى وهي تشير إلى أصناف الأكل المفروشة على الأرض وتقارن بينها مبتسمة:
- تفضلوا ذوقوا على كيفكن. لكن أكلنا قدام هذا... كل هذا الأكل، شيء مش معقول! والله تذكّرت أيام بغداد.
- قالت الوسطى مصادقة:
- وأنا تذكّرت.
- ابتسمت الأمّ لدهشتهم، وقالت بثقة وأريحية:
- طيب إذن يا الله ناكل. يا الله سموا.

- وأخذت حبة كُبَّة وناولت الصغرى، وهي تقول:
- تفضلي كُبَّة يا حبيبتي. عندكم كُبَّة؟
- هزّت الصغيرة رأسها نفياً، وهي تتناول الحبة بخجل واستحياء، وتنظر في عيني أختها الكبرى بانتظار إشارة تشجيع. فابتسمت تلك وهي تمد يدها بطبق الشطائر لرشا ثم تلتفت حواليتها وهي تسأل:
- مين منكن تحب تذوق؟
- فقالت أختان معاً: "أنا، أنا." وظلّت وداد صامتة ترقب الجو، وهي تلكر فخذ أمّها بكوعها كي تشهدها، فدمدمت الأم:
- طيب، طيب، كلي عالسُكيت.
- ومضت لحظات وهن يأكلن بصمت وخجل وتوتر، سوى أن بنات الخال كنَّ يتبادلن النظرات والابتسامات ويتغامزن من تحت لتحت. أرادت ليزا أن تلقنهن درساً بالانفتاح حتى يعرفن أن النساء في بلاد الغرب هن عادات مختلفة، وأن اللباس بالنسبة لهن ليس دليلاً على الاحترام والجدية، فسألت الكبرى بمودة:
- الرياضة مهمة ومفيدة، كيف تعلمت السباحة؟
- اندفعت الوسطى لتجيب عن السؤال، وكانت كما تبدو أكثر نشاطاً وحيوية وأكثر اندفاعاً للتجاوب مع الآخرين:
- تعلّمتها في كيبوتس عخشاف.
- همست وداد بفصول حذر:
- يَمَّه، يَمَّه، شو يعني كيبوتس؟
- فلكرتها الأم، وقالت همساً:
- كلي عالسُكيت.
- اندفعت الوسطى لتصف لهن كيف أمّها في أول درس في السباحة كادت

أن تغرق لولا أن كابتن يوسي سارع لإنقاذها. وكيف أن الجميع التّموا حولها ينادونها: سارة، سارة، وهي غائبة عن الوعي حتى قلبها كابتن يوسي على فخذه، فقذفت الماء، وبدأت تتنفس ثانية فصاح الجميع: صَحِيَّتْ، صَحِيَّتْ، سألتها رشا:

- قلبك على فخذه ورضيت؟

ارتفع صوت الكبرى باحتجاج كما لو كانت تدافع عن أختها:

- ما كانت صاحبة ولا واعية!

سألت وداد:

- يَمَّه، مين هو كابتن يوسي؟

لكزتها أمّها بغضب مكبوت:

- كلي عالسُكيت.

قالت سارة دون أن تنتبه إلى المعاني والحركات:

- كابتن يوسي يعني مدرب في كيبوتس عخشاف. علّمنا سباحة

وركوب الخيل وكمّان كراتيه.

لكزتها الكبرى ونهرتها فسكتت في الحال. همست وداد:

- بتقول كراتية، شو يعني؟

نهرتها الأم:

- كلي عالسُكيت.

حاولت الكبرى الخروج عن الموضوع ولفت الانتباه لموضوع آخر أقل

حساسية وإحراجا. كانت ما زالت تتذكر أجواء بغداد، وها هي الآن

في هذا الجو. قالت موجهة الكلام لليزا:

- أنتِ من نابلس أو حيفا؟

ردت باقتضاب:

- أنا قدسية.

فأسرعت الوسطى لتعلق:

- عشان هيك ..

فلكزتها الكبرى وهمست كلمات بالعبرية أسكتتها، وحين نظرت باتجاه
الأم وجدتها تبتسم ابتسامة غامضة وترتها، فهمست بقلق، وكان
الإحساس بالغربة قد جعلها تتمسك بالأقرب، أو من تبدو أئها اقرب
وأئها ممكن أن تفهمها:

- كيف قادرة تكوني... مش فاهمة! قصدي يعني أنت معهن؟

قالت ليزا باقتضاب جاد:

- طبعا معهن.

هزت استر رأسها بعدم تصديق، وقالت لأختيها بالعبرية:

- بسرعة، بسرعة، خلينا نروح.

9

انقلب الجو فجأة حين مرّ ولد بحمار مزوّق بالأجراس والدناديش
وخرز أزرق وسرج أحمر مرصع بالودع وقطع الزجاج جُهزّ خصيصا
للسياح. كان ينادي: اركب بقرش، اركب بقرش. فأخذ الصغير
يتوسل لأخيه الكبير: خليني أركب، خليني. لكن وحيداً زجره، وقال
برصانة: اقعد ساكت بلا حكي فاضي. فالتفت لأمين، وقال برجاء:
خليني أركب، خليني. فحدّره أمين من الركوب، لأنّه سيقع عن الحمار
فينكسر رأسه ويسيل الدم. وإذا برشاد المدلل، خطيب وداد، وكان
يحس بالملل الجم من حديث البنس والبضائع والاستيراد هب واقفا،

وقال للطفل: تعال نركب، الحقني.

ابتدأ الضحك بركوب الصغير ثم برشاد، وإذا بنات الخال يلحقن بالركب وهن يتصايحن مثل الأطفال. حينذاك لحقت بهن بنات شالوم، إذ وجدنها فرصة سانحة للهرب من دائرة النساء والجو الكئيب. ولم يبق مع الأم وابنتها إلا ليزا. وحتى ليزا كانت تضحك وهي تشاهد وقوع هذه وصياح تلك، ومنديل رشا ينزلق عن رأسها فتشده، وهي تولول: الدور دوري، الدور دوري.

لكرت وداد أمها، وقالت بانشداه:

- يَمَّه، يَمَّه، شوفي رشا، شوفي، شوفي.

هزّت الأم رأسها عدة هزّات، وقالت بحسرة وتنهد:

- مسكين يا وحيد!

وظلّتا تحدقان في المشهد الضاحك أمامهما، وقد ارتسمت على وجهيهما علائم الهزء والاستنكار. لكن البنت شهقت فجأة حين رأت خطيبتها يساعد واحدة من بنات شالوم باعتلاء الحمار. حيث أشار عليها أن تدوس على ركبته، وحين حاولت القفز تحرك الحمار وكادت أن تقع على الأرض فأمسك بها من خصرها ووضعها على الحمار وهي تضحك، والكل يضحك ويعلق. حتى الرجال في أماكنهم كانوا يراقبون المشهد ويضحكون، والخال يصفق ويهتف بسرور: "يخزيك يا رشاد، ما أخفّ دمك!"

استدارت ليزا للأم، وقالت بأسف شبيه بالاستجداء:

- معقول بنتك تظل قاعدة؟! خليها تروح وتنفس.

لم تجب الأم لكنها أمعنّت النظر وأخذت تفكر وتتأمل فيما يحدث. إذ أن الرّكب يخلف ابنتها وحيدة، ويترك رشاداً للأعبيّه ويجعل ابنتها

مهجورة. ورّنت الأمور ورأت أن عليها أن تعيد النظر بخطتها. وكانت خطتها أن تتربص للست ليزا وتطيح بها بأن تجعل منها أضحوكة. لكنها الآن تجد أن الخطر أكبر من ليزا وتأثير ليزا، أهم من الخطوة والإزار. فهذا الولد اعتاد الحياة في حيفا، وحيفا تختلف عن نابلس. في حيفا بحر، في حيفا يهود، في حيفا انجليز وأجانب. وابنتها صغيرة ونحيلة، ابنتها هشة وضعيفة ولم تنهياً لزنثرة الناس في ذاك الجو. ومن المؤكد والواضح أن ابنتها ستعاني الأمرين مع هذا الشاب، فإما أن تتركه وتتطلق، أي تفسخ الخطوبة وتكتب الكتاب وبذلك تنفضح بين الناس، وإما أن تظل على عماها فيتزوج عليها ويهجرها، أو... وهذا أصعب، أن تلحق به وتتأقلم. فماذا تفعل؟

انتابت الأم موجة من الحزن والاكتئاب، فالتفت لابنتها تتأملها. كانت تلك أشبه بشبح صغير أسود، رقيق ضعيف، بوجه طفولي شاحب وبلا الوان. بعكس بنات أخيها المزوقات بزينة مخفية مستترة. بودة خفيفة وأحمر خفيف وحمرة خفيفة وحواجب منتوفة خط القلم وكحل مخفي. فهمست بغيط: قال يعني طبيعي من الله! لكن عينها المتفحصة المتمرسة ترى أن التأثير واضح وأكيد. فها هي ترى وحيداً الرصين يراقب خطيبته بافتتان ويضحك ويتجاوب بسعادة. وترى أمة المتعلم يلاحق البنات بنظراته، بنات شالوم العرايا وبنات خاله المزوقات. أما رشاد فأخذه الحال، فها هو يتضحك مع هذه ويداعب تلك ويهمل ابنتها المكونة إلى جانبها كطعام سقيم لا يشتهي أو يرغب فيه. ابنتها تبور، ابنتها تخيب، ابنتها تضيع في هذا الجو. وبقلب ينقلب على ذاته قالت لابنتها بشجاعة:

- روحي معهن.

حملت البنت غير مصدقة ما تسمع، وقالت بدهشة وذعر ملحوظ:

- أروح معهن؟!

هزّت الأمّ رأسها بانكسار وحدقت في عيني ابتتها مشجعة. فرأت البنت لمعة خفيفة من دمع رقيق، فقالت بجزع:

- مالك يمه؟

أشاحت الأمّ بوجهها، وقالت بأسى:

- حبة غبار دخلت عيني. روحي معهن.

10

مشت البنت بخطوات هيّابة مذعورة. كانت تتفق مع أمّها بأن بنات خالها يضحكن كثيرا وبسهولة ويتوددن للناس أكثر من اللازم والمألوف وأخيرا خلعن شرش الحياء حين خلعن الإزار والغطوة ولبسن مناديل ملونة مثل اليهوديات والرقاصات. وها هن الآن يضحكن ويركضن وراء الحمار برعونة مخجلة وعدم اتزان. فلماذا قالت لها الأمّ: روحي معهن؟ طبعا تقصد مع رشا وبنات الخال، ولا تقصد أبدا بنات شالوم. بنات شالوم اليهوديات الغريبات ما لها ولهن. لكن رشا وأخوات رشا قريبات جدا، وخصوصا رشا.

اقتربت من رشا، وكانت تقف مع الكبرى من بنات شالوم تحت شجرة. وكانت الاثنتان تضحكان وتصفقان وتبادلان التعليقات وكأنتهما صديقتان. اقتربت منهما بخوف وخجل، رجل للأمام ورجل للخلف، وهي تشد الإزار حولها، وقد رفعت منديل الغطوة حتى منتصف جبينها، فبدت كالشبح المتحرك بلا شكل ولا تضاريس ولا

أنوثة. وما زاد في بؤسها ذاك الوجه الصغير النحيل بعينه الواسعتين المتحركتين يميناً وشمالاً دون التفات، عينا عصفور صغير خائف يلتقط الحب ويتطلع خوفاً من قطّ أو صياد. وكادت أن تقع حين تعثرت قدمها بحجر لم تره، لأن عينيها كانتا تتطلعان إلى رشا كهدف منشود. فصاحت رشا: الله! الله! اسم الله عليك. لكن البنت تداركت ولم تقع على الأرض، إلا أن منديلها انزلت من مكانه وغطى عينيها وبقيّة وجهها فاحتارت به، وظلّت تمشي وهو منسدل ولا تعرف ما تفعل به وماذا تفعل. فازدادت التصاقاً بالإزار تشده حول جسمها اتقاء من الوقوع وعيون الناس. ورغم أن الناس كانوا بعيدين عن الموقع، لأن الخال كان قد اختار أبعد ركن في المتنزه حتى لا تنكشف النساء لعيون الناس، إلا أن وداد كانت تحسّ أن كل الدنيا تراقبها، الناس والأمّ وأخوها وحيد. ولم يدر بخلدها أن الخطيب يراقبها، فذاك الخطيب لا وجود له في وعيها، لأن وعيها كان أصغر من أن يحس بوجود الرجل. كانت أنوثتها ما زالت في طور النمو. وكانت تربيتها تمنعها من خوض العيب. وكان العيب مصدره الرجل، وبالضرورة جسد الأنثى، أي جسدها هي، لأنّها منذ حاضت والكل يقول: غَطِّي، غَطِّي. يُدق الباب فتقول لها الأمّ: غَطِّي، غَطِّي. تصعد للسطح لنشر الغسيل، فيقول وحيد: غَطِّي، غَطِّي. يأتي الزبال، فتقول لها الأمّ: غَطِّي، غَطِّي. وكأنّ الزبال سيأكلها! وكأنّ عيون الناس أفواه وحوش مفترسة، وهي فريسة. وبما أن أمّها محور العالم ورمز الأخلاق والفضيلة، وبما أنّها الأعراف والأفهم، فما تقوله الأمّ هو الصائب. فلماذا لم تقل لها الأمّ هذه المرة: غَطِّي، غَطِّي، وبدلاً من ذلك قالت لها: روجي معهن!

نادتها رشا وهي تراها تمشي كالضائعة، وذاك المنديل يزيد من ضياعها

وتعثرها وصاحت بها: وَلِه يا وداد، زيحي المنديل. فهمست بخوف: أعوذ بالله! لكنها مدت يدها ورفعته بحذر وواصلت النظر في وجه رشا.

قالت رشا لابنة شالوم:

- نِيَّاْلِك يا استر، بلا منديل!

ابتسمت تلك ولم تعلق، لكنها وازبت على متابعة أختها الوسطى بنظراتها، خوفاً عليها من السقوط عن ظهر الحمار، وخوفاً عليها من تحرشات رشاد. كان رشاد يدعي التمسك بسرج الحمار مع أن الولد صاحب الحمار كان يمسك بالرسن، ويسيطر على الوضع بشكل جيد. لكن رشاداً كان يلاحق البنت بنظراته، ويتحين الفرصة ليلمس ذراعها أو كتفها أو أي جزء من أجزائها يقع في متناول يده. وكانت البنت مستثارة إلى أبعد حد، فهي من النوع الضحوك المتأجج. كانت مسرورة وسعيدة بركوب الحمار، لأنها اعتادت ركوب الخيل في كيبوتس عخشاف. لكنها، وبسبب انتقال العائلة من كيبوتس عخشاف، فقدت الاتصال بخيول الكيبوتس، فخسرت رياضة تعشقها. وها هي الآن على ظهر حمار مضحك جداً، عليه خرز وودع ودناديش تملأ الدنيا بطنطنات تضحكها. لكن رشاداً فهم الموضوع بشكل آخر، فهم أن البنت مسرورة لأنه معها، ولأنه يلمسها ويمسك بها، ولأنه حملها من وسطها مثل الريشة وثبَّتها فوق ظهر الحمار مثل الملكة.

ظلت استر تتابع أختها فوق ظهر الحمار ورشاد يهرول وراءها وهو متمسك بها. لم تعر اهتماماً لما تسمع لأن اهتمامها كان منصبا على الحمار وما يدور على ظهره.

سألتهما رشا:

- أنت عندك خطيب؟

هزّت رأسها نفيا بعدم اهتمام:

- لأ، ما عندي.

- ليش ما عندك؟!

قالت بعدم اهتمام وهي تراقب حركات رشاد:

- لأنني صغيرة.

- أنتِ ذغيرة (صغيرة)؟ شو تقول وداد؟ وداد عمرها خمس عشرة

سنة وعندها خطيب قد الدنيا.

هزّت استر رأسها بعدم اهتمام ودمدمت:

- يا حرام! يا حرام!

فوجئت رشا:

- وداد يا حرام؟!

سكتت استر، وقد ازدادت غضبا من حركات رشاد التي بدأت تنزلق

لما تحت الخصر ومن ذاكرتها المليئة بالتجارب وبأقوال البنات عن شباب

العرب. شباب العرب يعملون كذا. شباب العرب يقولون كذا. شباب

العرب ونساء العرب وكل العرب

قالت رشا:

- وداد بلغت من ٣ ثنين، أختك بلغت؟

لم تجب عن السؤال وبدأت تغلي. كانت حركات رشاد قد ازدادت عن

الحد وأختها سارة ما زالت تضحك وتصيح ولا تأبه. كانت سعيدة

ومهتاجة وتتصرف ببراءة كالأطفال.

-
- قالت استر بغضب مكبوت:
- أخوك زادها وتخننها.
- كيف يعني؟
- يعني، يعني، مش عاجبني.
- ليش مش عاجبك؟
- لم تجبها، وأهملت السؤال وأخذت تصرخ:
- سارة، سارة، انزلي عندك.
- سألتها رشا بغيط ساخر:
- خايفة عليها؟
- لم تجبها، وظلّت تتابع ما يجري فوق ظهر الحمار، وهمست بغيط:
- أمّا حيوان!
- سمعتها رشا فصاحت بغيط:
- أخوي حيوان؟ مين الحيوان؟ أختك بالشورت والمزّلط ولحمها للبيع وللفرجة.
- تركبتها استر تنعف الكلام وأخذت تركض نحو الاثنين، وهي تصرخ:
- ارفع إيدك. سارة، سارة انزلي عندك.
- لكن سارة لم تسمع، كانت في واد وأختها في واد. كما أن أصوات البنات والأجراس والدناديش كانت أعلى، فضاغت صرختها في الضجة وظلّت سارة فوق ظهر الحمار ويد رشاد تطلع وتنزل فوق فخذ البنت.
- تأملتها رشا وهي تركض، فقالت لوداد:
- شايفه؟ شايفه؟ بتقول عن رشاد حمار وحيوان!
- لم تجبها وداد، وظلّت تلاحق ما يفعله خطيبها فوق ظهر الحمار. دغرتها

رشا:

- شوفي، شوفي، راحت هناك لتأخذ دوري.

وأخذت تصيح من مكانها:

- دوري، دوري!

لكن العراك كان على أشده فوق ظهر الحمار. استر تحاول إنزال أختها، وتلك تقاوم، ورشاد يتمسك بخصر البنت.

وضعت رشا يدها على رأسها لتمنع المندبل من الانزلاق، ويدها الأخرى سحبت وداد وهي تصرخ:

- تأخذ دوري؟ والله لو تموت!

وأخذت الاثنتان تركضان وكل واحدة تشد بمندبلها خوفا عليه من التطاير والانزلاق. لكن إزار وداد كان طويلا ويعيق حركتها فتتعثر. تركتها رشا في منتصف الطريق وأخذت تركض. وصلت هناك، وكان العراك وشد الأذرع على أشده. استر تشد بذراع سارة، وسارة تشد برأس الحمار، ورشاد يشد بخصر البنت.

دقت رشا على ظهر استر، وقالت بغضب:

- الدور دوري.

لم تلتفت تلك، وصاحت برشاد:

- اترك البنت. اترك سارة.

وكان ذاك يضحك، ويشد بخصر البنت، وقد أعجبه الموقف ووجده فرصة سانحة ليزداد التصاقا بالأجساد.

- اترك سارة، اترك، اترك.

ولم يترك، بل أخذ يقهقه بأعلى صوته. فصاحت رشا:

- الدور دوري؟

وأخذت تشد بظهر استر وتسحبها. إلا أن استر وقد استبدَّ بها الغضب والغيط من الاثنين، خبطت رشا بكوعها خبطة قوية آلمتها، فأخذت تصيح:

- وَلِه يا حيوانة، الدور دوري، هذا حمارنا.

وشدت برشاد تستنجد به:

- قل لها يا رشاد، هذا حمارنا.

وعادت تشد بظهر استر، واستر تشد بظهر رشاد، ورشاد يشد بخصر سارة، وسارة تشد برأس الحمار. وأخيرا فاض بإستر الكيل وناولت رشاد ضربة كراتيه جعلته يلف عدة لفات ويقع على الأرض مثل الميت. فصحن أخواته وصاح الصغار ونهق الحمار وبدأت معركة غير متكافئة بين الجانيين، أخوات رشاد يتسلحن بالقرص والعض وشد الشعر، وبنات شالوم بفنون المصارعة وضرب الكراتيه.

وصلتهم وداد، فوجدت نفسها وقد أقحمت بين الأجساد المتعاركة، والغطاء منزلق عن رأسها فبدأت تبكي. أخذت تتلقى الضربات بيد، ويدها الأخرى تحاول التقاط الغطاء من تحت الأقدام. بعد جهد جهيد استطاعت سحبه عن الأرض، فوضعت على رأسها بشكل أفقي واستدارت للخلف حتى تهرب. مشت خطوات تترنج. كانت مظاهر الخجل والذهول والخوف قد سيطرت على كيائها. وكادت أن تقع على الأرض لولا أن تلقفتها ليزا واحتضنتها. كانت ليزا قد هرعت للموقع مع بعض الرجال كي تفصل بين الأطراف المتنازعة، فتلقفت البنت واحتضنتها. أحست البنت بدفع الاحتضان فانخرطت في بكاء ذليل

مرير.

همست ليزا، وهي تربت على ظهرها لتهدئتها:

- بسيطة، بسيطة، كلّه على حمار؟!

نظرت للخلف ورأت خطيبها على الأرض كالقتيل، وأخواته فوقه

يتصايحن ويلطمن ويتفنن الشعر، فهمست تردد ما سمعته:

- كلّه على حمار!

.....

زمن التخيير

حين عادوا إلى نابلس فاجأت وداد الجميع بقولها أنها لا تريد الزواج من ابن خالها، لأنه كان السبب في ضربها وقلة قيمتها وسقوط الغطاء عن رأسها. كما أنه كان يحابي بنات شالوم ولا يعبأ بها. أمها نهرتها، وطلبت منها ألا تتفوّه بمثل ذاك الكلام، وذكّرتها بألا وجود لفتاة في العيلة تفسخ الخطوبة وكتب الكتاب، لأن كتب الكتاب في عرف الشرع وعرف القانون زواج كامل بلا نقصان. فماذا يقول الناس إذا فسخت؟ يقولون مطلقة منبوذة بلا حياء وبلا قيمة؟

كما أن وحيداً، وقد أحس أن ميزان زواج البدل قد بدأ يختل بسبب اختلال إحدى كفتيه قال بوجوم، وبدون أن يرفع صوته: عيب يا وداد، عيب يا أختي.

انبرى أمين ليدافع. قال إن ما حدث في جريشة هو أكبر دليل على أن زواج وداد من ذاك الرقيق سيكون كارثة ومصيبة. ألم يروا كيف كان يلحق بابنة شالوم مثل المعتوه ويتحسّس أجزاءها مثل المهووس، وتسبب بمعركة النساء بسبب تياسته وقلة أدبه؟ وحين رأى عدم الاقتناع في أعينها قال إن وداد ما زالت صغيرة على الهمّ والمسؤولية وإشكالات الزواج والمتاعب.

ردت الأمّ بغیظ وغضب:

- وداد بلغت من ثلاث سنين، والبنت المحترمة، بنت الناس، لا يمكن أبداً تتطلق.

لم يجيبها أمين وظلّ صامتا يفكر بما عساه أن يفعل أمام ذاك الهجوم وأمام وضع أخته وما يحمله من تعقيد.

عادت الأمّ تصرخ بدوي:

- ما عندنا بنات تتطلق. شو يقولوا الناس؟ وأنت يا وحيد، خطيبتك

تمشي بلا غطوة؟ شو يقولوا الناس؟

تمتم وحيد:

- يَمَّه حيفا غير عن نابلس.

صاحت بغضب:

- مالها نابلس؟

همهم بارتباك:

- يعني قصدي حيفا كبيرة، يمكن، ممكن...

قاطعته بحدة وحزم قاطع:

- مش ممكن خطيبتك بلا غطوة، ومش ممكن أختك تتطلق. هذا الكلام آخر كلام.

وهكذا انقسمت العائلة إلى فريقين: فريق ينادي بفسخ الخطوبة، وفريق يتمسك بتلك الخطوبة وإتمام الزواج. أمين وسمير الصغير يخرضان وداد ويخوفانها من ذاك الزواج، والأُمّ ووحيد يصران على إتمامه. أما وداد فقد انطوت على نفسها وأصيبت بالبكم. ما عادت تأكل أو تشرب. ما عادت تقوم بأعمال البيت بهمة ونشاط. ما عادت تتفقد جهاز العرس وذهب الشبكة. كانت تمشي مثل الشبح وصارت نحيلة مثل الخيال. أمّها لم تشفق على وضعها، وظلّت تردد وهي تخطط للجهاز: شو يقولوا الناس؟ الموت يسبق.

سمعت وداد كلمة "الموت" فهرولت لتختبئ في مكان ما، ثم خرجت من مخبئها بعد دقائق لتسأل أمّها بذل وخضوع ماذا تفعل؟ تمسح الأرض أو تلمع الزجاج أو تخطط إزارا أو غطوة؟ والأُمّ تجيب بصوت خلا من أي عطف أو إشفاق ووجه اكتسى بكشرة خفيفة: ما عملي شيء، روحي من هون، مش قادرة أشوفك ولا حتى أسمع صوتك.

هربت وداد من الغرفة ولجأت للمطبخ كي تبكي، فوجدت أميناً هناك بانتظارها، ليقول لها إن عليها ألا تضعف وتنهار.

في البداية، كانت تستمع إلى نصائحه فتشعر بالامتنان لأنّه يدافع عنها، ولأنّه يقول لها كل ما خفي وما استغلق. وفيما بعد، بعد أيام، وأمّها تنبذها وتسمعها من مرّ الكلام ما يبكيها، ووحيد يجافيه ويهملها، وكلمة الموت تتردد من غير حساب، أو ربما بحساب دقيق، باتت تنهرب من ملاحظته. صارت إذا رآته في المطبخ تنسحب من خلفه بتلصص وتلجأ لغرفة الخياطة حيث الأمّ. وإذا ناداها تدعي عدم السماع أو تتلكأ. فإذا سأها لماذا لا ترد عليه تجيب بخوف أنّها لم تسمع لأنّها مشغولة بالخياطة وأعمال الدار.

أخيراً، وبعد العديد من المحاولات اليائسة، فهم أن العادات أقوى منه ومنها، وأن قانون العيلة هو الفاعل فما عاد يلح أو يطنب، بل أهملها، وعاد لدروسه وقراءاته، وقال لنفسه: تغور البنت وتغور العيلة، مالي وماهم! وترك نابلس وعاد إلى القدس وبيت الطلبة ولم يحضر العرس وادعى الانشغال بالامتحانات والبحث عن وظيفة جزئية لفصل الصيف.

وهكذا مشت الأمّور بلا تلكؤ، وتم الزواج حسب الموعد. ورغم ذلك، اعتقد الكثيرون في ذاك الوقت أن الزمن زمن التغيير.

11

كان عرسا للأكابر. لم يبق وجهه أو غني أو مقاول إلا ودُعي لذلك الحفل، وكذلك عدد محدود من اليهود. فعلى الرغم من أن الجو كان قد بدأ يتفجر والمظاهرات تندلع هنا وهناك والانجليز يطلقون الرصاص العشوائي واليهود يستعدون لاقتناص الفرص للاستيلاء على فلسطين، إلا أن القطيعة بين الأوساط العلوية ما كانت مقطوعة نهائيا، وكان الجيران والمعارف من الطرفين ما زالوا يتزاورون في المناسبات الرسمية والأعياد ويدعون بعضهم للأعراس والاحتفالات. وهذا بالطبع شمل إسحق شالوم وبناته. إذ على الرغم مما حدث بين البنات في جريشة، إلا أن الأبوين عملا بجهد على جمع الطرفين ثانية وتصفية الجو. كما أن العرس حدث الموسم، فقد جيء بفرق فنية من تل أبيب ومصر ولبنان والراقصة الشهيرة كاريوكا وعبد الوهاب. فهل يفوتون عرسا فخما بسبب عراقك سخييف بين البنات؟ وهكذا، سارعت عائلة شالوم لتلبية الدعوة والمشاركة في ذاك الحفل.

ابتدأ حفل النساء بزفة أحيتها الجنكيات بأغان تراثية تشيد بجمال العروسين وفحولة العريسين وارتفاع المهور وقدر الحضور. ثم همي الوطيس حين قامت أخوات العروس للرقص احتفاء بزواج الكبرى، وكذلك فعلت الوسطى من بنات شالوم، فهمست رشا في أذن وداد: شوفي الملعونة ما أشطرها! لم تعلق وداد، لكنها انتبهت لعريسها وهو يلاحق الفتاة بنظراته. كان قد ابتلع كمية لا بأس بها من الويسكي حتى

ينبسط ويفرفش وينسى همّه. أبوه شجع أصدقاءه على إسكاره حتى يلين وينسجم ويتحسن مزاجه. تحسّن مزاجه وانبسط قليلاً، إلا أنه لم ينس أنه مقبل على شيء بغيض لا يرغب فيه فبدأ يلهث.

رأت وداد وجه عريسها يعبق بالدم، وصدره يرتفع وينخفض مثل المنفاخ، ورأت الفتاة اليهودية ترقص في الوسط وتبتسم له، ورأت أمّها تشير لها بحركات الوجه أن تبتسم وتبدو فرحة فأخذت تبكي. انهمرت دموعها مدرارا فوق البودرة والحمرة، وسالت الكحلة على الأبيض فهرعت الأم لتسكتها ولحقت بها بنات الخال وهن يسألن عما يبكيها ويزعجها؟! فالتفتت الأم، وقالت بثقة:

- هذا من الفرحة ورهبة العرس. زغرتوا يا بنات.

12

تدهور الوضع حين هربت وداد. كانت تقطن في أعلى طابق من عمارة تطل على البحر. تستيقظ صباحاً وترى البحر والبواخر وتسمع أصوات الصيادين، فتحسّ برغبة في النزول إلى البحر والهرب إليه. تركب باخرة مع الركاب، تنغمس بين الصيادين، ترمي الشباك وتصيد السمك ثم تبيعه، وتشتري تذكرة تسافر بها حتى بيروت، حتى قبرص، حتى جهنم حتى تخلص من ذاك السجن. كان الزواج بمثابة سجن وزوجها بالذات هو السجن. ورغم أن ذاك السجن ما كان موجوداً معظم الوقت وأغلب لياليه في الخارج، إلا أنّها أثناء غيابه، كما في حضوره، تحسّ أنّها عصفورة في قفص، وهو الصياد.

تجلس في الليل وترى الأضواء. تعدّ النجوم وهي وحيدة. أحياناً تعدّ

حتى تنام ثم تستيقظ وسط الليل والدنيا سكون، وترى الأضواء في الميناء وباخرة تنزل حمولتها، وبوق يهدر في سكون الليل، فتحسّ بفرغ شبّيه بالموت.

بدأت تفكر بالانتحار. ماذا لو وقفت في البلكون وألقت بنفسها من ذاك العلو؟ ماذا لو ذهبت إلى الشاطئ وألقت بنفسها في عمق البحر؟ وإذا ماتت، من سيدكرها؟ زوجها طبعاً لن يذكرها، ماذا عن الأم؟ ماذا عن الأخ؟ ماذا عن الأهل والأقارب؟ لن يذكرها أحد منهم، ولو ذكروها فالأيام معدودة، أيام العزاء، ثم ينسونها وتصبح ذكرى، أو لا ذكرى، وكأنها لا عاشت ولا كانت. أي أنّها بالفعل بلا عيلة ولا أقارب ولا أصدقاء.

بدأت تتساءل ما الدنيا؟ بدأت تتساءل ما نفع الأهل؟ بدأت تتساءل عن معنى الأمّ والأومة. أمّها صارت بالنسبة لها مثل الغولة. صارت تكرهها من الأعماق. صارت تحسّ أنها السبب بما حل بها. فلو كانت تحسّ بالأمها هل كانت تدعها تتعذب وهي تعلم أن ذاك الزواج ليس زواجا بل هو صفقة. بدأت تفهم معنى الصفقة. بدأت تفهم أن الأمور ليست كما تبدو على السطح. الأمّ ليست منزلة، والأهل ليسوا سند الظهر، والزواج غلط، والناس غلط، والدنيا غلط. بدأت تتأمل وتتمرد. وحين أحسّت ببوادر الحمل وعرف الجميع أنّها حامل، جاءت أمّها لتهنئتها. استقبلت الأمّ بوجه جامد. رأتها الأمّ في ذاك الوضع، بوجه أصفر وجسد نحيل وشعر منبوش بلا تسريح، فلم تسألها لماذا وكيف ومتى وأين، كانت تعلم تفاصيل الحال بأن العريس يغيب ويسكر ولا تراه ابنتها إلا ما ندر.

قالت لها لتواسيها: بكرة الأولاد يسلوك. رشقتها بنظرة عتاب وكراهية،

فقالت معزية كما لو كانت تدافع عن نفسها: والله الأولاد أهم من الزوج. أنا ترمّلت وأنا صغيرة، لكن الأولاد كانوا حياتي. همست وداد معلقة: كانوا حياتك! قالت الأم: وما زالوا، وأنتِ معهم. سألتها بلؤم: وأنا معهم؟ أكيد؟ يا سلام!

حدّقت الأمّ بدهشة وذ هول، لأن وداد صارت تسأل، وصارت تسخر، وصارت ترد على الأقوال بلهجة غريبة، لهجة من يعرف أسراراً لا تعجبه ولا يفضي بها ولا يهضمها بل تظل في العمق تسكن بطنه وتحرق قلبه. بدأت تقلق. بدأت تخاف. صارت تكثر من زياراتها. تقيم في الظاهر عند وحيد لكنها تقضي جلّ الأوقات في بيت وداد. تتركها وداد جالسة في الصالة أو في البلكون وتنسحب بلطف وتختفي في المطبخ أو الحمام. حين يطول الغياب تدخل الأمّ فتجدها في غرفة النوم مكورة وقد غطت رأسها بلحاف كثيف وكأنها تريد أن تحتبئ منها ومن العالم. لم تعرف الأمّ ماذا تفعل. بدأت تراجع موقفها. أحست أنّها أخطأت بحق ابنتها، لكن ما العمل وما المخرج. فات الأوان.

عادت الأمّ لتستنجد بأخيها، لكن أخاها قال لها إنّ ذاك الولد سبب عذابه وأن وداد وحذاء وداد أفضل من ابنه ألف مرة، وإنّه سيعوض على ابنتها نواقص ابنه. فيعود مساء وقد أحضر لها ما لذّ وطاب من حلويات ومكسرات وجوز ولوز وسكاكر ثم ساعة ذهبية بكذا مبلغ، أو أسورة الماس بكذا مبلغ، أو كردان الماس بكذا مبلغ. ولا ينسى أن يقول "بكذا مبلغ". إذ كان يقول: هذي الأسورة اشتريتها بكذا مبلغ. هذا الكردان اشتريته بكذا مبلغ. هذا اللولو وهذا الياقوت... فتقول الأمّ وهي تبالغ بردات الفعل كي تشعر البنت بقيمة الهدايا والتعويضات: ما شاء الله! يا سلام، يا سلام، تسلم إيدك. من إيد ما نعدمها يا سيد الكل. كل هذا

لوداد؟ فيقول الخال: طبعاً لوداد. أنا فيه عندي أغلى من وداد؟ فيه كم وداد بهالدنيا؟ خذي يا خالي. خذي البسيه خيلنا نفرح.

لكن وداد لا تفرح، بل تتجهم، وتنسحب ببطء وتحتفي في المطبخ كعادتها أو في الحمام. وبعد نصف ساعة أو أكثر تأتيتها الأم لتذكرها بأن الخال يجلس في الصالة ينتظرها. فتقول بجفاف: أغلى القهوة أو أغلى الشاي. وتنظر الأم حولها فلا تري قهوة ولا ترى شاياً، فتقول بلطف: يرضى عليك، ادخلي عنده، خالك المسكين تعب نفسه. جاب لك هدايا بكذا مبلغ. فرد وداد ساخرة: بكذا مبلغ! وترشق الأم بنظرة حقودة، قصيرة، سريعة، مثل رصاصة، تكون كافية لاختراق العظم. فتصفر الأم، وتهرب من المطبخ والنظرات وتلحق بأخيها، وهي تقول: تغلي القهوة. ثم تضيفه مما جاء به من حلويات حتى ينسى تلك القهوة. وحين يخرجان وينغلق الباب تخرج وداد من مخبئها وتجلس كالعادة في البلكون تفكر بالبحر، وتفكر بالهرب ثم بالموت أو تتخيل أنها تقتله. تقتل الزوج ثم تهرب، أو تقتل الزوج ثم تقتل نفسها فيموت الطفل. لا تريد الطفل. لا تريد الأهل. لا تريد الحياة. فقط ستموت. هذا ما تريده، فقط أن تموت.

لكن، بما أنها ستموت، لماذا لا تقوم بتجربة تتمناها؟ لماذا لا تذهب للميناء وتندس وتضيع بين الناس؟ لماذا لا تنزل للحسبة أو سوق السمك وترى الدنيا من غير قفص؟ لماذا لا تدور في الشوارع وتركب حنطوراً أو تكسي وتذهب به حتى نابلس أو حتى القدس؟ لن تزور الأهل ودار العيلة، فقط ستدور في الشوارع والسوق العتيق وتشتري حاجة، أية حاجة، ثم تعود في المساء إلى حيفا دون أن يحس بها أي

مخلوق. هذا ما تريد، ألا يحس بها أي مخلوق، وأن تهرب.

19

حين فتحت ليزا الباب وجدت أمامها شبحا ملتفا بالأسود. كان المدخل معتما فلم تميز وجه المرأة تحت المنديل. وحين رفعته قالت لها: أنا وداد، صاحت ليزا: أهلك خسفوا الدنيا عليك. فلم تأبه، ودخلت الغرفة تتلفت وكأ أنها تكتشف الوضع.

قالت بجدية ووجه خلا من أي تعبير:

- داركم حلوة.

أعادت ليزا ما قالته:

- أهلك خسفوا الدنيا عليك!

لم تجب بل أخذت تتلفت حواليتها وتقول بهدوء غريب:

- داركم حلوة!

سألتها ليزا مستاءة:

- كيف وصلت؟

قالت باقتضاب:

- أخذت العنوان.

انتظرته ليزا أن تكمل، لكن وداد توقفت عند ذاك الحد وظلّت تحديق كالمهووسة. كانت قد قضت النهار هائمة في أزقة القدس وشوارعها. اشترت من هذا واشترت من ذاك، واشترت كمية من الكمون، لأن الكمون، كما قيل لها، يسرّع الدورة ويرجعها فيسقط الحمل. لم تكن تعرف ما تريد ولا تريد أن تعرف إلا أن تضيع ويضيع الحمل.

- سألته ليزا وهي تتأمل شكلها المتعب وملابسها المغبرة:
- مالك يا وداد؟
- همست بصوت متقطع وكأنتها تسمع درسا:
- خليني عندك، ساعديني.
- وقفت صامتة تراقبها ورأتها تهبط على الأرض عند قدميها، وقالت بسرعة، بدون توقف:
- أنا بطبخ لك، أنا بغسل لك، أنا بعمل حالي خدامة تحت رجلك. أنا عم بموت. دخيلك يا ليزا ساعديني.
- قالت ليزا بحيرة وقلق:
- كيف أساعدك!
- خليني عندك، ساعديني.
- كيف أساعدك؟ أنت حامل.
- قالت بحزم:
- لازم يسقط.
- كيف؟ لا يمكن!
- بشرب كمون.
- ابتسمت ليزا بمرارة. لزمت الصمت. أمسكت بساقيها وهي تشج:
- دخيلك يا ليزا ساعديني. أنا بموت.
- هبطت على الأرض بجانبها وأحاطتها بذراعيها، وهي تفكر:
- اسمعي يا وداد، خلينا نفكر بالمعقول. أنت زوجة وأم وحامل، وأهلك والناس كلهم ضدك. لو كنت طلبت قبل اليوم كنت ساعدتك.
- أخذت تشج:
- يعني إيمتي؟

- يوم جريشة. أنا يومها قلت وويعيتك. قلت لك يا وداد: كلّه على حمار؟ وأنت رديت وقلت لي: كلّه على حمار. يعني فهمت.

صاحت بألم:

- والله ما فهمت.

جابهتها ليزا بجديّة:

- الوضع اليوم أسوأ بكثير. كيف أساعدك؟ قولي لي كيف؟

هزّت رأسها بحيرة وذ هول:

- مش عارفة كيف. لكن أنت، أنت ليزا، والكل يقول ليزا وليزا. أنت متعلمة وفهمانة وعندك شهادات. أنا مش عارفه.

نظرت إليها من علٍ ورأتها مكوّمة على نفسها بالغطاء الأسود والكيان الضعيف. جسم ضعيف، عقل ضعيف، قلب ضعيف، وهي حامل.

كل العناصر ضدها فماذا تفعل؟ معركة خاسرة لا محالة، فمن أين تبدأ وبماذا؟ وتذكّرت موعدها في صباح الغد. كانت قد عملت مع الجمعيات النسائية طوال أسابيع لتنظيم مظاهرة سلمية ضد الانتداب ووعدها بلفور. هدف سياسي واضح، لكن في عمقه، في جواه، بوادر تحركات نسوية. هدف له أكثر من بعد، ونضال على عدة جبهات. فإذا كانت هي من تدعو لتلك الأهداف، وإذا كانت قد آلت على نفسها أن تقوم بتلك الأعباء وأن تتحمل نتائجها بما فيها السجن، فهل تخاف من أهل وداد أو زوج وداد؟ لكن، إذا فُتحت تلك الجبهة، فهل تكون وداد إلى جانبها أم تتخذها؟ هل تملأ يدها من وداد؟ وقد علّمتها التجارب أن المرأة في هذا الوضع تبدو ضعيفة. لا تبدو فقط، بل هي في العمق وفي الإحساس والتربية وردود الفعل قد هُيئت حتى تكون كيانا مهزّوزا بلا أوصال. فهل تراهن على هذا الكيان وتستثمر فيه؟ هي لا تعرف.

في تلك اللحظة لا تعرف، ولهذا أرجأت القرار حتى تهدأ وتستقر على موقف، فقد تبلور بعض الأفكار.

مدت يدها، وقالت للمرأة بجانبها:

- قومي اغسلي وجهك ويديك. الصباح رباح. اليوم تفكير وبكرة التدبير. بكرة نقرر.

20

أخذتها معها لمظاهرة النساء. انطلقت المظاهرة من وسط المدينة بقيادة رئيس البلدية وبعض الوجهاء ورجال الدين وشيخ الأقصى. كان الاتفاق على أن تكون مظاهرة سلمية بدون هتافات ولا اشتباكات ولا تحرش، فمشت النساء بخشوع كما لو كنَّ في جنازة، والصمت يلفهنَّ ويلف المدينة بأكملها، وإضراب تام في المتاجر والمؤسسات وأنشطة السوق. الشوارع خالية إلا من النساء الملتفات بالأسود وبعض المارة ممن وقفوا على الجانبين للفرجة، إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي تخرج فيها النساء من بيوتهن للمشاركة بعمل وطني وهدف عام.

لم تحس وداد أنها تسير في وسط مغاير للوسط الذي اعتادته، لأن النساء متشحات بالغطوة وخلف المناديل. لكنها لاحظت أن بعض النساء كن يعتمرن البرانيط أو شالات صغيرة التفت على شكل عائم أو يشمك. كما لاحظت أن بعض النساء من ذوات الغطوة رفعن مناديلهن على قمم رؤوسهن ومشين سافرات الوجوه دون خوف من عيون الرجال وفضول المارة، غير أن الرجال ما كانوا ينظرون مباشرة ولا يلتفتون. كان الجو أشبه ما يكون بجنازة رسمية والكل حزين. فتذكرت ما

قالت أمها عن نساء القدس وكيف شبهتهن باليهوديات. لكنها تراهن الآن بشكل مغاير، فوجوههن عابسة حزينة، وهن مثلها يلبسن الإزار ويختبئن خلف المناديل. أما المكشوفات مثل ليزا فيتحدثن بلغات أجنبية لرجال شقر كانوا يسيرون بمحاذاة المظاهرة، وفي أيديهم كاميرات وأقلام ودفاتر.

سألت ليزا عن هؤلاء فأجابت همسا ودون التفات: هذي صحافة. وسائل إعلام. فهمت وداد معنى "صحافة" ولم تفهم معنى "وسائل إعلام" لكنها صمتت وظلّت تمشي وسط الجموع في بحر بشر. لأول مرة نسيت وداد لماذا جاءت وكيف جاءت وأنها حامل. نسيت ما كانت تحسّ به من ظلم وأسى وغمرها إحساس بالرهبة، وهي ترى تلك الأمواج من النسوة محاطة بجموع المارة تقف صامتة على الجانبين دون تهافت، دون تدافع، وفي عيونهم قلق وتوتر وغضب حزين. كانت أحداث الأسابيع الماضية مليئة بالشؤم والمجازر. ثوار سُتقوا، متظاهرون اعتقلوا، بيوت نُسفت وعائلات سُردت وبعض القادة هربوا إلى لبنان وسوريا وآخرون أُبعدوا إلى قبرص أو سيشل، وعدد اختفى عن وجه الأرض ولا أحد يعرف أين ذهبوا أو كيف اختفوا. وكانت بعض النساء يحملن صورا مكبرة لأبنائهن وفي عيونهن دموع وألم. فبكت المارة وصاح أحدهم: الله أكبر. في تلك اللحظة أحست وداد بموجة ضبابية تغلفها وبدأت ترتعش وتتمايل وتمت أن تموت كهؤلاء الشباب في سبيل هدف نبيل له معنى، وأن يمن الله عليها بموت نظيف له قيمة. فما أحلى الموت بكرامة! ما أحلى العذاب في سبيل الوطن! ما أحلى الموت في الشهادة! أما العذاب والموت في سبيل زواج كاذب وزوج مقيت فذاك استنزاف لا معنى له، يجعل من المرأة مومياء

تحترف الحزن! ما أبعد هذا الحزن عن ذاك الحزن. تُرى، لو كانت أمها معها في هذا الجو فهل تحزن؟ وهل كانت تبكي لبكاء الناس؟ وهل كانت تقول عن نساء القدس ما قالته عن ليزا يوم جريشة؟

كل تلك المشاعر النبيلة ومراجعات الذات لم تدم أكثر من دقائق معدودات، لأنّها عادت إلى واقعها حين لمحت وجه أخيها، فشهقت وتعثّرت وكادت أن تقع. سألتها ليزا بدهشة وقلق: مالك؟ دخت؟ فهمست بذعر: أخوي أمين. ابتسمت ليزا، وهزّت رأسها، وقالت باستهانة واستفزاز: طيب، وإذا؟! قالت بذعر: إذا قال لأمي ولخالي...! سألتها ليزا مختبرة: خايفة منهم؟ لم تجبها، بل ظلت صامته تتأمل ما حلّ بها وما شعرت به، ولماذا خافت من أمين أو قلقت منه؟ أمين غير مخيف، هذا مؤكد، وهو من كان يدعمها ويحرضها. لكنها بالتأكيد تخاف منهم: من أمها، من خالها، من وحيد، ومن ذاك الزوج اللاسائل واللامسؤول. فإذا كانت تخاف، وما زالت، واكتشفت ليزا تخوّفها، فهل تمديدها وتساعدتها؟

قالت ليزا: مجموعة منا تدخل عند الحاكم وأنا منهم. قالت بذعر: خذيني معك. سألتها ليزا مبتسمة: خايفة من أمين؟ صمتت على مضض. خافت أن تكون ليزا قد اكتشفت ارتباكها وتخوفها فأخذت تلوم نفسها لأنّها عبّرت عن خوفها، ولأنّها شهقت حين رأت أمين. وتذكّرت ابتسامة ليزا الساخرة وهي تسألها: "طيب، وإذا؟!" فعلا وإذا. ماذا لو رآها واكتشفها؟ وهذا لن يحدث أبدا لأنّها مختبئة بالغطوة وتحت المنديل وسط أمواج من الأسود، وهي وسطه نقطة في بحر، قشة في تبن، فكيف يكتشفها؟

بعد خطوات عادت ليزا وشدت بيدها وسحبته. كانت قد راجعت

نفسها، أرادت أن تستكمل الاختبار، أو على الأقل، أن تمنح وداد فرصة لرؤية الدنيا بشكل مغاير. قد لا تتغير وتتبدل، لكن لا بأس من التجربة، والاختبار.

21

استقبلوهن بالوجوم. كان معظم موظفي الحاكمية العسكرية من العرب وغالبيتهم من موظفي العهد التركي. لهذا عزّ عليهم أن تراهن النساء بين الانجليز وتحت إمرة الحاكم العسكري، فوقفوا صامتين على الجانين وقد غَضُّوا النظر. سألتهم امرأة مكشوفة الوجه رغم الغطوة عن الحاكم فأشار أحدهم نحو الباب، وهمس بإجلال:

- تفضلي ستي، الباب هناك.

كان قد تعرّف عليها، وهو صبي صغير يعمل عند بقال يوناني ويحمل الأغراض ويوصلها لبيوت الشريحة المعتبرة من عائلات القدس. وكانت تناوله قرشاً أو حبة ملبس أو موزة وتدخله الدار. وكان يعرفها بالست رفيعة الجنجية لأثّها بشعر أحمر ونمش على الأنف. ورغم أنّها ذات أبناء وبنات وولد بكر اسمه أحمد، إلا أن الجميع ظلّوا يعرفونها بالست رفيعة الجنجية لأثّها بشعر أحمر ولأثّها مديرة مدرسة البنات قبل استقالتها كنوع من الاحتجاج على الانتداب وسياساته.

الست رفيعة - أم احمد نادت ليزا:

- يا ست ليزا تفضلي عندي.

فهت ليزا أن المطلوب هو الترجمة، أي أن تترجم ما تقلّنه النساء للحاكم وما يقوله الحاكم للنساء، فاستعدت. أفلتت يد وداد وتقدّمت لتقف

في المقدمة بجانب الست رفيعة - أم احمد.

انفتح الباب ودخلن بهوا فسيحا كان في يوم من الأيام مقرا لأعمال الألمان قبل هزيمة الأتراك وانسحابهم. كان الانجليز قد استولوا على المبنى وأحالوه إلى مقر للحاكم حيث تدار البلاد وتصدر الأوامر والتعليمات.

المكان فسيح كالمتحف، مليء بالقطع الأثرية والتماثيل والأيقونات وقطع فنية ومخطوطات، كان الحاكم ينقب عنها ويجمعها ويحفظ بها. كان مستشرفا عاش لسنوات طويلة في مصر والهند والسعودية، تعلّم خلالها عدة لغات شرقية، فأتقن العربية ودرس التاريخ والحضارة وقرأ القرآن. كان يعرف العرب من داخلهم، أي يفهم ما يقولون وكيف يفكرون وكيف يتصرفون سواء في العمل أو في الشارع أو في السهرات. كان يعرف كيف يساير العرب ويقمعهم، يسمونه الذئب والثعلب لأنه بجلد ناعم وكف كالسوط.

لم يكن الحاكم في مكتبه فضلت النسوة وقوفا يتأملن التحف والأيقونات بدهشة وإعجاب. فقالت إحداهن معلقة على اهتمامات الحاكم بشيء من الزهو: هذا الحاكم يفهم بفنوننا وآثارنا. فعلّقت أخرى: لأنّه حرامي وتاجر آثار.

لكن أحدا لم يسمعها، لأن الباب اندفع فجأة ودخل الحاكم من باب جانبي بطرف القاعة. اتجه فورا نحو النساء وحنى رأسه وشبك يديه على صدره على الطريقة الهندية حتى لا يمد يده ويصافحهن. قصد ألا يخرج النساء ويخرج نفسه فيما لو رفضن مصافحته.

قال بعربية فصحي سليمة جدا ومخارج حروف لا شائبة فيها سوى ترقيق طفيف في الألفاظ:

- أهلا وسهلا بالسيدات المحترمات. تشرفنا.
وأشار لهن بالجلوس، وجلس هو في مواجهتهن، وسأل بلهجة حميمة
وأدب جم:

- يا سيداتي المحترمات، كيف أستطيع أن أخدمكن؟
لم يجبن، وانصبت العيون على الست رفيعة التي تتصدر الوفد لتجيب
عنهن، لكنها لم تجب، ولا أحد أجاب، وظلت النساء على صمتهن.
رفع عينيه وأخذ يتفحصهن بدون موارد وبشكل مباشر، أراد منه أن
يفهمهن أن الشغل شغل، وان النساء مثل الرجال في هذه البلد - بلا
حصانة. نظر مباشرة إلى ليزا على اعتبار أنها قائدة الوفد ومحرضته، وقال
بأدب:

- ألا نتعرف سيدتي، على السيدات والأوانس؟
لم تجبه، والتفتت بعيدا عن نظراته وسلمت الأوراق للست رفيعة -
أم احمد. قصدت من ذلك أن دورها كمتريجة لا لزوم له، لأن الحاكم
يجيد العربية ويفهمها. فأمسكت الست رفيعة بالأوراق وخاطبت
الحاكم بالفصحى - كما فعل هو - حتى يفهم. بدأت تشرح بثقة امرأة
اعتادت أن تستقبل مفتشي التربية والتعليم بدون غضاضة، ولا تخاف
من الرجال ولا تحجل، فنادت الرجل بلقبه المدني على أمل الوصول إلى
قلبه وضميره. قالت بلطف:

- يا سير آرثر. نحن نساء وأمّهات الشهداء والمعتقلين. جئنا لنقدم
عريضة احتجاج على سياسة حكومتكم وعلى تصرفات جنودكم.
رفع الحاكم يده مستوقفا، وسأل برقة مبطنة بالهزة:

- لماذا الاحتجاج سيدتي؟ ألا نقوم بواجبنا ونرعاكم؟
حدّقت في وجهه وهي تتألم نفسها حتى لا تفقد أعصابها. كانوا قد

حذروها قبل المجيء ونصحوها أن تتروى حتى لا تندفع إلى الغضب كعادتها، فقد عُرِف عنها الغضب السريع وفسروه لها منذ الطفولة على أنه طبيعة ملازمة لذوي الشعر الأحمر لأنهم نصف مجانين. فأخذت تمارس على نفسها أقصى الضغوط حتى تثبت أتمها عاقلة وموزونة، ونجحت جدا، وباتت مديرة مدرسة البنات في وسط تكاد تكون فيه النساء شبه أميَّات، أو أميَّات بالكامل. أما هي فتقرأ الصحف وتكتب التقارير وتقابل الرجال وتناقش. لكنها ما زالت سريعة الغضب وسهلة الاستفزاز ولا تتوانى عن كيل الاتهامات والشتائم.

رأها تحملق ولا تحيب، فقال بهدوء:

- سيدتي، نحن خلّصناكم من الأتراك وظلم الأتراك. نحن أنقذناكم من المجاعة وغزو الجراد وسفر برلك. نحن خلّصناكم من الكوليرا والتيفوس وقائمة طويلة من الأمراض والقذارة وما خلفته تركيا من جهل وظلم وتخلف. أنت لا تذكرين يا سيدتي، كيف كان الجيش العثماني يجوّعكم. الألوف ماتوا في البيوت وفي الشوارع بسبب الجوع والأمراض وسفر برلك. وحين جئنا ملأنا الأسواق وأطعمناكم وبنينا المدارس والمستشفيات وأدخلنا النور والمدنية. جئناكم بالنور فاستقبلتمونا بالأفراح والرقص والغناء في الشوارع. قد لا تذكرين ما حدث آنذاك يا سيدتي. (وشمل النساء بنظرة دائرية) قد لا تذكرين يا سيدات ما حدث آنذاك لأنكن - ولا مؤاخذه - صغيرات السن ومحجبات، ولا علم لكن بما يدور في الشارع. أما أنا (وابتسم ابتسامة أبوية لرجل يتجاوز الستين ووخظه الشيب) فأذكر جدا، أذكر جيدا، أذكر كل ذاك، أذكر، أذكر. هذا تاريخ. هذا واقع. فهل ننسى التاريخ والواقع؟

وابتسم ابتسامة درامية، ليشعرها أنها صغيرة وهو كبير، أنها تلميذة وهو الأستاذ، أنها محجبة وهو رجل مكشوف عنه الحجاب، فاستشاطت غضبا وبدأت تغلي. لكنها تماسكت، وقالت بصوت مرتجف وقلب واجف:

- نعم استقبلناكم بالأفراح، هذا تاريخ. وقبل ذلك قاتلنا معكم ووعدتمونا بالتحرير والاستقلال ثم نكصتم. ختم العهد. بعتم فلسطين. فتحتم البلد لغزو اليهود. خلصتمونا من غزو الجراد وجئتمونا بغزو اليهود، وهو أصعب، لأنه حاقد.

- سيدتي، سيدتي!

رفع يده وصوته يستوقفها:

- ما هذا الكلام يا سيدتي؟ هذه لا سامية! تشبهين اليهود بالجراد؟ أهذا كلام يصدر عن مربية محترمة؟

حملقت بدهشة وهمست لليزا: يعرف من أنا! همست ليزا: طبعا يعرف. رأهما تتهامسان فقال بلهجة أستاذ جليل وقور:

- يا سيداتي المحترمات، أنتن بنات عائلات محترمة. ألا ترين أن هذا الكلام لا يليق بكن؟

والتفت إلى الست رقيقة، وقال بلهجة الواثق والعارف:

- أنا متأكد أن هؤلاء النساء لا يتفقن معك لأتهن فاضلات ومحترمات. أنا واثق. أليس كذلك يا سيدات؟

وتفحصهنّ واحدة واحدة، ومعظمهن مختبئات خلف المناديل بما فيهن وداد. فأشار إلى واحدة أمامه وسألها:

- ما رأيك أنت سيدتي؟

لم تجبه المرأة وظلّت صامتة تنظر باتجاه قائدة الوفد.

التفت إلى واحدة أخرى وسألها السؤال نفسه:

- وأنت سيدتي ما رأيك؟

وظلَّت الثانية صامته بدون حراك. فمد إصبعه وأشار لوداد فأخذت ترتجف وتتمتم: يا رب، يا رب، لكنها فعلت ما فعلته الأخريات وظلَّت صامته بدون تجاوب.

تدخلت ليزا، وقالت بأدب مشابه لأدب الحاكم:

- يا حضرة الحاكم إذا سمحت، لا داعي لاستجواب كل واحدة على انفراد. نحن هنا وفد واحد وممثلة الوفد هي الست رفيعة - أم احمد. نحن نتفق معها في كل ما تقول وما تفعل.

ولكزت الست رفيعة بكوعها كإشارة على التواطؤ والتوافق، فارتفعت معنويات تلك وواجهته باستفزاز وتحذّر:

- أنا مندوبة هذا الوفد كما انك مندوب حكومتكم. نحن نمثل نساء فلسطين كما تمثل حضرتك حكومة الملك وبريطانيا.

امتقع وجهه وبدأ هو الآخر يفقد صبره. لكنه استعاد هدوءه، وقال بركة:

- يا سيدات، أنا أعرف أن النساء العربيات بنات أصل وحضارة أقل ما يقال عنها أنّها حضارة كرم وتسامح. هل ننسى نحن وينسى التاريخ أنكم الأمة الوحيدة والدين الوحيد الذي احتضن جميع الأنبياء وكرّمهم؟ منذ التاريخ احتضنتهم اليهود كجزء منكم. نحن نقر بهذا ونحني الرؤوس أمام الإسلام والمسلمين الذين عاملوا الأغراب كما لو كانوا جزءاً منهم. وأكبر دليل على ذلك وجود الست. (وأشار بإصبعه إلى ليزا) فهذه الأنسة المسيحية غربية عنكن. انظرن جيداً فترين الفرق. أنتن بحجاب وهي بربنطة غربية. أنتن تصلين في الجامع، وهي تصلي

في الكنيسة الأرثوذكسية. أنتن تعلمتن لغة القرآن، وهي تعلمت لغة الإنجيل في الجامعات الأوروبية. ورغم ذلك، ها أنتن تعاملنها وكأئها جزء منكن.

وأشار إلى ليزا بإصبعه ثم، سألها:

- أليس كذلك يا آنسة أندراوس؟

وجمت النساء ووجمت ليزا. والتفتت واحدة، وسألت أخرى: يقول الحق، أليس كذلك؟ ولكزت واحدة كتف وداد، وقالت همسا: يقول المضبوط، صح والآ لا. فبدأت وداد ترتجف بذعر.

كانت النساء ما زلن يتهامسن ويتخبطن بسبب ما سمعنه من إيجاءات حين دفع الباب ودخل مرافق الحاكم، وهمس في أذنه ببضع كلمات جعلته يحمر ويكشر. ما قاله المرافق كان مثيرا للقلق والأعصاب. قال له إن اليهود جاءوا من جهة الغرب بمظاهرة شبيهة بمظاهرة العرب، وأن اشتباكا وشيكا قد يحدث. ليس هذا فقط، فهناك مندوب الوكالة اليهودية، دكتور وايزمان، يجلس في مكتبه بانتظاره.

نظر الحاكم إلى السيدات وهن يتبادلن الهمس والتعليقات، ثم إلى ليزا التي كانت تحدجه بنظرات غاضبة مشمئزة، فشرع بإحساس متناقض. فهو من ناحية يحس أنه أفلح في هز ثقة النساء وشنق صفهن وتوجيه ضربة موجعة إلى المتحدثات الإعلامية باسمهن. ومن ناحية ثانية يحس أنه قام بعمل لا يليق برجل محترم في مثل سنه وسمعته ومقامه. فأول على آخر هو ابن الغرب، أي أنه رجل استمد مشاعره وأفكاره من بيئة

تحترم الفروسية، وعاشت على أمجاد سير ولیم سكوت وملز وكرافت والبرونتيات. كما أنه يذكر القصص الرائعة والمغامرات الفذة لرجال اعتمدوا الفروسية واجتروا الموت في سبيل الدفاع عن الأنوثة والفضيلة. حب الأنثى، سحر الأنثى، ضعف الأنثى، هو نقطة ضعف، أوقوة، في عمق الرجل مهما تجلّد. وهذا الموقف فعلا محزن. يتجلى فيه التناقض بين ما يحسّ وما يفعل. فهو لاء النساء، ألسن بنساء؟ لكن الحجاب والغطوة، شيء مزعج. أما ليزا فتكاد تكون من لندن، صورة منها، نسخة عنها، وبرنيطة. جميلة أنيقة ذكية مثيرة، لكن للأسف! تعمل معهن، تعمل معهم. أي أنها في صف المتمردين على حكمه وحكم الانتداب وسياساته. وفي السياسة لا أحد جميل، لا أحد لطيف، لا أحد شريف أو عادل. هذي وظيفة. وما حصل عليه من لقب ونفوذ ووظائف كان المردود لما قام به في الهند ومصر والسعودية. ما فعله هناك يفعله هنا. هذي وظيفته وعنوانه، هذا واجب.

سأله المرافق ثانية:

- ماذا أقول لدكتور وايزمان؟

هّب واقفا، وهو يفكر:

- قل له، قل له، أنا سأقول.

واعتذر من النساء بلطف وأدب، وقال سيعود بعد دقائق.

22

دكتور وايزمان قال بأنفة:

- يا سير آرثر، هؤلاء العرب يتحامون بالنساء بجبن مخجل. يريدون استدرار عواطفكم.

هزّ الحاكم رأسه، وهو يفكر. كان يريد أن يرضي الرجل ويعزز ثقته وتأييده. ومن ناحية ثانية يحس أن هذا الرجل صعب الإرضاء - مثل شعبه. هذا الرجل خبيث ماهر، فطن حصيف متهور، يعرف كيف يداور ويناور ويقضي على خصومه بالكلمة. كلمة حلوة، كلمة مرة، كلمة مشحونة بالتهديد والإطراء وبقدرة شعب لا يهدأ حتى ينال ما يشبعه ويرضي غروره، شعب خبيث، شعب قادر وتتجلى فيه الأسطورة. في أي مكان، في أي زمان، في أي حزب أو مجلس، في أي بنك، أي مشروع، أي بزنس، هم مثل الجن، طاقة غريبة، طاقة مخيفة، خطر لا يمكن إنكاره.

قال دكتور وايزمان:

- يريدون استدرار عواطفكم. لكن نساؤهم مثل الغيلان. جنس قوي مستغول. هم مثل الرجال. لا يغرنك الكلام اللطيف والاختباء خلف الحجاب والستائر. هؤلاء النساء، لو تعرفهن، مثل الشياطين. اخرج للقريبة تعرفهن، أقوى من الرجل، أقوى وأشرس. أتعرف لماذا؟ لأن القروية كالدابة تحبل وتلد وتحمل الخطب وتحفر الأرض وتكسر الصخر ولا تتعب. المرأة العربية كالغولة، جنس بلا رقة ولا أنوثة. أما

المنديل فهو خدعة، ستار لإخفاء ما خلفه.¹

ابتسم الحاكم بتسلية:

- وماذا خلفه؟

- خلفه غباء وأمية. أنصاف وحوش. مكر وخداع وتملق. أنا أعرفهم.

لكنك أنت لا تعرفهم.²

باخت الابتسامة عن وجه الحاكم. فيها هو يستمع ثانية لنفس النغمة.

نغمة مكرورة يعرفها لأنه بالأصل يستعملها: "أنا أعرف، أنا الخبير، أنا

العارف، وأنت بلا خبرة ولا معرفة." هذا اليهودي نسي أصله، وها هو

الآن يتنمرّد. فليتنمرّد، بعيدا عنا فليتنمرّد. سئمنا منهم.

قال وايزمان:

- أيام صموئيل ما جرؤوا، لماذا يجرؤون الآن؟ أنا لا أعرف!

ونظر إليه نظرة متفحصة تحمل ما تحمل من عتاب، وربما تهديد، فهو

رجل يده طويلة، حباله ممدودة إلى ما فوق، فوق اللوردات ومجلسهم

وصولا إلى ما حدث في فرساي وسان ريمو.

قال وايزمان:

- هربرت صموئيل كان شديدا.

سأله الحاكم بتهكم:

- وأنا لئن؟

ابتسم وايزمان بلباقة:

- لا، لم أقصد. أقصد صموئيل استعان بنا، وجنرال اللبني استعان بنا.

1 - see "Between Mohammed and Mr. Cohen" in One Palestine Complete by Tom Segev

2 - إشارة صورة العربي في الأدب العبري لإيهود بن عيزر.

إشارة الى صورة العرب في مناهج التعليم الإسرائيلية

فيلق اليهود احتل القدس، لويد جورج اعترف في سان ريمو، وكذلك بلفور.

هَبّ الحاكم واقفا:

- ماذا تقصد؟

تراجع وايزمان:

- أنا لم أقصد إلا التذكير بمصالحنا. نحن حلفاء ولن نختلف. هذه البلاد ستكون لكم، نديرها نحن وتكون لكم. عبر التاريخ، بلا حدود، بلا نهاية. ستكون محمية بريطانية ونحن الرعاة والرعايا في بحر الشرق المتخلف. سنضيء الشرق بشعلتكم، بمعارفنا، وبأيدينا وقدرة الشعب اليهودي على العمل الجاد، سنضيء الشرق بالمدنية، وبالحق والعدل والتقدم. هربرت صموئيل كان يعرف.

هبط الحاكم في مقعده والتفت بعيدا نحو الجدار، نحو القبة، نحو النافذة الشرقية ورأى أجراس الكنائس والمآذن تعلو في الأفق بلا حواجز، من غير حدود، وتذكر ما قاله الجنرال قبل وفاته. قال الجنرال: "بريطانيا على وشك ارتكاب أكبر غلطة، أعظم ظلامه في العصر الحديث لأية أمة. هربرت صموئيل؟ بعد كل ما حدث هربرت صموئيل؟ لورنس العرب والشريف حسين والمعارك، هربرت صموئيل؟ يقولون اليهود والفيلق من احتل القدس. من احتل القدس؟ قل ولا تخف من احتل القدس؟ ذاك الفيلق؟ شيء جميل. شيء رائع. في بلاد اللجوء كانوا عبيدا، وانقلب العبد إلى سيد. وإذا ما انقلب إلى سيد خذ حذرك منه، ينقلب إلى وحش كاسر."

قال وايزمان:

- المرأة هنا صارت تحكي؟ صارت تقرأ؟ صارت تكتب؟ ولها لسان

يتكلم؟ هن أميَّات بدائيات من الصحراء، هن مثل العبيد والجواري.
شيء مقرف. واحدة منهن فقط لا غير اسمها ليزا. ليزا اندراوس
مسيحية. احبس ليزا ينفرط الجمع.

رفع الحاكم حاجبيه وادعى المفاجأة والدهشة:

- أحبس ليزا؟ هل تعرفها؟

- طبعا أعرفها وأعرفهم. أعرف ليزا وتلك الحمراء الجنجية ورجال
الدين والأحزاب والبلدية. نعرف ما يجري في الشارع وخلف
الكواليس. بعض الجنود هنا في المركز، وبعض الضباط هنا في المكتب،
هذا المكتب، يتعاطفون مع العرب وينحازون لهم.

صر الحاكم عينيه وقال بجفاء:

- تتجسسون علينا؟

- أبدا، أبدا، بل عليهم. نحن ندرسهم لنعرفهم. نعرف عنهم ما لا
يعرفونه عن أنفسهم. لدينا وثائق، لدينا دراسات ومعلومات تنفعكم.
هربرت صموئيل كان يقرأ تلك الدراسات، وكذلك سير شانسلور
ووشوب وغيره وغيره. فإن كنت ترغب نطلعكم.

صمت الحاكم وهزّ رأسه بغیظ مكبوت. شيء في الرجل يثير الأعصاب.
سأل الجنرال قبل وفاته: "كيف استطاع هذا الوايزمان أن يدخل في
عظم الحكومة ويقنعكم؟ كيف استمال عواطفكم؟ هو لا أكثر من رجل
قميء متبجح يثير الأعصاب؟!" قال الجنرال: "هو مثل الروس، لأنّه
منهم. مَنْ هو كارل ماركس؟ مَنْ هو تروتسكي؟ مَنْ صنع الحمرة؟ مَنْ
خلق البلشفيك وعلمهم؟ من خلق الثورة الروسية؟ من خطّطها؟ من
روّجها؟ من نسف النظام؟ من جاء لنا بنظام الحمرة؟ هم اليهود يا سير
آرثر. هو هذا الشعب بلا منازع. ضعيفا كان، محترقا كان، مكروها

ممجوجا منبوزا، إلا أنه كلي القوة والقدرة. هل نستطيع إنكاره؟ فإذا حشرناه في مكان ما بعيدا عنا نخلص منهم، ونخلص من ثورة محتملة هنا في لندن، هنا في باريس، هنا في برلين، نخلص منهم. هم أصل البلاء، نخلص منهم."

قال وايزمان بصوت رقيق كصوت الأنثى:

- احبس ليزا، فينفرط الجمع.

قال الحاكم بلؤم وبرود ليغيظ الرجل:

- أحبس امرأة جميلة، ذكية، أنيقة؟

رد بسرعة:

- نساء اليهود أذكى وأجمل.

علّق الحاكم بتهكم:

- أجمل من امرأة مسيحية؟

ابتسم وايزمان وفهم المغزى، فلّوح بيده باستهانة:

- هو ليس الدين.

- إذن ماذا؟

- المدنية يا سير آرثر، المدنية. العلم والنور والحضارة ونظام الحكم.

- تقصد الديمقراطية؟ الديمقراطية لن تنفعكم، هم أكثر منكم بما

لا يقاس، أكثر منكم.

- أعرف، أعرف، ولكن، ولكن...

- لكن ماذا؟

- لكن السؤال هو هذا: الديمقراطية تنفع مع من؟ تمنح لمن؟ تمنح

للوحوش والبهائم؟

استفز الحاكم وثار فيه عرق نائم، فقال بأسف:

- هؤلاء نساء، بشر، أمّهات، هذا تناقض.
- تناقض مع من؟ تناقض من من؟ أي تناقض؟ نحن نعرف ماذا لدينا،
نعرف ما نريد، نعرف، نعرف. لدينا دراسات تنفعكم. إن كنت ترغب
نطلعكم.

قال الحاكم بغيظ وبرود:

- لا، لا أرغب. لدينا سياسات وتعليقات.
قال مجادلا:

- تلك التعليقات يا سير آرثر، لا بد وأن تركز إلى معلومات.
أحسن الحاكم بالإهانة، فقال بجفاف:
- لدينا ما يكفي من معلومات.

واستدار بوجهه جهة الحائط ثم إلى الباب، فلمح مرافقه واصف يسترق
السمع من شق الباب.

واصف مرافقه وسائقه وقاضي الحاجات، يشتري أغراضه ويوصلها،
يمشي معه في السوق العتيق، يصلي معه في الكنيسة، ويوصله من مكان
لمكان لأنه يعرف فهو ابن البلد، ابن الأجواء الشعبية. طريف، طريف،
يجب الكيف والموسيقى ويجب الناس فهو مسلم. لكن ما قيل عن ليزا
هل وصل إليه؟

قال وايزمان:

- هي ليزا فقط. احبس ليزا وتلك الحمراء الجنجية.
ابتسم الحاكم وتذكر ما قالته تلك الحمراء، فقال معجبا وقد نسي غضبه
حين تحدّته، لأن الرجل، هذا الرجل، أعند بكثير، أعند وأوقع:
- تلك الحمراء الجنجية تبدو ذكية.
- هي رأس الأفعى ورأس الكوم.

- هي أم ليزا؟
- هي وليزا. إذا تخلصنا من القادة نخلص منهم. هم أميون، هم فلاحون لا يعبأون بالسياسة، هم يصدقون قاداتهم مثل الغنم. فإذا حبسنا قاداتهم نخلص منهم.
- نفض الحاكم يده بنفاذ صبر:
- حبسنا ما فيه الكفاية.
- إلّا ليزا.
- صاح الحاكم، وقد فقد صبره وأعصابه بسبب الإلحاح المتواصل والنصح الشبيه بالأوامر:
- ليزا، ليزا، من هي ليزا؟! أنت تضخم من أعدائك. من يسمعك تقول ليزا ليزا يظن أن ليزا غولة مخيفة، وحش كاسر، مصاصة دماء، سفّاح مرعب ومدمر، وأنا لم أرها إلّا شابة لطيفة، جميلة، أنيقة، وبرنيطة.
- تحسّس وايزمان برنيطته، وقال باسمها كي يخفف من حدة الجو والتوتر:
- وأنا لذي برنيطة.
- تأمله الحاكم، وقال متهمكماً:
- برنيطة ليزا أحلى بكثير!
- وصاح فجأة وهو يرى واصف يقترب بأذنه من شق الباب حتى كاد أن يدفعه:
- مالك يا واصف؟ ما وراءك؟
- دخل واصف على مهل وقد اكتسى وجهه ببراءة أطفال وابتسامة، واقترب من أذن الحاكم وهمس بحذر:
- مندوب آخر يا سيدي.
- مندوب من؟

- المهستدروت.
- نفخ وهمهم ومسح وجهه، وسأل بحدة:
- من هو؟ ما اسمه؟
- اسمه بن غوريون يا سيدي.
- مسح رأسه وحاول أن يبدو مرحا وخفيف الدم:
- ويلبس برنيطة هو الآخر؟
- ابتسم واصف ولم يعلق، فهمس الحاكم، وهو يغمزه:
- أم شجرة نتش؟
- لم يعلق، وخرج من الباب، وأبقاه مشقوقا موروبا مسافة إصبع.

23

دخل بن غوريون وكان هو الآخر ببرنيطة، فتذكر الحاكم ما سمعه قبل سنوات أن بن غوريون كان بطربوش لا برنيطة لأنه في ذاك الزمن، زمن الأتراك، كان يعمل كموظف بريد في خدمة الباب العالي، وكان ووايزمان على طرفي نقيض. أحدهما يقول "بريطانيا" والآخر يقول "تركيا". الأول يقول "بريطانيا هي بلد النور والحضارة"، والثاني يقول "تركيا هي أم الجميع، هي بلدنا. إذا كسبت الحرب تركيا وكنا منها ستكون فلسطين في جيبتنا". وبالفعل، حاول بن غوريون أن يكسب، فاقترح على الباب العالي إنشاء فيلق يهودي لدخول الحرب مع تركيا، لكن الأتراك لم يصغوا، استهانوا بالأمر ولم يصدقوا موالة الرجل وطربوشه. وظلَّ السؤال طوال سنوات بين الرأسين هو: من يكسب؟ الأول يقول "بريطانيا"، والآخر يقول "تركيا"، حتى اقتتلا

- بدون الأيدي، بلغة الرؤوس، لأن كليهما برأس كبير، وبرنيطة.
- قال بن غوريون وهو يشير إلى شق الباب:
- هذا الرجل يسمع ما نقول. هذا جاسوس.
- تنحى الحاكم حتى يضبط نغمة صوته لئلا تعلقو:
- هذا مرافقي واسمه واصف.
- ردّ وايزمان بسرعة وثقة قبل زميله حتى يسبقه:
- نعرف من هو، نعرف، نعرف، ونعرف أيضاً أنّه منهم.
- قال الحاكم مدافعاً:
- هذا الرجل يعمل معي، أنا أعرفه، فهو مسالم.
- نزع بن غوريون برنيطته فبدا رأسه مثل القنفذ أو شجرة نتش مليئة بالشوك والمخالب. ابتسم الحاكم ونظر إلى الباب فرأى واصفاً في شق الباب يسمع - كالعادة - بتلصص. التقت عيونهما فجفل واصف، لكن الحاكم ابتسم له، وغمز بعينه.
- قال بن غوريون بعصبية:
- مظاهرة النساء نكتة سخيفة. وضعوا النساء في الواجهة من أجل الصحافة والإعلام. هذه حركات نعرفها. من حركهن؟ من دفعهن؟ هم الرجال، ورجال الدين، شيوخ ورهبان وخوارنة. ومرافقك المسيحي ينقل الأخبار لكنيستهم.
- هزّ الحاكم رأسه بعناد، وقال ببرود:
- هذا الرجل يعمل عندي، أنا أعرفه، هو رجل أمين ومسالم.
- تبادل المندوبان نظرات الشك، فقال وايزمان بلهجة دبلوماسيّة وصوت رقيق:
- بن غوريون يقصد أن المستدروت على استعداد لتوفير سائق أخطر

بكثير ويعرف الانجليزية كالبلبل.

غضب الحاكم، لأنهم يتدخلون في شؤونه، وكأنه يعمل في خدمتهم. قال له الجنرال حين تذرّ: "هذا واقع. لكن إياك، احذر منهم." فحذر طويلا وكثيرا حتى بدأ يفقد صبره وبدأ يحس أن العرب رغم الغباء والتخلف، أخف وطأة، لأن القليل يشبعهم. أما هؤلاء، أعوذ بالله، أرزاق الأرض لا تشبعهم ولا ماء السماء ترويه. كل التمييز والامتيازات وما يحصلون عليه من ضرائب وتسهيلات والكهرباء والفوسفات والمعادن وكل التوظيف والعمالة ويحسدون العرب على سائق!

ألح وايزمان حين لم يسمع جوابا من الحاكم:

- بن غوريون يقصد أن المستدروت على استعداد لتوفير سائق شاطر وملحاح يعرف السوق والبلد والناس والنواصي وكل البارات. احمرّ الحاكم بسبب التلغيز لأن واصف يأخذه لبارات القدس عند اليونان والأرمن، عند خريستو وهاكوب وهايك ومدمام ريتا. الحاكم وحيد في المنفى، هربت زوجته إلى لندن بعد مذابح عام ١٩٢٩، وظلّ وحيدا. صارت فلسطين كالمنفى، بل هي منفى، ضرب وقنابل ومشائخ ومظاهرات واشتباكات في كل قرية ومدينة وهو المسؤول عن حفظ الأمن، وعن حفظ الهيبة الملكية. قال بعناد وتحدّ:

- هذا مرافق، سائق بسيط، عامل كادح!

وحده بن غوريون ليذكره بما يقولونه حول العمال في المستدروت لكن بن غوريون ادعى عدم السماع، ووقف بالقرب من وايزمان، فوصل لكتفه لا قبعته، ومشى خطوات قصيرة، قصيرة جدا حسب الارتفاع

- والقائمة، ونظر من النافذة الغربية، وقال بحماس:
- يا سير آرثر، تعال انظر، انظر لعمالنا كي تحكم. أرجوك، أرجوك. قام الحاكم من مكانه بتمهل ونظر من النافذة الغربية، ورأى مظاهرة اليهود كما توقع، صفوف منتظمة كجيش صغير وانضباط كبير وأعلام ولافتات بالأحمر، كلّها أحمر، فيها شواكيش ومناجل. فقال بدهشة:
- ما هذا؟! مثل موسكو!
- قال بن غوريون باعتزاز عظيم:
- هؤلاء عمال حقيقيون لا فلاحين. انظر الفرق، انظر، انظر.
- هتف الحاكم بغیظ ودهشة:
- وواصف عامل!
- هزّ بن غوريون رأسه بخيبة أمل لفداحة الخطأ والتشبيه:
- يا سير آرثر، يا سير آرثر، هناك فرق.
- احمرّ وجه الحاكم وبدأ يتأفف:
- وما هو الفرق؟ هؤلاء عمال وواصف عامل.
- تدخل وايزمان مصححاً، وبلهجة مهيبة كما لو كان يقرأ في التلمود:
- بل هناك فرق يا سير آرثر، الفرق بالوعي والمدنية.
- لوح الحاكم يده بنفاد صبر:
- لا فرق هناك، هؤلاء عمال وواصف عامل. أليس هذا ما تقولونه في المستدروت؟
- خفض بن غوريون صوته وأخذ يتكلم بتمهل، ببطء شديد، كما لو كان يخاطب تلميذاً غير نجيب أو أھبل:
- يا سير آرثر! عمال العرب ليسو بروليتاريا حقيقية، هم أميون، يعني أجراء وفلاحون. الواحد منهم لا يعرف رأسه من قدميه.

احتدّ الحاكم وتماوجت صورة واصف المسالم في رأسه، فتحرك قلبه:

- واصف يعرف، واصف يقرأ، واصف يكتب، واصف يفهم.

صاح الاثنان معا:

- ولهذا يخيف.

دهش الحاكم لأن النقاش خرج عن المنطق والمعقول:

- يعني المتعلم لا يعجبكم ولا الأمي يرضيكم؟! واصف يعجبني

ويرضيني، لم يفعل شيئا يغضبني، لم يفعل شيئا يثير الشك. لدينا

استخبارات كما تعرف.

قال هذا موجه الكلام إلى بن غوريون، لكن ذاك كان ينظر من النافذة

ولا يسمع، أو يسمع ويتغاضى ويطنش. كان ينظر إلى ما وراء الزجاج،

وقال معلقا على ما يرى لا ما يسمع:

- هؤلاء عمال حقيقيون. مهارات، لغات، وثقافة. انضباط تام ونظافة.

هذا هو الفرق.

حاول الحاكم أن يخفف من حدة النقاش، فقال مداعبا:

- طبعاً، طبعاً، هناك فرق. جماعة واصف يلبسون الشروال لا

الأفروهل، ويأكلون الخبز بلا زبدة، وبدل الهام زيت وزعتر، هذا هو

الفرق.

ادعى بن غوريون عدم السماع، وذهب إلى النافذة الشرقية، وقال

للحاكم بشماتة:

- تعال انظر، انظر الفرق. لا تقل لي هام وزبدة وزيت وزعتر، هذا هو

الفرق، انظر، انظر. انظر أرجوك.

اقترب الحاكم من النافذة الشرقية، فرأى أمواجا من الأسود، نساء

بغطوات ومناديل بالأسود، ورجال الدين بالأسود، شيوخ الأوقاف

والأقصى وخوارنة المهدي والقيامة كله أسود، ولقأت ضخمة وقلنسوات
ومسابح وصلبان بحجم صلبان القبور والموتى وصليب المسيح، فقال
بدهشة مليئة بالذعر:

- ما هذا الجو؟ كما لو كنا في السعودية!

علق وايزمان ساخرا:

- صلبان ورهبان في السعودية؟!

لم يجب الحاكم ولم يعلق لأن السعوديين أيضا حلفاء وأيضا كرماء، أكرم
بكثير، وبتروول كثير. فقال بحيرة وعقل ملخوم:

- لكن النساء هن أيضا نساء، بشر، أمهات!

قال بن غوريون بعصبية:

- هم الرجال من دفعوهم.

صححه وايزمان كعاداته:

- بل هي ليزا.

أضاف بن غوريون للتذكير:

- وواصف جاسوس، أكيد جاسوس.

رفع الحاكم ذراعيه لأعلى يطلب الرحمة من ربه:

- من أجل السماء! واصف وليزا، ليزا وواصف! ماذا تريدون؟

قال أحدهما "واصف" والآخر قال "ليزا". فهمس الحاكم في داخله:

"حلّوا عن ديني، سئمناكم" لكنه عاد ليتذكّر مظاهرة النساء وليزا

الحلوة، اللطيفة الأنيقة ببرنيطة، كما لو كانت من لندن، فأسرع كي

يهرب من النكد، وقال بأدب:

- وفد النساء بانتظاري، الجنس اللطيف، أعذروني، عيب وحرام.

وخرج من الباب فرأى واصفاً بلصق الباب. جفل واصف وارتدّ

للخلف عدة خطوات، لكن الحاكم ابتسم له وغمز بعينه، وسأل مازحا:
- الليلة هاكوب والا خريستو؟
فقال واصف بجدية:
- خريستو، خريستو.



انتهى الاجتماع بصورة مفاجئة سريعة. اعتذر الحاكم بأدب جم رغم مشاعره وأفكاره. كانت مشاعره قد انقلبت، لأن النقيق المتكرر والنصح المستمر كالأوامر، والصلف والغرور والتحدي لدى اليهود زاد عن حده. ما عاد يحتمل الموقف وانسحب بلطف لأن النساء، الجنس اللطيف، عيب وحرام. قال ذلك ورمى الاثنين بنظرة سريعة ليرى تأثير كلماته: "الجنس اللطيف، عيب وحرام." فرأى ابتسامات وتهكم وصمت مطبق. لم يعلقا، فقط ابتسما بخبث بارد فازداد غيظا مكبوتا وكاد يصرخ، فها هو يحاول أن يثبت أنه مندوب جلالة الملك وبريطانيا، لكن الأمور لا تجري حسب المنطق والمصالح. بريطانيا صارت بلا هبة، وأميركا تنتظر وترصد. أميركا والطاقة والبترول والسعودية وقناة السويس. أين المنطق؟ قال الجنرال قبل وفاته: "قلنا هذا، كنا نعرف. قلنا الأمور ستفعل منا، قلنا، قلنا، وكل التقارير قالت ذلك. قلنا فلسطين لن تنفعنا. ماذا فيها؟ فيها بترول؟ فيها ذهب؟ فيها معادن؟ كل الجنرالات قالوا ذلك. قلنا فلسطين لن تنفعنا، بل تضعفنا، من كل النواحي ستضعفنا. ستفقدنا ولاء واحترام العرب، ستوسع انتشار وحدات الجيش، وستأخذ أموال خزيتنا. كل المستعمرات

كانت تعطي، إلا فلسطين ستأخذ منا. قلنا فلسطين لن تنفعنا. لكن صموئيل، ذاك الصموئيل، وإيمان بلفور بقدوم المسيح، رجوع المسيح، حسب التوراة، والأسطورة. شيء غريب، شيء مضحك. قلنا ذلك، قلنا كثيرا، قلنا طويلا، وكل التقارير قالت ذلك، لكن فجأة انقلب الجو. إلحاح اليهود شيء مذهل. طاقة رهيبية، قوة خفيفة، تأثير فظيع، من خلق الحمر؟ من هو كارل ماركس؟ حلوا عنا. خذوا فلسطين وحلوا عنا. وأنت هنا بانتظار المسيح، كما في التوراة، والأسطورة، وفتاوي بلفور والهستدروت. هذي أوامر" قال الجنرال قبل وفاته.³

24

الست رفيعة قالت لليزا مهدئة:

- هؤلاء النساء دقة قديمة، عقل مغلق. معظمهن أميات بلا تعليم ولا ثقافة. ولا يهمنك. تعالي نخطب في الرجال، الرجال أفضل.

سألته ليزا بتهكم:

- الرجال أفضل؟

أكدت بحماس:

- طبعا أفضل. فيهم زعماء، وفيهم قادة وشيوخ الأوقاف والخوارنة، يدا بيد في أول صف. تعالي نخطب، تعالي.

واقتربت منها ووشوشتها: واصف يقول إن اليهود في الجهة الغربية من المبنى. ويقول الوكالة اليهودية والهستدروت مع الحاكم.

3: "A Contact with Jewry" in One Palestine Complete, by Tom Segev

نظرت ليزا عبر القاعة ورأت واصفاً يروح ويحيى أمام الأبواب،
فابتسمت له، وابتسم لها وعاد ليختفي في ظلام الممر.
شدتها رفيعة، وقالت لها:
- تعالي نخطب، تعالي.

وحين رأت الشك والتردد، قالت بحماس:
- اليهود هناك عند الحاكم. جماعتنا بانتظار البيان. أنا أقرأه بالعربي
وأنتِ تترجمينه للانجليزي. يا الله، يا الله.

واندفعت الاثنتان نحو البلكون لتلقيا البيان التاريخي، بيان المرأة.
حين رأت جموع النساء تحت المبنى الست رفيعة - أم أحمد وليزا معها
فوق البلكون بمبنى الحاكم أخذن يهتفن: فلسطين عربية، فلسطين
عربية. فاهتز المتفرجون حول الموكب وشاركوا بالهتاف، وكذا الزعماء
في أول صف وهم يقتربون من المبنى ويشيرون بأيديهم لممثلات الوفد
في البلكون حتى يبدأن بقراءة البيان المين، بيان المرأة.

نظرت ليزا من موقعها المرتفع في البلكون ورأت الجموع هنا وهناك.
جموع هنا تحت البلكون، وتحت الحاكم، رجال الدين بالأسود، ونساء
القدس بالأسود، وحداد المارة بالأسود، كله أسود، فشعرت بالحزن
لأن الأسود هو لون الموت، واللون الأخضر لون الدين، وهي هنا بين
اللونين تحاول أن تعلو فوق اللونين وتقول للناس إن الأديان ليست
عبرة، وإن الألوان ليست عبرة، وإن الوطن فوق الأديان.

بدأت تقرأ البيان فعمّ الصمت وهذا المكان. لا صوت، لا هتاف، لا سعدة شيخ أو خوري، لا زحفة حذاء أو ورقة شجر. الكل يستمع بخشوع كما لو كانوا ينصتون إلى صلاة يوم الجمعة أو يوم الأحد. وحين خرج الحاكم من مكتبه ومشى في القاعة نحو البلكون امتلاً برهبة هو الآخر، فوقف يستمع من غير حراك. استمع لكلمات بالعربية ثم أعيدت بالانجليزية فدارت جَوَّاه، في أعماقه، وجعلته يفكر بتفاؤل أن السلام ممكن جدا، وأن الוותام ممكن جدا، وأن البناء والتعاون سهل التحقيق. بيان النساء يلعن الحرب، يلعن الدمار، ويلعن الانتداب والاستعمار. من الاستعمار؟ هو الاستعمار، هو مندوب الملك وبريطانيا. لكنه وهو يسمع كلمات النساء من فم ليزا، بدت الكلمات لطيفة رقيقة وفيها أبعاد جميلة، فيها إحساس ومشاعر، وضمير حي وأمومة. صحيح أن الكلمات فيها لعنات وتحديات وتنديد بالكذب والتأمر وما حدث هنا وما حدث هناك، إلا أن ما يسمعه هنا سمعه هناك قبل سنوات من فم الجنرال قبل وفاته، والتحليلات، والوثائق، وبعض الشيوخ في مجلسهم. لكن السياسة هي سياسة. وفي السياسة لا شيء جميل، لا شيء نبيل أو عادل. هذي وظيفته وعنوانه هذا واجب. فماذا يفعل؟

في ذاك الصراع وهو يحاور ما يسمعه ويحس به ويحلله جاءه جندي وناولته ورقة مطوية عدة طيّات. وحين سأله: ممن هذه؟ أشار بعينه نحو الباب، بابه هو، مكتبه هو، فرأى شكلين معتمين بلا تمييز: أحدهما مستدق، والآخر شبيه بالقنفذ. فاستعاذ بالله وحزر على الفور ما في الورقة. فتح الورقة ونظر إلى المرأة المذكورة فتمتم بحق: وحق السماء سئناكم. ووقف يستمع إلى ليزا.

25

مشت المظاهرة في الشارع بدون تدخل. الحاكم أمر بالا يعترض الجنود طريق النساء. بما أن الأمن والنظام لم يخترقا، إذن فالجيش لن يتدخل. ولم يتدخل. فمشى الموكب بجلال مهيب واحترام يفوق أي تصور. لأول مرة تُحترم النساء. لأول مرة تشترك النساء بموضوع عام. لأول مرة تقول النساء كلمتهن، فيستمع الرجال بدون تدخل. فأحست رفيعة - أم أحمد أن الأمور تمشي قدما وأن الرجال بدأوا يعترفون بقيمتهم. وحتى النساء بدأن يعترفن بقيمتهم. بعد البيان، ووقوف ليزا في البلكون والكلام البديع، واللغة الغربية المهيبة، لغة الحاكم، لغة السلطات المحترمة، شعرن بالزهو والقيمة. وهذا جميل، هذا مذهل، امرأة ترطن وتبربر بتلك اللغة الغربية بدون قلقلة ولا غلطة! شيء مبهر ويرفع الرأس. حتى الرجال سمعوا ذلك. حتى الشيوخ والخوارنة هزّوا الرؤوس بتأثر. فمشت النساء برأس مرفوع، واقتربت بعضهن من ليزا، وقلن لها: يسلم فمك، كما قلن للست رفيعة - أم أحمد: عشت يا بطلّة.

ذاك النظام والجلال المهيّب لم يستمر إلا دقائق، لأن الجمهور المتفرج وقد أثر بفعل الكلمات والبيان البديع أخذ يتسرب إلى الموكب. بدأ التسرب ببضعة أولاد، ثم بضعة شباب، ثم المارة والبياعين ممن وقفوا خلف الموكب ومعهم بسطات فيها ترمس وفيها بليلة وكعك وبيض وجبن وفلافل، لحقوا بالركب واندسوا بين النسوة، فاحتدّ الشيوخ

وبدأوا يصرخون على المندسين: ارجع يا ولد، ارجع يا شاب، ارجع يا روجي ويا حبيبي. لكن الشباب، وكذا الأولاد والباعة، كانوا يشعرون أن الموضوع هام جداً، لأن الموضوع هو فلسطين وليس المرأة، وأن فلسطين هي أيضاً لهم كما هي للنساء، وصفّ الزعماء والخوارنة وشيوخ الأوقاف والأقصى. فأخذوا يهتفون: يسقط الانتداب. يسقط، يسقط. يسقط الاستعمار، يسقط، يسقط. عاشت فلسطين، عاشت، عاشت. فقال الخوري لشيخ الأقصى: هؤلاء الشباب فرطوا الموكب.

احتد الشيخ لأن الموكب صار بلا شكل، وبلا قيمة. فهؤلاء النساء، أفضل نساء في المدينة، بنات العائلات والأكابر، بنات الزعماء والقادة، بتن محشورات بين الأولاد والباعة وبسطات الفلافل والترمس، فما هذا الوضع! وما يدرينا ماذا يفعل أحد هؤلاء الشباب أو الباعة؟ يحشرون النساء، يصبصون على النساء، وقد يفعلها أحد الزعران وينكش واحدة أو يهرسها. والغريب في الأمر أن بعض النساء كن يبتسمن وقد كشفن الوجوه وهن يسمعن الهتافات والتعليقات وحاس الشباب والباعة ويشعرن أنهن فعلاً شيء عظيم كما لو كن هن القادة وهن من جنن بالاستقلال وحررن فلسطين من اليهود والاستعمار. فاشتد حماس شيخ الأقصى وأخذ يصرخ: ابعدي يا شاب. ابعدي يا ولد. لكن الشباب كانوا قد اندسوا في الموكب وما من قوة قد تمنعهم من المشاركة في هذا الموقف والحدث الهام. فعاد الشيخ إلى صف الرجال ونادى زملاءه في الأوقاف حتى يساعدوه في حفظ النظام. فانتشر هؤلاء على الجانبين يرجون هذا وينهرون ذاك حتى بُحُوا. وحين يئسوا من قمع الشباب انتفتوا إلى النساء وأخذوا يهبيون: غَطُّوا يا نسوان، غَطُّوا، غَطُّوا.

وحقيقة الأمر أن كل النساء أو معظمهن كن يغطين رؤوسهن إلا

قلة. المسيحيات بالبرانيط يغطين شعورهن بطريقتهن، والمسلمات، معظمهن، كن مغطيات بالمناديل والبونيهات والايزارات والمعاطف. وبعض النساء وعدد قليل من المتعلّقات جدا جدا، والمتقفات جدا جدا، ممن شاركن في المؤتمرات في مصر ولبنان وسوريا ورأين سفور المصريات وتحرر وأناقة اللبانيات، وعدن بأفكار غريبة عن السفور وحقوق النساء ودور المرأة، بدان يتمردن على الغطوة ويلبسن شيئا مختلفا اسمه بونيه. وفي ذاك الزمن، زمن البونيه، راجت شائعات وأقاويل حول البونيه والخلاعة وعهر النسوان، وما للبونيه من تأثير على عقل الرجل واتزان الرجل وحواس الرجل، لدرجة أن الزعران في الشارع وبعض المارة كانوا يغنون للمرأة ذات البونيه "أم البونيه رقاصة، بداها بمبه ورصاصة." لكن السفور كان قد بدأ المسيرة، على مضض، وبعدد قليل، وبعض الزعماء والقادة كانوا يؤيدون تلك الخطوة وبدأوا يمشون في الشارع مع نسوتهم المعتمرات ببونيه صغير أو يشمك، وبذا يتحدثون جو الشارع ومواعظ ولعنات الجوامع. والست رفيعة - أم احمد كانت تمشي مع زوجها منذ زمن قصير، ربما منذ شهرين أو ثلاثة، ببونيه صغير، وقد رفعت المنديل فوق الجبهة كممر مبدئي نحو السفور، سفور كامل. كانت قد أخذت إذن الرجل، أي زلمتها، وأقنعت أن المرأة بنت الأصول، بنت العيلة والأصل العريق، مصونة ومحمية بشرفها وتربيتها والعلم والفهم والفضائل، ولا بأس عليها، بل الواجب، أن تبدأ هي، بدون تردد، برفع الحجاب والتحرر، لأن الحجاب بدعة سخيفة، عادة مقيتة، موضة استعرناها من الأتراك زمن الأتراك وسفر برلك. وبما أن الأتراك رحلوا عنا، إذن الحجاب سيلحقهم. وبما أن أبا أحمد ذهب مع الوفد، وفد القادة، وشارك بمؤتمرات قبرص ولندن،

فقد اقتنع وأعطى الإذن لزوجته أن تنزع الحجاب خطوة خطوة، بدون تسرع، وتمشي قدما نحو السفور، بلا خجل، بدون تردد. ولهذا، فالست رفيعة - أم أحمد، حين رأت ما حلّ بالموكب وهيئته، وصياح الأولاد وهتاف الشباب والباعة، استاءت جدا واغتاضت، لأن البيان كان عظيما، وسير الموكب كان مهيبا، واحترام الرجال والقادة لدور المرأة، نشاط المرأة، وانضباط المسيرة والموكب، كل هذا الجهد يضيع هباء؟ كما أن المنظر من البلكون كان جميلا، يرفع الرأس، اهتمام الرجال ودموع النساء وخشوع المتفرجين والمارة، وحتى اليهود، والهستدروت، ورضا الحاكم، كل ذلك يضيع بفضل الأولاد وشلل الزعران! وتكون المحصلة النهائية ونتاج اليوم فوضى وتشتيت وخيبة نسوان؟ ماذا يقولون عما يحدث؟ غدا يقولون: مظاهرة النساء كانت فوضى، كانت مهزلة بلا قيمة. ثم الإعلام، والصحافة، ماذا يكتبون في جرائدهم؟ ماذا يقولون عن المرأة؟ والعروبة؟ ونظام اليهود، وانضباط اليهود والهستدروت والوكالة؟

اقترب شيخ شبه ضريع ممن يقرؤون على القبور وفي الموالد، وقال: غطّوا يا نسوان، غطّوا، غطّوا. فلكرت الست رفيعة زميلتها، وقالت بغضب: عجبك يا ست؟ قالت ليزا لتهدئها: خيرها بغيرها. صاحت بحق: أي غيرها؟ إحنا ما صدّقنا نجمهم. شو يقولوا اليهود؟ شو يقول الحاكم يا ليزا؟

اقترب ولد والتصق بها وشد ذيلها، وصاح بها: أم البونيه رقاصة. فمدت يدها بسرعة عجيبة وسحبته من أذنه وصفعت رقبتة، وهو يصيح: أذني، أذني. وهرب منها ووقف على الرصيف وهو يلعن ويفرك رقبتة وأذنه.

اقترَب الشيخ، وقال بهمة: غَطُّوا يا نسوان، غَطُّوا، غَطُّوا. فصاحت به: أَقْصِد يا شيخ وحل عَنَّا. لكن الشيخ لم يَحُلَّ عنها، بل أخذ يحوِّقَل ويترَحَّم على هذا الزمن وعهر النسوان، لأن المرأة في هذا الزمن، زمن البونية، صارت وقحة وقليلة دين. فنهزته ثانية وقد بدأت تهيج وتفقد أعصابها كالعادة: ابعِد يا شيخ، إحننا ناقصنا؟!

اقترَب أكثر وتماذى، وقال كلمات جَنَّتْها. قال وهو ينوِّس عينيه ويلوح بيده ويقف أمامها ويسد الطريق: بدِّل ما تدوروا في الشارع بلا حياء ولا دين روحوا انضبوا. ضبوا اولادكن وضبوا زواجكن وضبوا حالكن. روحوا انضبوا. وَأَنْتِ يا حُرْمة، غَطِّي، غَطِّي. والتفت إلى ليزا وحدَّق بها: وَأَنْتِ يا حُرْمة بالطاقيّة، روجي انضبي.

صاحت أم أحمد كالمجنونة: وكمآن بتقول الطاقيّة؟ أعطيه يا ليزا الطاقيّة خليه ينقعها ويشربها.

ابتسمت ليزا بحرج شديد، وهي ترى الموقف يتدحرج إلى مهزلة، فأخذت ترجوها أن تهدأ: يا أم أحمد، يا أم أحمد. والشيخ يصيح: غَطُّوا يا نسوان، غَطُّوا، غَطُّوا. فاعتزّضت طريقه وهي تلوح بيدها ووجهها يحمرّ: بتروح من هون والآ أفرجيك؟

رأته يحدِّق كالمصعوق والنساء من حوله يتغامزن والولد يصيح من فوق الرصيف "أم البونية رقاصّة" فشدت البونية عن رأسها ورمته على الشيخ فوق اللَّفّة. وكنوع من المؤازرة وشد الأيدي نرعت ليزا برنيطتها ورمتها على الأرض بدون تردد، وتبعته نساء أخريات ممن حضرن المؤتمرات وعدن ببونيهات ويشامك، إذ رمين المناديل على الأرض وفي وجه الشيخ. لكن الرجال هرعوا للخلف لاحتواء الوضع المتفجر إذ سحبوا الشيخ حتى لا يقال إن مظاهرة النساء انتهت بمهزلة وفضيحة.

وأبعدوا المارة والصحفيين ومنعوا المصورين من التقاط الصور، ولموا المناديل والبرانيط وكل البونيهات عن الأرض وأعادوها من حيث أتت، وقالوا للبعض ممن شاهدوا ذاك الموقف: ضبوا الطابق، انسوا الموضوع.

لهذا، حين حاولت بعض الباحثات بعد سنوات، ربما خمسين أو أكثر، نبش الموضوع وفهم ما حدث في ذاك اليوم لم يجدن أكثر من صورة، صورة وحيدة لنساء يقفن تحت البلكون، تحت الحاكم، بمعاطف جليلة ومناديل وبرنيطة.



صورة وحيدة لنساء يقفن تحت البلكون، تحت الحاكم، بمعاطف
جليلة ومناديل وبرنيطة.^٤

4 - الصورة من Before Their Diaspora للدكتور وليد الخالدي.

.....

النَّوَّارَةُ

لم تنم وداد في بيتها فجئ جنون الأهل. انزوت الأمّ في بيت وحيد وبدأت تندب. وحيد اكفهر وصمت صمتاً أبدياً وقاطع زوجته وأهمّل خاله. والخال أحسّ أنّه المسؤول عما يحدث، فذهب لبحث عن ابنه حتى يعاقبه. وحين لم يجده في أي مكان يعرفه أو يسمع عنه، سأل السائق، فقال السائق إنّهُ سمع من الناس أن ابنه يذهب يومياً إلى ملهى السلطنة كي يسهر. والسلطنة هي يهودية مغربية لديها بنات وطقش وفقش وموسيقى. فقال له: خذني إليها. فأخذه إليها ووجده هناك.

كان يجلس إلى طرف البار يشرب ويستمتع ويمزّمز. كان قد اعتاد ذاك المكان لأنّه يجعله ينسى نفسه وينسى ما حلّ بحياته. هو أيضاً تعيس وبدأ يتمرد على وضعه. زواجه القسري كان القطرة التي طفحت الكيل وجعلته يحسّ أنّه مُستغلّ ومُستعبَد. صحيح أن أباه كان يغرقه بفيض النعم، إلا أنّهُ بالمقابل أخذ رجولته وذكاءه. تعرّفه على بنات شالوم جعله في البداية يقارن بين هؤلاء البنات وأخواته، ثم بين هؤلاء البنات وبينه هو. فحين ناولته إستر ضربة كاراتيه جعلته يدور حول نفسه مثل اللولب ويسقط على الأرض مثل الميت، بدأ يتساءل بحسرة وحسد كيف أسقطته على الأرض بنت يهودية وهي لا أكثر من بنت، وهو رجل، وهو تربية السعودية! فكيف تتفوق يهودية على تربية السعودية؟! كيف تتفوق عليه بنت وهو الذي اعتاد أن يكون الأمير والنُّوّارة بين جوقة بنات! هو الوحيد بين خمس بنات، أي خليفة أبيه، أي زينة الدار وفخر العيلة. هو من أحس طوال حياته أنّه ولد، أي الجوهرة المكنونة، وهؤلاء البنات، يعني النسوان، يعني الولايا المستورات لا يأتمرن إلا بأمره وهنّ بحاجة إليه كي يسندهن ويحميهن ويجعل لهن قيمة وعزوة. حتى الأديان قالت هذا. حتى الشرع، حتى

القانون. لكن يبدو أن هذا الشرع وذاك القانون عند اليهود شيء آخر. بدأ يتساءل ويراقب. عرف أن بنات شالوم يركبن الخيل، وهو لا يركب. بنات شالوم يسبحن في البحر، وهو لا يسبح. بنات شالوم يلعبن تنس وكاراتيه وسكواش، وهو لا يلعب إلا الورق، ودوما يخسر. بنات شالوم تدرّبن على السلاح في كيبوتس عخشاف، وهو لم يلمس بحياته أية قطعة سلاح إلا سكين المطبخ. وحتى سكين المطبخ لا يعرف كيف يمسكها أو يستعملها، لأن المطبخ وفرم السكين شغل النسوان. أمّا شغل الرجل فهو المكتب وعمل الميناء وركوب البحر وحرث الأرض وبناء الدور وما شابه. لكنه للحق لا يعرف أيّا من ذلك. فماذا يعرف؟ لا يعرف سوى الجلوس في المكتب ومسيرة الزبائن، زبائن أبيه، والخضوع لأبيه وعاداته. صحيح أن أباه طيب وكريم ومسلم إلا أنه دقة قديمة، غير متعلم. وقياسا بزميله إسحق شالوم، بسيط وساذج. لكن هذا البسيط والساذج، الدقة القديمة المتخلف يتحكم به ويجعله يتنازل عن حقه في اختيار حياته وتصرفاته. يريده أن يكون نسخة عنه أو عبدا ذليلا لا يَأْتُرُ إلا بأمره. فماذا يفعل؟

قالت له سارة مرة: اترك شغلك. لاقى وظيفة. قال ليبرر خيبته أن ذلك غير ممكن لأن والده يحتاج إليه فهو وحيد. قالت ساخرة لتغيظه: لو بابا يعاملني بهذا الشكل أهرب وأرجع لكيبوتس عخشاف. فقال بسرعة: يا نَيَّالِك! ثم انتبه، وقال متراجعا: وأنا كمان يمكن أهرب. لكنه كان يعرف في أعماقه أنه لن يهرب ولن يتخلى عن وظيفته في شركة أبيه وعن منزلته كنوّارة بين خمس بنات.

وقف أبوه إلى جانبه وهو ساهٍ عن الدنيا. كان يدندن أغنية مصرية ويمزمز ويكرع الكأس ويقول "يا ليل!" فقال أبوه فجأة، بلا سلامات ولا مقدمات:

- ملعون أبوك! قاعد تتمزمز وتتنيز وتغني أمان ويا ليل ويا عين والدنيا مخسوفة على مرتك؟ قوم تحرك. فز، يا الله قوم.
التفت الشاب خوفاً من وصول صوت أبيه للزبائن أو للبنات والسلطانة أو لسارة التي وعدته أن تكون هناك ولم تحضر بعد. فقال لأبيه بصوت خافت:

- طيب، طيب، وطبي صوتك.
لكن صوته كان قد وصل وانتهى الأمر. فجاءت السلطانة تتبختر لترى ما الأمر فوجدت أبو رشاد وابنه رشاداً في وضع يقترب من الانفجار، فصاحت مرحة بعلو الصوت:

- أهلاً بالبيك، أهلاً، أهلاً. شرفت البار وأصحابه. خطوة عزيزة. خطوة مباركة. أنا من زمان كنت أستنى إنك تعطف وتشرفنا. هات يا موشي، كاس للأحباب. تشرب وسكي؟ تشرب بيره؟ اطلب طلباتك على كيفك. من يوم العرس (وأشارت إلى ابنه) ما شفناكم. معقول يا بيك نسيونا؟

انطفاً غضب الخال في الحال، ونظر إلى الست نظرة خجلة لأنّه بالفعل لم يتوقع أن يصل صوته إليها وينبهاها لوجوده في ذاك المكان، وهو الذي لا يرتاد البارات ولا يشرب. صحيح أنّه يقدم لضيوفه ما هب ودب من مشروبات ومزهزحات، إلا أنّه لا يشرب ولا يشم ولا ينسطل. هو يُكرم فقط، لكنه لا يتواطأ. كما أنّه لم يتعرف على السلطانة وجوقتها إلا في العرس. كانت قد جاءت مع شلة بنات، وكلهن يهوديات، وأحيين

الفواصل أثناء استراحات عبد الوهاب. وكن للحق مثل الملبّن، قشطة، زبدة، نور مشعشع من أفخاذهن وأثدائهن، فصاح الوجهاء والمدعوون: "الله أكبر!" وقد قيل له فيما قالوه: بنات السلطانة مثل اللوز، زي الملبّن. فقال لهم: كلوا وتهنوا. أمّا هو فلم يهنأ، لأنّه تربية السعودية وعيلة قحطان.

همس لابنه:

- كلّه منك!

ابتسم الابن وعرف أن الجو بدأ يصفو وأن مرّجل أبيه بدأ ينفس. فقال لموشي بلهجة حميمة، لهجة من يعرف أهل الدار:

- هات يا موشي، هات ليمونادة.

سأله موشي، وهو يغمزه:

- ليمونادة حاف؟

أجاب بنخوة، وهو ينظر في وجه أبيه متوددا:

- طبعا، طبعا، ليمونادة حاف. الوالد محافظ لا يشرب.

فصاحت السلطانة بصوت رنان:

- معقول يا بيبك؟

هزّ الخال رأسه، وقال معتذرا كما لو كان يعتذر عن إساءة:

- طبعا، سامحيني، لا أشرب.

قالت بدهشة ومرح زائد:

- معقول يا بيبك؟! لأ مش معقول! في العرس الويسكي كان أنهار

والليل نهار. يا سلام يا بيبك. أنا بحياتي لا شفت ولا سمعت. حتى

البنات قالوا فرحكم كان زي الحلم. الورد والبركة والأضواء والأكل

والمأزّة والكعكة والحلويات، شيء مش معقول! وفوق كل هذا عبد

الوهاب! يا سلام يا بيبك. يدوم العزّ يا أهل العزّ، يا أهل الكرم، يا أهل الذوق، لكن قل لي، كعكة العرس والبط والحمام والجبنة القريش أكيد من مصر. صح وآلا لأ؟

قال باعتزاز، وقد بدأ يلين وينسجم مع الموقف والإطراء:
- صحيح من مصر.

قال رشاد مؤكداً كلام أبيه كي يكسب رضاه:
- فعلاً من مصر. الوالد ما ييحب إلا الغالي، لأنّه غالي وكريم وذوق. مذوق وفنان يفهم بالأكل ويفهم باللبس ويفهم بالفن. حتى صوته لما يغني مثل عبد الوهاب ويمكن أحلى.

حدج الخال ابنه مبتسماً، وقال مهدئاً:

- بس يا ولد، عيب، تواضع، بلاش فضايح.
فصاحت السلطانة معاتبة:

- أي فضايح؟ الفن والطرب صاروا فضايح؟ لا يا باشا، لا يا حبيبي. هات يا موشي، أعطيني كاس وأعطي الباشا وخلينا نسمع ونسلطن. والتفتت إلى الابن، وقالت بمرح:

- آه يا ملعون، فهمنا السر، هذا الصوت أبا عن جد! هات يا شمعون، أعطيه العود خلينا نسمع.

وبلمح البصر انتقل العود إلى رشاد فحملة وانسحب عن البار وجلس إلى طاولة قريبة وبدأ يندندن أغنية كان والده يحبها حبا جما ويدندنها، وهو يخلق:

يا غصن نقا مكللا بالذهب أفديك من الردى بأمي وأبي
إن كنت أسأت في هواكم أدبي فالعصمة لا تكون إلا لنبي
انفعل الأب، وقال بدهشة:

- وَاَلَمْ يَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَشَارَ لِلتَّخْتِ فِي الْجَهَةِ الْمَقَابِلَةِ، فَاَنْطَلَقَ الْعُرْفُ وَارْتَفَعَ

صَوْتُ السُّلْطَانَةِ تَرَاثُفَهُ الْغَنَاءُ. وَوَجَدَ الْخَالُ نَفْسَهُ فِي مَوْقِفٍ غَرِيبٍ لَمْ يَتَوَقَّعْهُ، فَبَدَّلَا مِنْ أَنْ يَجِرَ ابْنَهُ وَيَسْحَبَهُ مِنْ أُذُنِهِ كَمَا كَانَ يَتَوَعَّدُ، هَا هُوَ الْآنَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَعْزِفُ عَلَى الْعُودِ. فَكَيْفَ بِاللَّهِ يَحْدُثُ هَذَا؟ ابْنُ التَّيْسِ، ابْنُ الْكَسُولِ، ابْنُ الْحِمَارِ يَعْزِفُ عَلَى الْعُودِ؟ شَيْءٌ مَذْهَلٌ! إِذْنِ الْحِمَارِ لَيْسَ حِمَارًا، لِأَنَّهُ بِالْفِعْلِ يَعْزِفُ عَلَى الْعُودِ. فَالْتَفَتَ لِمَوْشَى جَرَسُونِ الْبَارِ، وَقَالَ بَدَهْشَةً وَفَرَحٍ مَكْبُوتٍ:

- يَعْزِفُ عَلَى الْعُودِ!

أَشَارَ مَوْشَى لِلْسُّلْطَانَةِ، وَقَالَ ضَاحِكًا:

- هِيَ عَلَّمَتْهُ.

فَهَزَّ الْأَبُ رَأْسَهُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ، وَهَمَسَ بِإِعْجَابٍ: "مَا شَاءَ اللَّهُ!

26

لم يكن الشاب غيباً مثل أبيه وأخواته لأنه ورث أمه، لكن الدلع أفسده وجعله يهيم على وجهه. وهو بذلك كان ضحية كما كان أبوه. أبوه لم ينل من التعليم ما يعوضه عن الغباء والبساطة، والابن نال من الدلع ما جعله خرقة مرققة بدون صلابة وبدون أساس لعمل نافع. لكنه في أمور الهزل والفكاهة وعمل المقالب وحبك النكات كان لمّاح الذكاء وخفيف الروح، بل كان بظرف الريحاني ملك الفكاهة في ذاك الوقت. ولهذا أحبته سارة وأحبته البنات.

علاقته بسارة بدأت كنوع من المزاح أو النكتة. بدأت بموقعة الحمار وتلتها وقائع أخرى. كان يراها فتنهمر النكات من فمه كسيل رقراق. يبدأ بتقليد أبيه ثم أبيها ويجعل من الواحد كاريكاتيراً شبيهاً بالأصل. وكان يعدد لها مناقب أبيه وأبيها خصلة خصلة. وكلما زاد كبته في الشغل أو حقه على أبيه بسبب زواجه وقمع رجولته ونزواته زاد غلوا في عمل المقالب وابتداع النكات. كان يعبر عن ثورة غير ناضجة انعكست بأعمال صبيانية تلائم مزاج البنت الميالة للمرح والشقاوة وحب الحياة فانسجمت معه. وحين أخذ يقلد زوجته وحامته ووضعها في البيت كزوج مغلوب على أمره بشكل مسخن حزنه عليه، وقالت جملتها الشهيرة: لاقى وظيفة! انهار عليها بسيل النكات وجعل من المأساة أضحوكة. جعل من الجلسة الحزينة نزهة ممتعة تتخللها النكات والتمثيلات والمقالب. لهذا اجتمع حوله أصحاب المزاج وبنات اليهود،

وصار الملك المتَّوجَّ لتلك الشَّلَّة. ما ساعده على اجتذاب هؤلاء هو خفة روحه ومزاجه الضاحك والمال الكثير.

كان يغدق على الجلسة الواحدة ما يكفي عائلة بأكملها عدة أشهر. فأخذت الفتيات يتسابقن على كسب وده رغم شكله السقيم وضخامة أنفه. لكن المال يحلِّي القبيح، وخفة الظل تعوِّض عن سخف المضمون. فاعتادت سارة على رفقة وجلساته ودخلت في السبق مع فوج البنات لتحفظ به رغم زواجه. وهكذا عرف الجميع أن رشاد قحطان واقع في البنت اليهودية ابنة شالوم.

سمع شالوم أن ابنته تعاشر الولد الرقيق المتزوج رشاد قحطان. وبما أنه تربية عرب، فقد أخذ يلاحق ابنته ويحذرها ويهددها ويتوعدها أو يتودد لها حتى سئمت وتركت البيت وعادت لأمِّها في كيبوتس عخشاف. هذا إذن أصل القصة. وهذا بالطبع أدى إلى فضيحة مزدوجة، فالمسلمون يتحفظون من اليهوديات لأنَّهن - كما هو شائع - نساء مفضوحات بلا أخلاق ولا عفة، يصلحن للعشق ولا يصلحن للزواج والأمومة. لهذا كان العربي يدور ويلف ويعشق ويتمعشق على كيفه ويحتفظ بمحظية يهودية في مكان ما، يفتح لها بيتا، يشتري لها شقة، أو يزورها في مكانها كما يحلو له، لكنه عند الزواج يعود ليتزوج من ابنة عمه أو ابنة خاله.

واليهود أيضا يتحفظون من العرب، لأن اليهود صنف أرقى، دين أسمى، شعب مختار. كما أن العربي عينه زائغة يستعمل المرأة ويقذف بها أو يتزوج عليها ويبقيها كأم للأولاد فقط لا غير. وبما أن اليهود القادمين من دول الغرب جاءوا بأفكار حديثة حول المرأة والجنس والمدنية، فقد نشروا تلك الأفكار بين اليهود الشرقيين الذين كانوا ما زالوا يتمسكون بمفهوم النكاح من خلف ستار، والاشمئزاز من

نجس الخيض، والاستعاذة من المرأة لأنها مخلوق أدنى وأحقّ لدرجة أن الرجل يستيقظ صباحاً على صلاة شكر للمولى لأنه خلقه على صورة ذكر. المهم في الأمر أن هؤلاء اليهود من دول الغرب مدنوهم ورقوهم وقالوا لهم إن المرأة لها ما لهم، بدليل أنها قادرة على حمل السلاح والعمل في الكيبوتس والاستفادة من غياب العرب.

كل هذا وذاك جعل اسحق شالوم يفقد عقله حين وصلت إليه حكاية ابنته مع رشاد قحطان. كما أن الخال جن جنونه لأن علاقة ابنه بتلك الفتاة اليهودية قد تدمر زواج ابنه وزواج ابنته وتجعل سمعته مثل الزفت. فماذا يقولون في نابلس؟ ماذا يقولون في الكرمل ووادي النسناس؟ ماذا تقول أخته زكية؟ ألن تبدأ بالنقيق ضد ابنته وتوغر صدر ابنها ضد امرأته حتى تنتقم لابنتها؟ كما أن زواج ابنته لم يثمر بعد، فهي لم تحمل رغم مرور عدة أشهر. وهذا أيضاً سبب آخر يحسب له مليون حساب. فماذا يفعل سوى أن يلاحق ابنه ويشكم أنفه ويتعاون مع شالوم في التصدي لحب ممنوع؟!

27

صعد الأدراج نحو الطابق العلوي وطرق الباب فقابلته الصغير بعينين مخفقتين. قال إن الأم راقدة في الفراش، وأنها مذ اختفت وداد والطبيب يحقنها بالإبر، ووحيده ترك زوجته وأشغاله والتصق بها. سأله وهو يحدّق في وجهه: عرفت عن وداد؟ وما كاد ينهي السؤال حتى رأيا وحيداً والطبيب يخرجان من غرف النوم ويتجهان نحو الباب، فلحق بهما، بينما هرع سميح إلى أمه.

قال وحيد، وهو يلهث: الجو خانق. يا الله نمشي. فنزلا الأدراج بصمت ووجوم. كان وحيد ما زال مأخوذاً بانهيار أمه فظل صامتا ينظر أمامه ولا يلتفت إلى أخيه حتى وصلا كورنيش البحر. وقفا أمام الأمواج والعتمة، وقال بتجهم ووجهه مشدود نحو البحر:

- هذا الزواج كان لعنة.

ظل الآخر صامتا يفكر بما عساه يقول عن وداد وكيف رآها مع ليزا في مظاهرة النساء. وفيما هو يفكر كيف يبدأ، وإذا بأخيه يهمس كما لو كان يخاطب نفسه:

- ما عدت أطيع.

قال الآخر مهدئا وهو يتحين الفرصة لمفاتيحه:

- بكره تفرج.

التفت إليه، وحدّق في وجهه بشكل غريب:

- وكيف تفرج؟ قل لي يا شاطر كيف تفرج؟ الوضع رهيب، أملك وخالك ورشا الهبله، أغبى مخلوقة في العالم، واليوم وداد. هذا في البيت، أما في الشغل فالوضع مخيف، جو مرعب. ما عدت أطيع. طيّروا عقلي. نابلس أرحم.

لم يعلق، فالتفت إليه، وقال وهو يحدجه بنظرات غاضبة كما لو كان هو المسؤول عن الجو المخيف واختفاء وداد وغباء زوجته وسوء اختياره:

- ما عدت أطيع. الشركة وخالك وبنت خالك يروحوا يغوروا. أنا مالي وماهم ومالهم؟ يروحوا يغوروا. وأملك كمان، تروح تغور. لم يصدق ما سمعه. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها أخاه يخرج عن طوره ويثور على أمه ويتمرد.

- مالك؟ مستغرب؟ مش مصدق؟ طبعاً، طبعاً، لأنني عودتكم على وحيد حمّال الأحمال وحمّار الشغل؟ يا أخي انفلقت. حلّوا عني. ارحموني. وأجهدش بالبكاء وهو يبتعد عن أخيه مسافة خطوات، فبقي الآخر جامداً في مكانه غير مصدق ما تراه عيناه وما تسمعه أذناه، لأن المفاجأة كانت أكبر من أن تصدق. وحيد الهادي، وحيد الرزين، وحيد الجبار يفقد رشده؟ كانت تلك هي المرة الأولى التي يراه فيها فاقداً لتناسكه ورباطة جأشه.

جلس وحيد على مقعد حجري، فجلس أمين بجواره دون أن يتفوّه بأية كلمة. بعد فترة صمت، قال وحيد وكأنّه يخاطب نفسه:

- أنا نصاب. أنا كذاب، أنا منافق. أنا أكرهكم وأكره حالي. أكره وداد وأكره رشا وأكرهك أنت، أنت بالذات، أنا أحسدك. أنت حرّ، لا هم ولا غم ولا مسؤولية. أنت بدروسك ومدرستك. أنت الذكي، أنت الشاطر. أنت الفيلسوف المثقف والمتعلم، وأنا حمّار الشغل. وأنا صغير حملت شوالاً على ظهري حتى تعيشوا. ولما كبرتوا صرت السوّاق، يعني الشوفير، يعني عامل. دخلت السوق وأنا ولد صغير وصارعت الدنيا وصارعت الناس. ولما تزوّجت، تزوجت لكم، يعني لأمك، يعني لأختك، يعني لخالك وبنت خالك والعيلة. واليوم، ضاعت وداد، ومرضت أمك وأنا المسؤول. أمك تقول أنا المسؤول. أسألها كيف؟ كيف أنا مسئول؟ تهمهم وتبرطم، وتقول كلمات مش مفهومة. تقول لي بلؤم: "أسأل أمين." أسأل أمين؟ طبعاً يا سيدي، يا متعلم، لأنك فهمان وأنا الجاهل. أنت الفيلسوف المثقف. تفضّل علّمني يا متعلم. مالك ساكت؟ مش عاجبك كلامي يا خواجه؟ مش عاجبك تسمع أسرارتي؟ كان من زمان لازم أحكي. بس كنت أخاف أحكي

وأغلط. لكنني غلطت. هذا الزواج أكبر غلطة. ولما صحيت لقيت نفسي في قفص مخيف وشركة رهيبة. خذ، تفرّج. ومد يديه إلى جيبه وأخرج باليمنى مسدسا وبالأخرى حفنة رصاص كحبات الفول وهمس في وجه أخيه، وهو يحملق كالمجنون:

- شايف هذا؟ مثل هذا ألوف. صناديق سلاح كتبوا عليها قابل للكسر. انكسر صندوق بالصدفة، واكتشفنا رصاص ورشاشات وأشياء عجيبة وغريبة. واحد عامل فهم الموضوع وفهمني. إسحق شالوم، هذا المقصود: إسحق شالوم.

سأله بذهول:

- طيب وخالي؟
- خالك مسكين زي الأهل. والأدهى والأمرّ أن العامل قال للعمال،
٣ عمال، وبعد يومين طلبوا مني اسكت على الوضع وأتعاون.
صاح بذعر:

- تتعاون مع يهود؟
وضع يديه المليئين على صدره:

- أنا مع يهود؟

- إذن الثوار؟

لم يجب.

- والانجليز؟

أطلق قهقهة ساخرة ولم يعلق.

- ورشاد يعرف؟

- رشاد لا صاحي ولا واعى.

- طيب وأنت؟

- في مهب الريح. تسريب وتهريب، ابتداءً بحفنة من هنا، وقطعة من هناك، ومع الوقت ازدادت الطلبات وأنا أغطس أكثر وأكثر.
- وإذا انكشفت؟
- بستين داهية.
- وسأل بسخرية ومرارة:
- شايف هَمِّي؟ هذا هَمِّي. وجاي تقول لي بكره تفرج؟ وكأن المسألة هروب وداد ومرض أمي. تغور وداد، وتغور أمي، ويغور خالي، وتغور أنت. يا أخي حلوا، حلوا عني، اعتقوني!

28

بات أمين مشدودا بين قطبين. أخوه في فخ، وأخته في فخ وهو حائر بين الاثنين. أيهما أصعب حالا، وبأيهما ينشغل الآن؟ لم يتردد طويلا واختار أن يبدأ بوحيد.

ذهب إليه في الميناء ووجده بين العمال يأمر هذا وينادي ذاك بين مراكب تحمّل صناديق البرتقال وتنك الزيتون وبعض الركاب. إذن هنا يحدث كل هذا، صناديق سلاح، تهريب مواد، تهريب يهود وتغيير ملامح فلسطين.

رآه وحيد، فوقف مستطلعا مندهشا. كانت هي المرة الأولى التي تطأ فيها قدما أمين مكان عمله. طوال عمره بين الكتب. طوال عمره كان نظيفا وكان الآخر بالأفروهل ورائحة الكاز.

استقبله بفتور وتشكك:

- خير إن شا الله؟

أحس بحماسة يتبخر. فماذا بقول حتى يواسيه؟ سأله إن كان باستطاعته أن يتحدث، فقال ساخرا:

- تفضّل، تحدث على كيفك.

ومدّ يده إلى جيبه لظنه أن أخاه جاء ليطلب منه - كالعادة - مصروف الكلية وسكن الطلاب. أحس الآخر باللّطمة فانبجست من عينيه طبقة رقيقة جعلته يرى العالم من خلف ستار. لمح وحيد الدموع، فتراجع وقال برقة:

- طيب تعال.

ومشى أمامه. مرا برفوف وصهاريج وعربات نقل وموتورات وسقالات وبعض العمال، وزكمت أنفه رائحة النفط والشحمة، رائحة اعتادها منذ الطفولة، رائحة وحيد.

دخلا المكتب، مكتب رجل يعمل بالحديد والميكانيكا. عفش من حديد مكسو بجلد بني مسود اللون، ورفوف رمادية متسخة ببقع الزيت والشحم والغبار، وملفات قديمة حائلة مهترئة ونسخة لقاموس صغير عربي - إنجليزي.

جلس وحيد وراء مكتبه، وقال: تفضّل. فبقي الآخر واقفا مترددا لا يعرف كيف يبدأ. تأمل ارتبأكه فابتسم، وقال وهو يشير إلى المقعد وما زال في وضع المتهمك:

- اقعد، خايف على مقعدتك، مسحناه الصبح.

قال بغصّة:

- أرجوك، أرجوك.

راه متأثرا، فقال برأفة:

- طيب اقعد، أنا متأسف.

اندفع أمين، وهو يتأتى:
 - أنا متأسف. حقت وأكثر أن تكرهنا. كنا عبثك، وهو عبء ثقيل.
 لكن لا ذنبي ولا ذنبك. هي الظروف. مات الوالد وأنت استلمت عن
 الوالد. بالنسبة لي أنت أبونا وأنت أخونا وأنت رب البيت ولولاك أنت
 لمتنا من الجوع. لولاك أنت ...

قاطععه بأسف مشوب بالحزن:

- اسكت، اسكت. كل اللي قلته ونعفته كان فشة خلق، كنت متضايق.
 واتكأ بكوعيه على مكتبه، وهو يضم يديه إلى صدره، ويقول بجدية
 وصوت هامس:

- اسمع يا أمين. لازم أقول حتى تفهم. يمكن بفهمك وبعلمك
 وقرءاتك تضحك علي، لكن اليوم لازم تفهم. اسمعني بس، ما
 تقاطعني، اسمع وافهم لأنك بعدي أنت المسئول. أنا يا أمين أعترف
 لك أي أحيانا أحس بأني مظلوم، لكن في كل مرة أحس بهذا أذهب
 للحمام لأصلي وأدعو الله أن يصبرني فأحس بالهدوء وأرجع للدار وأنا
 واثق من خطواتي. وتكون أمتنا فوق الماكينة، ورقع القنابيز، فأبوس
 أيديها وأطلب منها أن ترضا علي وترشدني، لأنها قوية وجبارة، أقوى
 مني. أمي حملت همي وهمك وهم الجميع. لولاها هي ما كنت أنت
 في الكلية، ولا كنت أنا مسئول كبير بشركة خالك، ولا كان زواجي
 وزواج وداد.

قاطععه أمين بسرعة واضطراب:

- ولهذا تكرهها وتكرهنا.

ضرب صدره، وقال بذعر:

- أنا أكرهها؟! معقول يا أمين أكره أمي؟ كل ما قلته كان فشة خلق.

أنا لا يمكن أكره أمي.

قال الآخر متأملاً:

- بعض الأحيان أنا أكرهها. هذا طبيعي، سمعت عن فرويد؟
- لم يجبه بل حدّق متسائلاً، فقال أمين مفسراً:
- عالم نفساني بفهم الناس وأسرار الناس.
- رفع يديه الاثنتين وهزّ رأسه:
- اسمع، اسمع، لا تتفلسف. النبي قال: أمك، ثم أمك، ثم أمك.
- أمك يا أمين بالنسبة لي رمز الإيثار والمحبة ونكران الذات.
- علق الآخر بنقمة وسخرية جارحة:
- يعني أمك ملاك؟!!
- اسكت، اسكت. طوال عمرك تتفلسف. طبعا ملاك؟ هذه أمك!
- ولو كانت أمي، هي غلطانة. لولاها هي ما كنا الآن في هذا الفخ،
- وبالذات أنت. حياتك يا وحيد أهم من أمك وشركة خالك.
- ابتسم ابتسامة صفراوية ساخرة، فاندفع يحاول إقناعه:
- حياتك أهم. لا شيء أهم من حياتك؟
- لا، فيه أهم.
- أهم من حياتك؟
- طبعا أهم.
- وما هو الأهم من حياتك؟
- إيماني.
- أي إيمان؟!!
- أياني بالله ورسوله. إيماني بدوري بالحياة وبنصيبي. هذا نصيبي.
- هذا قدرتي. هذا مكتوب.

- أي مكتوب وأي نصيب؟
- يعني زواجي، يعني خالي، يعني الشركة.
- لكنك قلت....
- كنت مرتبك بسبب الضغوط ومرض أُمي. لكن اليوم أنا صاحي.
- اليوم الصبح صليت ودعوت وطلبت الرحمة من ربي. قلت له: يا رب،
- بجاه النبي وملائكتك، بجاه الأنبياء والمرسلين أنر طريقي وأرشدني
- لما فيه الخير، ابعث لي بنور وبإشارة. وإذا بالشيخ، شيخ الجليل، هو
- بذاته، بلحمه وشحمه، ينزل من الجبل ويقعد قدامي، مكانك بالضبط،
- ويقول لي أحلى الكلام وأحلى إشارة. قال لي: أنت يا وحيد بتّ منا.
- صاح الآخر:
- عن أي شيخ تتكلم؟
- ابتسم برأفة وتسامح وكأنّه يتكلم مع طفل أو معتوه:
- شيخ الجليل، شيخ الجبل وشيخ الجامع، هو قائدنا، هو مرشدنا
- لطريق الخير، هو فسر لي وقال قدرنا، قدر مكتوب، قدري وقدرك.

29

كان ينعت أخاه بالولد النظيف والمفلسف، لأن الآخر تعلم واحتضن الكتب وظلّ هو بالأفروهل ورائحة الكاز، وكأن الشحمة ورائحة الكاز هما قدره. حتى يدها كانتا بلون أغمق وتحت أظافره حروز سوداء لا تنظف مهما فركها. حين يغسل يديه ينزل منها ماء أسود بلون القطران ولون الصابون يصبح معكورا، بسبب الزيت والقطران،

فيضطر لغسلهما بالكاز ثم بماء ساخن حتى يتمكن من رغي الصابون. طقوس التخليط ورائحة الكاز كانت همّة، أحد همومه، وحزوز أظافره السوداء تحجّله وتزيد تناقض إحساسه.

قبل زواجه كانت الأم تنقع ملابسه بالكاز، فتظل الرائحة الحريفة عالقة في ثيابه مهما استحتم ومهما تعطر. أيام الجمعة حين يذهب إلى الصلاة كان يلبس ملابس نظيفة ويتعطر أكثر مما يجب حتى يخفي رائحة الكاز. يلبس قميصاً أبيض وبنطلوناً مكويًا وحذاءً جلدياً أبيض مثل حذاء عبد الوهاب ويدعك شعره بالبريل كريم حتى يبدو كعبد الوهاب. كان يحب عبد الوهاب ويجب أن يبدو مثله. كان يحب صوته وغناؤه ويتمنى لو يغني ويعزف مثله. ورث الموهبة عن الوالد فكان يعشق الموسيقى ويطرب للغناء وصوت الآذان. كان يغني بصوت خفيض وهو يغسل يديه كل ليلة. غسل اليدين من الزيت والشحم كان يستغرق وقتاً طويلاً يصرفه بالغناء، فتبتسم الأم، وتقول له: الله الله! صوتك بالضبط مثل صوته، لكن يا خسارة على القانون. آه يا حسرة!

كانت تتحسّر على القانون لأنّه مخبوء فوق الخزانة في كيس قطني كالح يكسوه الغبار. تنزله أحياناً لتنفض كيسه ثم ترجعه إلى مكانه كذكرى لأيام المرحوم الذي كان يملأ الدار بأنغامه ومواويله. تقول له: أنت مثله. صوتك مثله. حبك للغناء والموسيقى، وتقّي وكريم وروحك حلوة وقلبك طيب. خذ القانون، خليه عندك، لأن أمين لا عنده مزاج ولا عنده صوت.

أخذ القانون وخبأه تحت السرير على أمل أن يتمكن يوماً من أخذ دروس في الموسيقى تعلّمه العزف، وظلّ هناك طوال سنوات ولم يعزف لأنّه لم يتعلم. لم يجد الوقت ليتعلم، لا الموسيقى ولا اللغة الانجليزية كما تمنى.

وحين تزوج وأصبح مسؤولاً في الشركة وأصبح لديه الوقت والمال حاول أن ينتسب إلى معهد يعلمه الانجليزية حتى يصبح مثل الوجهاء، لكن مشروعه لم ينجح. كان لا يميل إلى الدراسة ويملّ سريعاً ويتعثر في القراءة فيخجل ويأس ويرمي الكتاب، ويقول بسخرية ضاحكة: بعد ما شاب ودّوه ع الكتاب. فتقول الأمّ مواسية: أنت موهوب بالموسيقى وأخوك بالكتب والدراسة. تراه يتسم بحسرة فتقول مشجعة: أمين ما عنده صوت مثلك، صوتك أحلى. فيبتسم ثانية ساخراً إذا ما نفع الصوت إذا لم يستعمله كعبد الوهاب؟ عبد الوهاب نجم مشهور أما هو فعامل متواضع بالأفرهول.

عبد الوهاب كان مثاله بالشكل والغناء وحب النساء. يذهب إلى السينما ليشاهده ويسمعه ثم يقلده. وكان يحب تعليق رشا: أنت مثله، الخالق الناطق مثله.. فيتشجع، ويضع مزيداً من البريل كريم ويقلب شعره، ويفصّل بذلة بيضاء كعبد الوهاب، ويضع في عروته وردة بيضاء ثم يذهب إلى المعهد ليتعلم عزف البيانو بدل القانون، لأن عبد الوهاب في آخر فيلم كان يعزف على البيانو وخلفه نساء جميلات بالديكولتيه يغنين ويتميلن وهو يغني: "يا دنيا يا غرامي"، فيحس بخفقان في قلبه ويزداد اجتهاداً على اجتهاد لكنه لا ينسى الصلاة.

أما كيف اجتمع ذاك المزيج من حب الغناء والموسيقى وأجواء الطرب والتدين، فهذا ما لم يجد تفسيراً له. يحب الله ويصلي ويصوم ويزكي، ولا يدع فرضاً يعتب عليه، وفي الوقت نفسه لا يدع فيلماً لعبد الوهاب دون أن يراه مرة واثنين وثلاثاً حتى يحفظه ويحفظ الحوار والمشاهد والأغنيات. حين شاهد عبد الوهاب يعزف على البيانو نسي القانون كلياً واشترى بيانو من الفريدو، وطمّن طنّ عليه عدة مرات وأخذ

دروسا فيه ثم هجره، لكنه ظل يغني وهو يغسل يديه كل ليلة ويتحسّر لأنّه لم يتعلم ولا يعرف الانجليزية مثل الوجهاء. ربما لهذا السبب أعجبه رشا في البداية، فهي غير متعلمة وهو غير متعلم، وهي بسيطة طيبة القلب وهو طيب، وهي كذلك لا تعرف الانجليزية وبالكاد تعرف العربية، وهو كذلك لا يعرف الانجليزية لكنه يعرف العربية ويحس أنّه يتفوق عليها فيقرأ لها الجريدة، فتتظر إليه أكثر مما تسمع وتقول له بحب وإعجاب: نيالك يا وحيد، تقرأ الأخبار مثل الراديو. فيبتسم بكبرياء وكأنّه لا يسمعها. فتقول له وهو يقرأ عن الانجليز والثوار: قالوا أنا بشبه أثمهان؟ (أسمهان) فيهزّ رأسه ويواصل. تقول ثانية بملل: أقرأ عن الثينا (السينا) وعن أخبار فريد الاطرش (الأطرش). فيقول بجدية تشبه جدية المثقفين: فريد الاطرش؟! ذوقك عفشكا يا بنت خالي. فتقول بدلال: طب أثمهان؟ وتحقق في وجهه كي يرى كم باتت تشبه أسمهان بعد أن رفعت حاجبيها ورفعت شعرها بشكل شنيون ورسمت شامة على جانب ذقنها. فينظر إليها بحب وإعجاب ويقول لها: أسمهان حاجة ثانية. اسمعي، اسمعي، فيه فيلم جديد لعبد الوهاب يا الله نروحه. فتقول بحماس: يا الله. فترمقها الأمّ شزرا وتقول بغیظ: كل يوم والثاني على السينا؟ يا مثبت العقل والدين! وين راح إيمانك يا متدين؟ فيقول لها وهو يضحك: موجود، موجود. يراها جامدة وقد لوت فمها وعقدت حاجبيها، فيقول مطمئنا: ساعة لقلبك، وساعة لربك. فلا ترد. يقول لها: خلص يا أمي نسيت حالك؟ بزمانك كنت تحبي الكيف والغناء والرقص والاستقبال. كيف نسيت؟ فبتسم خلصة ولا ترد عليه. لكنها في اليوم التالي تعود لتردد نفس العبارات: يا مثبت العقل والدين، كل يوم والثاني على السينا!

وفي يوم اشتكى لأخيه، فنصحه الثاني بأخذها إلى السينما حتى يضمن راحة باله. أخذها إلى السينما رغما عنها. لم يرغمها لكنه سائر تمنّعها وحلف عليها أغلظ الإيمان كي يرضيها ويجعلها تحسّ أنّها لم تكن مبادئها وأنّها لم تبدل موقفها إلا بسببه. فقالت بدلال: الله يسامحك. معقول واحدة كبيرة مثلي تروح السينما؟ قال مؤكدا: طبعا معقول. لكنه كان خجلا من منظرها بتلك الغطوة التي ظلت متمسكة بها رغم اختلاف مواقعها، ولم تصغ إلى إلحاحه وهو يحاول إقناعها بأن حيفا مختلفة عن نابلس، وأن رواد السينما - خصوصا بالليل - من عليّة القوم والمتفنين والمتفرنجين. وحين لم تصغ إلى نصحه حجز بنوارا خصوصيا، ودعا خاله وبنات خاله وأخذهم جميعا إلى السينما، فملأوا البنوار. وفيما هم يستعدون لتلك الحفلة أقامت الأمّ حفلة مشابهة في المطبخ، فأعدت أقراص السبانخ والكُبة وطلبت من وحيد أن يحضر كيلو مكسرات وبذر بطيخ. وكانت وداد تروح وتجيء وترى الاستعدادات على قدم وساق، فتقول بغیظ: كأنكم رايمين على جنازة. تقول رشا لتكايدها: هذا من غیظك ومن كيدك. تقول الأمّ وقد أكلها قلبها على ابنتها: اسكتي يا رشا! لكن رشا الغيبة لا تسكت، بل تنظر إلى الأخرى بحسد واضح لأنّها حبلت ولم تحبل هي، وتقول لها: خليك بحبلك أحسن لك. تقول وداد بحسرة وغضب: لو كان أخوك بني آدم لأخذني معكم على السينما. تقول الأمّ مهدئة: بلا سينما بلا قرف بلا حكي فاضي. عظيم يمين لولا أخوك حلف عليّ ما أروح السينما ولا أدخلها. يهمس وحيد في أذن الأمّ: يمم ممكن وداد تيجي معنا؟ فتهمس الأمّ زاجرة: من غير زوجها؟ لأ يا ابني. لأ، مش ممكن. تسمع وداد أطراف الحديث فتحمرّ وتصفّر وتخرج من الشقة وتخط الباب. وفي ثاني يوم تجيء من

الصباح لتسمع ما قال فلان وما قال علان وقصة الحب بين عبد الوهاب ورُقِيَّة إبراهيم وكيف قال لها حين فتحت فمها ورأى الأسنان: أنا مش شايف غير صفين لولي، وتبدأ بتخيل ذاك المشهد كأنها حضرته وتسرع إلى الراديو، لتسمع الأغنية وتستحضرها في مخيلتها كما صورتها رشا وتعيش الحلم، وتتمنى أن يأتي يوم ويأخذها ذاك الغائب في يوم ما إلى السينما. لكن الغائب لا يحضر، واليوم المرتقب لا يتحقق، وتظل أمانيها في علم الغيب. وهذا ما زاد بؤس شابة لم تذق الحب وظلّت نكرة من قبل الأهل ثم من الزوج، وظلّت جائعة إلى الاهتمام والعواطف، حتى انفجرت وهربت من جو ترى فيه الناس يحبون الحب والطرب والكيف ويذهبون إلى السينما، وهي في السجن تنتظر الزوج.

وفي يوم ما فتنت رشا لأخيها رشاد ما أفلته وداد حين قالت: لو كان أخوك بني آدم لأخذي معكم للسينما. فقال لها: خذي يا اختي. وناولها ورقة العشرة جنيهاً، وقال لها: خذيها للسينما بعد الظهر وقت النسوان. أخذتها بعد الظهر أول مرة وثاني مرة وثالث مرة، وبدلاً من أن تكفّ وداد عن التذمر ازدادت نقمة وازدادت حدة وأخذت تردد كالمسحورة: معقول فيه حب زي السينما؟ معقول فيه حب؟ ترد رشا: طبعاً فيه حب. وتبدأ بوصف مشاعرهما، وما قال لها وما قالت له ثم الأوضاع. وتصف لها بدقة شديدة ما فعل هو وما فعلت هي، ثم الصور والمجلات التي أحضرها رشاد من عند اليهود وأعطاها لوحيد كبادرة محبة وصداقة، ولكي يرشوه حتى يسكت عن ظلم الأخت، لكن رشا تُسرّ لوداد ما يخفيه وحيد، فتزداد نقمة وتشعر بالقهر والخيانة، لأن أخاها يعيش حياته ولا يسأل عنها ولا يأبه. فانتحت به جانباً في يوم ما، وقالت له بقلب مغلول ما فعل رشاد وما سوى رشاد كما أشارت

بلؤم إلى الصور والمجلات حتى تنخره وتسمّ بدنه وتشعره بالذنب، وهذا ما حصل. إذ عاد مساء ممقوتا واتجه إلى الصور والمجلات ومزقها وتوضأ وصلى واستغفر ربه. وطوال الليل ظل يفكر بالصور والمجلات وأحزان وداد ويشعر بالذنب. وتهباً له أن ما يقوم به لا يرضي الله لأن النكاح خلق لغاية، وأن الغاية توليد النسل. وبما أن رشا لم تحبل بعد، وربما لن تنجب على الإطلاق لأن الله سيعاقبها كما يعاقبه بسبب الصور والمجلات. كما أن الصور والمجلات من عند اليهود هي بلا شك دليل أكيد على انحلال اليهود. وإذا كان رشاد يقوم بذلك فلأنه ضال منحل مثل اليهود. أما هو فعفيف شريف من أصل نظيف ومحافظ، فكيف ينساق لأجواء لا ترضي الله؟ وما هو الله يعاقبه بقلّة النسل، لأنّه ارتكب الخطيئة مرتين، مرة بانجرافه واستغراقه بالملذات، ومرة لأنّه غصّ النظر عن عذاب أخته وتعاستها. كما أن الله بدأ يعاقبه بأوجاع الظهر. لكن رشا لا تفهم هذا ولا تفهم ذاك، وتصرّ على أن تقوم بإغرائه كل ليلة، كل ليلة، حتى سئم وزهق وقلّ وزنه. وصار يتحجج بالصلاة وإفساد الوضوء وما شابه حتى سمعها تقول عن وداد: زي الدودة. وكانت تلك هي فاتحة الانقلاب، فقال لأمه: رشا يا أمي، تيسة وهبلة. واختلف الحال.

في كيبوتس عشاف

قالت رشا إنَّها لن تسكت على الوضع ولن تدع السكناجية تخرب بيتها وبيت أخيها. اقترحت على وحيد أن يقوما بزيارة البنت عند أمِّها في كيبوتس عخشاف ويقنعاها أو يبرطلاها كي تبتعد عن رشاد وتحلَّ عنهم. هزَّ وحيد رأسه موافقا وصلى ركعتين إضافيتين ودعا الله أن يوفقهما في مسعاهما، عسى أن تحلَّ عنهما لعنة وداد، فتحبل رشا وينصلح رشاد وتنستر وداد ويهدأ باله. كما أن الشيخ قال له حين زاره آخر مرة إن وضع رشاد لا يرضي الله، وأن خطيئته في عنقه وأن عليه، بعد أن أصبح من الأبرار، أن يقوم الاعوجاج ويصلح الانحراف بدون إهمال أو تأخير.

مر بها ببكب الصيانة ونقل الموتورات، فجلست بجواره وغطَّت وجهها بمنديل أسود حتى لا يراها أحد، فيقول لأبيها إن ابنته تركب البكب مثل العمال. كما أن وحيداً لا يجب الغلط، وغلط جدا أن يدع زوجته تركب البكب مثل العمال، وهذا هو السر في تساهل بواب الكيبوتس الذي أدخلها بدون تدقيق، لظنه أن القادمين هما عامل الصيانة العربي وزوجته العاملة في قطف الخضار. أدخلها البوابة بسرعة، وهو يحجج وحيداً بنظرات غاضبة مستاءة، وقال بتأفف واستعجال أن جفيريته أهرون سألت عنه عدة مرات، فلماذا التباطؤ والتأخير؟! جفيريته أهرون؟ من هي هذه؟ لم يسأله وحيد وظلَّ صامتا خوفاً من أن يتفوه بكلمة تفسد مسعاه وتكشف هويته الحقيقية. لكنه مشى خلف البواب بخطوات واسعة عصبية وزوجته تهوول وراءه بالكعب العالي والمنديل ودسته مباريم وأساور من الذهب الحر تملأ الأسماع برنين لطيف جعلت البواب يلتفت للخلف عدة مرات ولا يعلق، بل جعلت رأسه يهتز كمن انتشى بنغم أسر.

أدخله البواب مطعماً ضحكاً وطلب منه أن ينتظر جفirit أهرون. فوقف في الباب ورأى العشرات يأكلون على طاولات خشبية بدون شرشف ومن صحنون معدنية كصحنون العمال، ويشربون الماء من أكواب ألمنيوم ذات مماسك. كانت أشكاهم مثل العمال سوى أن بينهم نساء بشعور مقصوصة وبدون زواق، وبالكاد تميزهن وتحكم بأنهن من جنس النساء. فوقف واجماً لا يعرف إلى من يتجه ومن يسأل عن جفirit شالوم.

اقترب منه رجل مسنّ بشعر أشيب ووجه لطيف يحمل صينية طعام وسأله بعربية واضحة ولثغة بالراء عما إذا كان باستطاعته مساعدته. هزّ رأسه واجماً، وهو ما زال يتأمل أجواء الكيبوتس إذ أنه لم يتوقع أن يرى اليهود بهذا الشكل. ألم يقل الشيخ إنهم جاءوا لبلدنا حتى يكونوا الأسياد ونحن العمال؟ لكنهم لا يبدوون كالأسياد، بل هم أنفسهم كالعمال. يأكلون على خشب ويغرفون الأكل بالمعدن ويشربون بالألمنيوم ويلبسون الكاكي والمبهدل. أهؤلاء هم الأسياد؟!

سأله المسنّ عما إذا كان قد تناول طعام الغداء، فهزّ رأسه واجماً ونظر إلى صينية الرجل وكان فيها لحم وخضار وحبّة برتقال وكوب ألمنيوم. وصدمت أنفه رائحة الأكل إذ بدت له زنخة وتسد النفس، فقال مهمهما: شكراً، أكلت. قال له المسنّ إن جفirit أهرون ستجيء بعد الغداء، فسأل بحيرة: جفirit أهرون؟ قال المسنّ برطنة ظريفة: عشان المواسير والبلاعات. ظل صامتا على أمل أن ينتهز الفرصة فيسأل الرجل عن جفirit شالوم دون أن يثير الفضول أو الشبهة فمشى خلفه، ومشت رشا. حينذاك التفتت عيون، كل العيون، تتأمل المرأة المختبئة بالمنديل، وتطقطق بالكعب العالي، وينبعث منها رنين لطيف،

وهسهسة حميمة للجورجيت الذي يموج ويتدفق تحت جاكيت أسود يتعدى الخصر. كانت ما زالت تغطي وجهها خوفاً من أن يراها الناس مثل العمال، لكنها الآن خائفة وترتجف برعب من جو اليهود. فهذا الجو غريب كئيب، فيه رجال مثل النسوان وفيه نساء مثل الرجال، والكل يحدّق بتساؤل، فلفت نظرها خشب الطاولات والألمنيوم ورائحة الطعام التي بدت لها زنخة وغريبة وتسد النفس.

جلس المسنّ إلى طاولة فارغة، وجلس وحيد أمامه وبجانبه رشا أمام الشباك. كان الشباك يطل على ساحة رملية وخلفها شجر الليمون، وكان يحمل بغزارة ويلمع في الشمس بلون ذهبي ساحر. همست رشا بدهشة وإعجاب: شوف الليمون. نظر وحيد وتساءل عن سر حمل الليمون في عز الصيف، لأن الوقت ليس وقته؟ فأجاب المسنّ بأن الشجر عندهم يحمل على طول، صيفا شتاء وبكل الأوقات.

تذكّر وحيد ما سمعه من الناس أن اليهود يجعلون الشجر يحمل على طول، بلا توقف. البعض فسر الأمر أنّه استغلال واستنزاف للتربة - كعادة اليهود - والبعض الآخر فسره بأن اليهود جاءوا بعلوم وفنون الغرب وسبقونا بالزراعة والكهرباء والميكانيكا. لكن وحيداً لم يصدق أن هناك من يتفوق عليه بالميكانيكا، لأنّه عمل بالبوابير طوال حياته، كما لم يصدق أن اليهود سبقونا بالزراعة لأننا أبناء الأرض وفلاحين أباً عن جد. لكنه ظل ينظر حوله بفضول ويتحين الفرصة ليتساءل عن جفيريّ شالوم. في تلك الأثناء لمح تراكتور أصفر اللون يضاهي الليمون بريقا ونضارة، فسأل بفضول عما إذا كان ذاك ما يسمونه تراكتور؟ ابتسم المسنّ، وسأله عما إذا كان عندهم - أي العرب - تراكتور مثله؟ هزّ وحيد رأسه نفياً، وسأل بفضول عما إذا كان التراكتور

يدور بموتور مثل الباص والسيارة؟
هزّ المسنّ رأسه وهو يأكل ومد يده بالبرتقالة، وقال: تفضّل. همست
رشا لزوجها تحت المنديل: يهودي وكريم؟! سمعها المسنّ فابتسم
وادعى أنّه لم يسمعها. لكن التعليق حفزه لأن يثبت للعرب أنّه فعلا
كريم، مثل العرب، وربما أكرم، فقال لوحيد وهو ينهض: يا الله تفضل.
سأله وحيد بتوجس إلى أين يأخذه وما هو قصده، فقال مبتسما: تشوف
الموتور.

نهض وحيد ومشى خلف المسنّ ورشا تدق الأرض بكعبيهما
والصوت اللطيف يشنف الأسماع ويلفت الأنظار، فتطلعت العيون،
كأول مرة، وآخرون لم يتطلّعوا لأنهم مشغولون بالقهوة ونفث الغلايين.
حين وصلوا إلى التراكتور، سأل وحيد المسنّ عن نوع شغله فطبل
الآخر على مقدمة التراكتور باعتزاز، وقال مازحاً: هذا شغلي. ابتسم
وحيد، لأن شغل الرجل يشبه شغله. فاتح الرجل بما يدور في رأسه فهزّ
الآخر رأسه نفيا، وقال إنّهُ ليس عاملا بل هو أستاذ. فتح وحيد عينيه
بحيرة وسأله عن نوع أستاذته ففسر له أنّه يعلم الميكانيكا في التخنيون،
لأنّه ليس عاملا بل هو أستاذ. همست رشا غير مصدقة الادعاء: يعني
الميكانيكا لها أثناذ؟ نهرها وحيد بغيظ دون أن يعرف سبب غيظه، لكنه
بدأ يفسر للرجل باعتزاز شديد كيف أنّه عمل بالميكانيكا طوال حياته،
لأن أباه عمل فيها من قبله وكيف كان يفك البوابير ويركبها مثل
الساعة، وأنّه بالميكانيكا طالع لأبيه.

ابتسم المسنّ وربت على كتفه، وقال: برافو. وبدأ يحكي هو الآخر
كيف أن أباه كان يعمل بالميكانيكا ويلبس أفرهول شبيها بأفرهول
وحيد. أسرع وحيد ليوضح له بخجل واستياء أنّه ليس عاملا بل

موظفاً، وأنه موظف كبير في شركة كبيرة للاستيراد.
 رمقه الرجل بأدب بالغ وربت على كتفه ثانية، وبدأ يشرح بلهجة
 أستاذية أن العمل ليس نقيصة وليس عيباً، فالعمال هم أصل الحضارة
 والتقدم. وحين رأى وحيداً يحدّق محاولاً استيعاب ما يقوله عن العمال
 والحضارة والتقدم وعمله كأستاذ في التخنيون، أردف مؤكداً أن
 العامل كويس، كويس كثير. تدخلت رشا، وقالت بأنفة واستياء أن
 وحيداً ليس عاملاً بل موظف كبير في شركة أبيها المحترمة. نهرها وحيد
 ثانية، وقال بغلظة:

- اسكتي يا رشا.

وأمرها أن ترفع المنديل عن وجهها، لأن الرجل ليس منا، فهو يهودي،
 وهو أيضاً مسنّ. ثم التفت إلى المسنّ يسأله بشك كيف أنّه أستاذ في
 التخنيون ويسوق تراكتور مثل العمال؟! ابتسم المسنّ ابتسامة واسعة،
 وقال شارحاً: إنّ في الكيبوتس يسوق التراكتور، ويقص الزرع، ويزرع
 الورد، وفي التخنيون يعلم الكهرباء والميكانيكا. هذا التفسير زاد وحيداً
 غيظاً، فرفع صوته:

- وكم إن الكهرباء لها أستاذ؟!!

وأضفاف بلهجة متشككة ساخرة:

- أوعَ تقول لي إن الليمون عنده أستاذ؟

قهقه المسنّ، وقال بلهجته الأستاذية المتسامحة إن الليمون عنده
 أستاذ، وإن العنب عنده أستاذ، والموز واللوز وحتى الفجل عنده
 أستاذ. صفقت رشا يديها غير مصدقة كل ذاك الكلام وصاحت
 باستخفاف: الله أكبر! فنهرها وحيد للمرة الثالثة:

- اسكتي يا رشا!

هدّاه الأستاذ:

- معلش، معلش.

وحين التفت إليها، وكانت قد أزاحت المنديل، رأى وجهها جميلا كالبدر، فقال بإعجاب: - توفأ، توفأ. (جميلة، جميلة)

فقالت بانزعاج:

- أنا مش توفأ، أنا أثمي رشا.

نهرها وحيد للمرة الرابعة:

- اسكتي يا رشا.

هذه المرة هي من نهرته:

- مالك اليوم!

للمرة الثانية تدخل الأستاذ مهدئا:

- معلش، معلش.

وشد بذراع وحيد وهو يسأله لينسيه الموضوع عما إذا كان يرغب برؤية الموتور؟ هزّ وحيد رأسه وقد تعكر مزاجه من تدخل رشا وبدأ يحس بالندم، لأنّه أحضرها معه، ونسي أنّها هي التي أحضرته.

فتح الأستاذ غطاء الموتور وأخذ يشرح:

- هذا الموتور وهذا الراديوتر وهذا الزيت...

قاطعه وحيد بأنفة وكبرياء:

- عارف، عارف.

تأمله الأستاذ مبتسما، وسأله عما إذا كان يرغب في رؤية الزرع الذي يتولى رعايته أستاذ زراعة متخصص؟ كشر وحيد لاعتقاده أن الرجل يسخر منه ولم يجب. لكن رشا قالت بحماس مبالغ فيه حتى تثبت لوحد أنها لن تسكت مهما نهرها وأيضا لتثبت للأستاذ أنّه فُشار ومدع ويسرح

بهما فقالت بسرعة:
 - خلينا نشوف فجّل الاثناذ.
 التفت الأستاذ وهمس للمرة الأخيرة:
 - توفّا، توفّا.
 فصاحت في أذنه كأّنه أطرش على اعتبار أن كل المسنّين يشكون قلة
 السمع مثل أبيها:
 - أنا مش توفّا، أنا أثمي رشا.

ركبوا جميعهم التراكتور. وحيد يسوق والأستاذ المسنّ إلى جانبه ورشا
 قبعّت في الخلفية. كان الجو جميلاً والسماء زرقاء ملساء مثل الساتان،
 والزرع يملأ الأنظار بخضرة نضرة، ورائحة الأرض تملأ الفضاء بعبير
 لطيف.
 بدأ وحيد يهدأ وينسجم مع الموقف، فصوت الأستاذ مريح ولهجته
 ناعمة رقيقة، وأيضا حميمة إلى حد ما. قصّ عليه كيف فقد زوجته بعد
 مجيئه لأرض فلسطين، وكيف يشتاّق لأولاده الذين رفضوا مرافقته
 حين جاء مع زوجته لتحقيق الحلم بإقامة دولة اشتراكية، لأن أولاده
 لا يؤمنون بالاشتراكية، وها هو هنا في كيبوتس عخشاف بلا زوجة
 وبلا أولاد.

ظل وحيد مرّكّزًا على السواعة والنظر إلى المزروعات، ليرى الفارق
 بين زرع اليهود وزرع العرب. ورأى زرع اليهود أطول وأنضر ويحمل
 أكثر. يعني التفاح يحمل أكثر وكذا الأجاص والخوخ والعنب، لكن

الزيتون على حاله كما كان منذ القدم، منذ عهد المسيح. فعَلَّقَ مستغرباً كيف أن كل المزروعات قد تحسّنت إلا الزيتون، وربما كان ذلك لأن الزيتون كبير في السن.

قال الأستاذ أن الزيتون ليس كبيراً في السن، لأنهم زرعوه يوم تأسيس الكيبوتس منذ عشر سنين. داس وحيد الفرامل فجأة وصاح متعجباً:

- هذا الزيتون زُرِعَ منذ عشر سنين، هذا يمكن من عمر المسيح!
أصر الأستاذ أنهم زرعوه يوم تأسيس الكيبوتس، منذ عشر سنين.
سأله وحيد حانقا:

- أنت زرعتَه؟

هزّ الأستاذ رأسه نفياً، وهو يفسر أن رجال ونساء الكيبوتس زرعوه قبل مجيئه، منذ عشر سنين. سأله وحيد بسخرية وغضب واضحين:
- قالوا زرعوه منذ عشر سنين؟
أكد الأستاذ:

- قالوا زرعوه منذ عشر سنين.

تذكّر وحيد ما سمعه من الناس كيف أن اليهود يزعمون أن فلسطين كانت صحراء بلا زرع ولا ناس ولا حتى كلاب، وأنهم هم من زرعوها وبنوا فيها وجاءوا بالناس والقطط والكلاب، فقال حانقا:

- قالوا زرعوه وتصدقهم؟

قال الأستاذ بامتعاض خفيف:

- طبعاً يا خبيبي، أصدقهم.

التفت إليه ليرى مدى صدقه فرآه كما رآه أول مرة: بني آدم مسنّ، وجهه لطيف، صوته مريح، رجل حساس ومتواضع، وهو أستاذ، يعني

فهان، يعني عاقل، يعني ذكي ومتعلم. لكنه رغم ذلك لا يرى أن هذا الزيتون كبيراً في السن، من عمر المسيح أو قبل المسيح. ألا يرى جذوع الأشجار كم هي ضخمة! ألا يرى الأغصان كم هي عالية وغلظة! ألا يرى الجذور كيف تبرز فوق سطح الأرض دون أن تؤذي الأشجار وتقلقلها! لكن الرجل يصدق ما قيل رغم فهمه، ورغم علمه، ورغم خبرته وأستذته، فلماذا يا ترى يصدق ما قيل؟

قال بلهجة متأنية حاول أن يقلد فيها لهجة الأستاذ الواقعة اللطيفة:

- عندكم أستاذ للمزروعات؟

هزّ الرجل رأسه دون أن يلتفت إليه فقال وحيد محاولاً أن يبدو منطقياً ويتكلم بلغة العقل: - وهذا الأستاذ ما فسر لك أن عمر الزيتون أكثر بكثير من عشر سنين؟

بدا على وجه الأستاذ الضيق، لأن الموضوع تجاوز الحد، ولأن العربي الظريف بدأ يصبح مشاكساً، فقال مهدئاً:

- ليش أنت بزعل يا خبيبي؟!

ولمس كتفه بمودة، ونظر في عينيه مباشرة، وابتسم له، فأحس وحيد بغضبه يتلاشى، ونفسه تهدأ، وقال حرناً:

- أنا مش زعلان.

استعاد الأستاذ سيطرته على الموقف، وقال ملاطفاً:

- ليش أنت بزعل يا خبيبي؟ اذا قلت الزيتون مزروع من عشر سنين أنت بزعل. وإذا أنا أقول أنت عامل أنت بزعل. وإذا مرتك قالت كلمة صغيرة أنت بزعل. ليش أنت بزعل يا خبيبي؟

لم يجبه وأخذ يفكر أنه أخطأ خطأ جسيماً بمجيئه، إذ لا يمكن أن تكون جفيريت شالوم أو أية جفيريت في كيبوتس عخشاف تختلف كثيراً عن

الأستاذ.

رآه الأستاذ ساهما عابسا، فقال مهدئا:

- مش لازم بزعل يا خبيبي. أنت شاب صغير ومرتك توفاء، لازم مبسوط، مبسوط كثير.

لم يجبه، فواصل الأستاذ متأملا بحس فلسفي مرهف:

- لازم مبسوط، مبسوط كثير. هذي الدنيا دنيا صغيرة، والكل يموت. الناس يموت، والزرع يموت، وأنا وأنت وحتى الزيتون، مش كله بموت؟ لازم مبسوط، مبسوط كثير.

همست رشا باستطارة وهي تسمع كلمة الموت تتردد عدة مرات: بعيد الشر! بينما ظل وحيد صامتا عابسا لا يتجاوب. ألح الأستاذ:

- ليش أنت بزعل يا خبيبي!

همهم وحيد، وقد بدأ يملّ دور التلميذ وذاك الأستاذ:

- طيب، طيب، خلص فهمنا.

قال الأستاذ:

- أنت لازم مبسوط، مبسوط كثير، مش لازم بزعل يا خبيبي.

رفع وحيد صوته بضيق وملل:

- طيب، طيب، خلص فهمنا.

قال الأستاذ بعناد رجل كبير مسنّ:

- مش لازم بزعل يا خبيبي.

أوقف وحيد التراكتور بهزة قوية وقال لزوجته، وهو ينزل:

- يا الله يا مرة.

ومشى خطوات وهو يهمهم:

- قال ١٠ سنين!

- سمعه الأستاذ فزجره محذرا بإصبعه وهو مكانه:
- أنت لازم مبسوط، مبسوط كثير. مش لازم بزعل يا خبيبي؟
- استدار وحيد، وقد فقد توازنه وأعصابه:
- يا سيدي زعلان ولّا مفلوق، مالك ومالي؟ وأوعى تقول لي من ١٠ سنين.
- قال الأستاذ، وهو ينتقل بمقعده إلى كرسي القيادة ويهزّ أصبعه زاجرا:
- من ١٠ سنين.
- وساق التراكثور.

30

قال البواب إن جفريت شالوم تعمل في مدرسة الأطفال وإن عليه أن يتبع ممر الدفلى حتى يصلها. فمشى مطرقا يفكر بما قاله الأستاذ ويتلفت حوله، ليرى كيف يعيش اليهود وكيف يتعاملون مع الزرع والطبيعة. فبدت له الأشياء وكأنّها ليست منا، غريبة عنا، كأنّها بلد آخر. هو لا يعرف كيف تبدو بلاد الآخرين لأنّه لم يخرج من بلده ولم يزر أي مكان أبعد من القدس. إلا أنّه سمع من الناس أن بلاد الانجليز وبلاد الألمان أنظف وأنظم، ذلك لأن الحكومات أنظف وأنظم، ولأن الناس أنظف وأنظم. فهل اليهود أنظف وأنظم؟

قال له الشيخ إن اليهود ليسوا نوعا واحدا، بل عدة أنواع. يهود الشرق مثلنا في كل شيء، لأنّهم كانوا منا، يأكلون مثلنا ويلبسون مثلنا ويحافظون على طهارة نسائهم مثلنا. أما يهود الغرب فهم مثل الغرب بلا

أخلاق ولا ديانة ولا شهامة، ونساؤهم كالعاهرات بلا عفة ولحمهن رخيص. وحين فُكّر وتذكّر رأى أن أقوال الشيخ مطابقة للواقع، لأن بنات شالوم يسرن في الشارع شبه عاريات ويتصرفن كما لو كن أنصاف رجال. وتذكر الكراتيه بشيء من الإعجاب والشماتة، فقد نال رشاد ما يستحقه، لكنه غطس فيما بعد باللحم حتى أذنيه، فماذا دفع مقابل ذلك؟ هل دفع القليل أم دفع الكثير؟ وأم البنات، جفirit شالوم، هل هي مثل الشرق أم مثل الغرب؟ وأحسّ بالخوف من ذاك اللقاء. فماذا لو كانت مثل الغرب؟ وإذا كانت، فبأية لغة يخاطبها؟ وماذا لو كانت عصبية مثل ابنتها ذات الكراتيه؟ وعاد يفكر بأن فكرة مجيئها لهذا اللقاء سخيصة جدا، بل غبية، كصاحبته. فلماذا استمع إليها ووافقها؟

سألته رشا بتهيب إن كان بعد غاضبا من الأستاذ، فهمهم باستياء وأشار إلى أنّه ليس كذلك. حاولت التورية عنه واسترضاءه بأن قالت إن الأستاذ كذاب كبير إذ ليس معقولا أن يكون للفجل عندهم أستاذ؟ نظر إليها بطرف عينه واحتار في أمرها للمرة الألف، إذ أن ما لصق في عقلها ولفت نظرها هو فجل الأستاذ فقط لا غير. ألم تفكر بعمر الزيتون؟ ألم تفهم ما لعمر الزيتون من معنى؟ طبعاً لم تفهم. لماذا؟ لأنّها غبية وهبلّة. وتذكر تعليقاتها الأخيرة وتدخلها أثناء حديثه مع الأستاذ بكثير من القلق والتذمر. فماذا لو تدخلت أثناء الحديث مع جفirit شالوم؟ جفirit شالوم مسئولة عن المدرسة، وهذا يعني أنّها متعلمة وذكية. فإذا تدخلت رشا ستضيع معها وتضيعنا. إذن لا بد من أن تخرس ولا تفتح فمها بنصف كلمة.

التفت إليها وقال بجفاف إنّه يريد منها خدمة صغيرة. توقفت عن العبث بأساورها وأنصت باهتمام شديد لتعرف منه نوع الخدمة التي

يطلبها وماذا يريد. فقال ببطء إنّه سمع من الناس أن جفيريت شالوم قوية وصعبة، وأن عليها قبل الدخول أن يتفقا على من يتكلم ومن يسمع حتى لا يغلطا ويختلطا الكلام.

التفتت إليه حتى تعرف إذا كان يريد منها أن تتكلم وهو يسمع أم أنّه يريد أن يتكلم وهي تسمع، لأنّها ما عادت تعرف ماذا يريد! ما عادت تعرف ما يرضيه! ما عادت تعرف ما يزعجه! ما عادت تعرف لماذا اختلف وصار غريبا!

قالت بحذر إنّها تترك الأمر له حتى يختار، فاقترح بجفاف أن من الأفضل أن يظل احدهما في الخارج والثاني يدخل ويفاوض. فسألته بقلق إن كان يريد أن تدخل وهو ينتظر في الخارج؟ وحين لم يجيبها أسرع تقول حتى ترضيه: طيب، طيب. ادخل أنت. وجلست على حوض الأزهار بانتظاره.

دخل المدرسة وسأل عن جفيريت شالوم. قالوا له إنّها مع الأطفال خلف ذاك الزجاج. وبالفعل رآها من خلف الزجاج تجلس بين الأطفال حول مائدة دائرية في وسطها كعكة كبيرة وأطباق مليئة بالحلويات. كانت رؤوس الأطفال محاطة بأطواق الزهر الورقية بينما توجت إحداهن بإكليل من زهر حقيقي وورق الزيتون. ولفت نظره أن معظم الأطفال بيض وشقر وطفلة واحدة سمراء فقط. أما جفيريت شالوم، وكانت تجلس وظهرها له، فهي شقراء بشعر مقصوص وخطه الشيب ومريول أبيض كالأطباء. مظهرها زاد من إحساسه بالقلق والتخوف،

لأنّها بيضاء كالانجليز وهو أسمر، وهي في مريول أبيض كالأطباء وهو في أوفرهول كحلي ورائحة الكاز، وهي شائبة ومسنّة في عمر أمه أو أكبر. فما عساه أن يقول لامرأة في هذا العمر وبأية لغة؟ وفكّر أن يرجع من حيث أتى لولا وداد وخيال وداد، ولولا ما قام به الأطفال. بدأوا ينشدون ويرفرون بأيديهم مثل فوج حمام. أما الطفلة بإكليل الزيتون فوقفت فوق مقعدها وأخذت ترفرف وتغرد مثل العصفور بفم من كرز وعينين كياقوت أزرق وسماء الصيف. ابتسم وتمايل رغما عنه. امتلأ حنانا وحنينا، ووجد نفسه يتسم لها وقلبه ينساب ويخترق الزجاج، فهمس بإحساس: طيور الجنة، أحباب الله.

31

أطلّت سارة من خلف الدّفلى ورأت رشا على حافة حوض الجيرانيوم تعبت بأساورها وتبدو ساهمة وحزينة. اقتربت منها، وقالت لها بدهشة مرحة: أهلا رشا. أنت عندنا في كيبوتس عخشاف! رفعت رشا رأسها ورأت سارة أمامها بشكل لا أحلى ولا أروع. كانت ترتدي ثوبا واسعا بخصر ضيق، مكشوف الصدر، مكشوف الظهر وبلا أكمام. لونه أصفر، وعليه زهرات ضخمة لعباد الشمس، واحدة على الصدر، وأخرى على الذيل وفراش يتطاير على الداير. ولفت نظرها أن الزهرات والفراشات كانت من قماش مختلف ومثبتة بالخرز والتطريز. فقالت بإعجاب مذهل: الله ما أحلى فستانك، وشعرك وجزدانك والصندل! منين اشتريت هالفستان؟

ابتدأ الحديث بهذا الشكل واستمر لفترة طويلة عن اللبس والشعر والأحذية والأظافر ومن أين هذا ومن أين ذاك، وسارة تستغرق بوصف الأشياء والأماكن وكيفية الوصول إلى المتاجر وأسماء الباعة والتجار، ومن هو أحسن ومن هو أشطر ومن يستورد من أوروبا وصالون الحلاقة الفلاني، ثم الصاغة ومن أين هذه الأساور وخليني أشوف؟

بمرور الوقت نسيت رشا دوافعها وحوافزها والخوف على بيتها وبيت أخيها من هذه الفتاة اليهودية، بل نسيت أصلاً أنها يهودية، لأنها تحكي العربية مثل العرب، ولأنها سمراء شرقية، ولأنها لطيفة وظريفة، وتقول أشياء تعجبها وفي جعبتها أسرار الجمال والأناقة، وحياة الانبساط وسهر الليل. كانت تحكي عن الشباب والخروج للمراقص بصورة طبيعية بلا تكلف، كما لو كانوا إخوتها، لكنهم ليسوا كذلك. فهذا طويل وذاك قصير، هذا غني وذاك فقير، هذا غبي وذاك خطير. لكن أطرفهم وأظرفهم هو رشاد بلا منازع. رشاد قحطان هو أكرم وأظرف الشباب جميعاً، لأنه يحكي النكت بدون توقف، ويضحك الجميع ويسعدهم مع أن المسكين بلا سعادة.

أبدت رشا تعجبها لأنها كانت تظن أن أباها يعيش حياته بالطول والعرض ولا يهتم بأية مشكلة مهما كانت. فقالت سارة بأنه مسكين بلا سعادة، لأن ضميره غير مرتاح، ويقول عن وداد مسكينة وابنها مسكين. وافقتها رشا، وقالت باقتضاب إن الاثنين، بل الثلاثة، فعلاً مساكين. وافقتها سارة على طول الخط بدون تردد، وهزّت رأسها عدة هزّات وهي تردد: طبعاً مساكين.

رمقتها رشا بدهشة وإعجاب. فهي الفتاة اليهودية تشعر معنا وتحسّ

بنا، ولديها قلب من ذهب وتحب الناس، فلماذا يقولون عن اليهود إنهم لا يحبون أحدا غير اليهود؟! قالت بفرح وكأنتها وجدت كنزا: - الله عليك يا سارة ما أطيب قلبك!

جلست سارة إلى جانبها وغرقت الاثنتان في حديث طويل مليء بالقصص والعواطف وعبارات مليئة بالتأمل الفلسفي مثل "غريبة الدنيا!" و "الناس للناس!" و "الله أكبر من كل الناس." وفهمت رشا من ذلك كله أن سارة لن تتعدى على زواج أخيها وتحرب بيته وتحرم الطفل من والده ووداد المسكينة من زوجها. فما كان منها إلا أن نزعّت أسورة من أساورها وألبستها لسارة كدليل على العرفان والصداقة وبداية عهد جديد من التفاهم والانسجام، لأنّه كما قالت سارة بإيمان شديد: الناس للناس، والله أكبر من كل الناس.

32

حين طال انتظاره قرر أن يدق الباب ويلفت نظر جفيريّ شالوم إلى وجوده. ففتحت له الباب وواجهته بنظرة مستطلعة مندهشة. عرفّها بنفسه، وقال لها إن لديه موضوعا هاما يتعلق بعائلتها وزوجها إسحق شالوم. لم تعلق، ولم تقل أية كلمة، بل ظلت تتأمل بنظرة زجاجية باردة. لم تقل "ادخل" أو "تفضل" أو حتى "انتظري في الخارج"، بل أشارت له بيدها كي يجلس على كرسي بجوار الباب.

جلس حائرا وهو لا يعرف إن كانت قد فهمت عليه أم لم تفهم. لكنها، بعد أن عادت إلى مقعدها بين الأطفال حول مائدة عيد الميلاد التفتت

إليه، وسألته بالعربية إن كان يعمل في شركة إسحق شالوم؟ حينذاك التفتت إليه عيون الصغار تتفحصه وتتمحصه كما لو كان مخلوقا غريبا أو مسخا. رأى الطفلة ذات إكليل الزيتون تحديق فيه بنظرة جامدة غريبة، فابتسم لها، لكنها لم تبتسم له واستدارت بوجهها وقد ارتسم على وجهها جمود وبرود.

لم تكن الطفلة وحدها التي واجهته بذلك التفحص والجمود، بل كل الأطفال، وحتى هي، جفيريت شالوم، كانت قد كست وجهها بطبقة من الكلس المتحجر جعلته يخشاها وينفر منها. فهي بالإضافة إلى أتها غريبة بعيون زرقاء زجاجية وفي عمر يناهز عمر أمه وفي لباس أبيض كلباس الأطباء، فقسيمات وجهها كانت تعزله وتقصيه وتقيم حاجزا زجاجيا أشد سماكة من الحاجز الزجاجي الذي جلس خلفه قبل دخوله. فتساءل عما إذا كان السبب في تجمعها هو ذكر اسم زوجها اسحق شالوم الذي كان يعلم أنها منفصلة عنه ولا تكن له أية مودة. ولأنه تأكد من ذلك بسرعة غريبة لام نفسه لاستخدامه ذاك الاسم وتمنى لو ذكر سببا آخر كمبرر لزيارته وتطفله. لكنه سمع طفلا يقول همسا لرفيقه: "هازي عرافيم." فارتعشت أجفان الصغير وحدق في وجهه بنظرة سريعة وحين رأى وحيدا يتطلع إليه غصّ بنظره واستدار بوجهه لجهة أخرى.

قسّموا الكعكة وبدءوا يتناولون الحلويات. وأخذ يستعد بداخله لما سيقوله لجفيريت شالوم حين تعرض عليه قسما من الكعكة والحلويات. أيقول لها بأنه تغذى كما قال لأستاذ الميكانيكا أم يقول لها أنه غير جائع أم يأخذ القطعة ويشكرها؟ لكنها لم تعرض عليه قسما من الكعكة ولا قطعة من الحلويات. فاستدار بوجهه جهة الشباك وأحس بإحراج بالغ

وخجل شديد، لأن الموقف كان غريبا وجديدا عليه. كانت تلك هي المرة الأولى في حياته التي يدخل فيها على أناس يأكلون ولا يقولون له: "تفضل معنا." لكن هؤلاء ليسوا مضيفين ولا هو ضيف. هو لا أكثر من دخيل متطفل، وهم دخلاء. ألم يقل له الشيخ هذا حين زاره؟ ألم يقل له: كانوا منا وصاروا علينا؟ هذا طبعا عن يهود الشرق، أما الغربيون فهم غرباء في كل شيء بما في ذلك طبائعهم، يعني الكرم، يعني المرأة، والبخل الشديد والتدين. فلماذا توقَّع أن تعرض عليه قطعة من الكعك؟!

مرت لحظات نسي خلالها ارتبাকে كما نسيته جفيريت شالوم. وأخذ يراقب الأطفال وهم يأكلون ويتبادلون الألعاب وقطع الحلوى ويملأون المكان بالضحك واللعب ونفخ الزمامير، فأحس شيئا بداخله يتحرك. وجد نفسه يبتسم بسخرية من شكوكه ويهمس بحنان وحنية: الأطفال طيور الجنة، الأطفال أحباب الله.



تركته في المكتب وغابت عنه. نظر حوله، ورأى نفسه في مكان عجيب، سقف معقود، وكليل عريض، ونوافذ ممتدة تصل السقف، في نهايتها زجاج معشق بعدة ألوان، وزخرفة عربية منقوشة تلتف كحزام مبروم حول الجدران. هذا السقف مثل سقف غرفته في نابلس. وهذا الحزام مثل الحزام المبروم حول صالون الضيوف. وهذا الزجاج مثل زجاج جامع الخضر وجامع عمر. فلماذا أبقوه على حاله؟ هل يعجبهم؟ هل ينفعهم؟ شيء غريب!

كل شيء رآه كان غريباً، بناء المطعم، أدوات الأكل، أدوات الزراعة والتراتكور، نساء الكيوتس بملابسهن وشعورهن، وكذا الأطفال وألعابهم، ثم المرأة، جفيرييت شالوم بشعرها المقصوص كرجل مسنّ، ثم ملاحظها الزجاجية، كل ذلك عجيب غريب إلا هذا، هذا البناء، فلماذا أبقوه على حاله؟ وربما، بل أكيد، لو سأل أستاذ الميكانيكا لقال له ما قال هناك: من ١٠ سنين. وأصابه إحساس بالندم، لأنّه جاء الكيوتس لإنقاذ أخته، إنقاذ أخته من كيوتس!

وقف وقد حزم أمره وإذا برشا تدخل فجأة مع سارة وتضطدم به، وجها لوجه، وهي تضحك. قالت له وهي في قمة الانشراح والسعادة إنّها اكتشفت أن هذه البنت - يعني سارة - قلبها طيب وإنّها أفضل من عرفت من البنات، لأنّها تشفق على أخته وابن أخته، وإنّها تقول عن أخته بأنّها مظلومة وابنها مظلوم.

كان واقفاً فجلس في أقرب مقعد. نظر إليهما بشك وذهول، كانتا تبتسمان وتتبادلان النظرات، وكأنّ بينهما أسراراً حميمة وصداقة. وها هي إسوارة زوجته تلمع في ذراع سارة وتبدو أكثر انسجاماً وأناقة. كانت قد رفعتها لما فوق الكوع فبدت كأصورة ممثلة في فيلم أجنبي عن روما. شيء غريب! أمن المعقول أن تكون سارة قد قبلت الرشوة وتخلت عن رشاد بكل بساطة!

رأته رشا يحدّق بالأسوارة، فقالت بسرعة كي تطمئنّه إنّها وسارة تفاهتا على كل شيء، وإنّها وسارة باتتا مثل الأخوات. وصفت له كيف ظلت تحكي معها مذ تركها عند حوض الزهور، وكيف اتفقتا على مشاريع مغرية ولطيفة. ستتزلان معا للسوق لشراء بعض الحاجات، لأن سارة دلّتها على أماكن رخيصة جداً وبشكل لا يخطر على البال. مثلاً، هذا

الفيستان بعشرة جنيهاً، وهذا الجزدان بثلاثة جنيهاً، وهذا الصندل بجنيه واحد فقط لا غير. هل تصدق؟ وطلبت من سارة أن تقف لترى الفستان كم هو جميل وأنيق وغير مكلف. فوقفت سارة واستدارت كي ترى الفستان وهو ما زال مأخوذاً مشدوها لا يتحرك. فها هي زوجته الغبية تقوم بما عجز هو عن تحقيقه. ها هي تعيد الأمور إلى نصابها، بعكسه هو الذي كان قد بدأ يئس وقرر مغادرة الكيوتس دون تحقيق أهدافه. وهذا يثبت أن زوجته أشطر بكثير مما تصور، بل أشطر منه، ويثبت أنها مصيبة وهو مخطئ.

ابتسم وهو يفكر بردود فعل رشاد حين يكتشف أن سارة تخلت عنه مقابل إسوارة ذهبية وهمس بشيء من التشفي والشهامة:

- مسكين يا رشاد!

سمعتة سارة، فعقبت على الفور:

- طبعاً مسكين.

ثم أضافت أنها منذ زمن بعيد وهي تقول إن رشاداً مسكين جداً، فعلاً مسكين.

أحس وحيد من نبرتها أنها متعاطفة مع رشاد بطريقة مغايرة لما أوحى إليه، وأنها تحسّ بأسف حقيقي وبعض الحزن. فهل هي حزينة عليه أم على فقدانه وضياعه؟ رمى إليها بالطعم ليتأكد، وقال مداوراً: رشاد مظلوم. هزّت الفتاة رأسها، وقالت بحماس:

- طبعاً مظلوم، مظلوم جداً.

رأته يخلق بعينه مستطعاً، فقالت كي توضح فكرتها إن رشاداً مظلوم، مظلوم جداً، وأنها منذ زمن بعيد وهي تنصحه بترك الشركة والهرب من تسلط أبيه، لكن رشاداً لا يسمع، وأنها لو كانت مكانه لترك الدنيا

وما فيها وأثبتت لأبيها وللعالم بأنها حرة، وأنها بالفعل فعلت ذلك حتى تعيش حياتها كما يحلو لها، لا كما يريد أي أحد في الكون، فهل من المعقول أن يقبل أي أحد ذكي أو عاقل أن يكون تحت رحمة أبيه أو أمه في هذا السن؟ وأنها مقولاتها بأن أكدت على وجوب تحرر رشاد من ظلم أبيه، وأن عليه أن يعيش حياته كما يحلو له، لا كما يحلو لأبيه وعائلته. وتوجهت لوحيد بسؤال أخير:

- لو كنت مكانه شو بتعمل؟

كان يحدّق في وجه الفتاة وقد انفتح فمه وتلاحقت أنفاسه، فما تقوله يثبت أن زوجته أغبى بكثير مما تصور. قالت "تفاهمنا على كل شيء"، وهي في حقيقة الأمر لم تتفاهم إلا على الفستان والجزدان والصندل. خسرت إسوارتها بدون مقابل، وها هي تنظر إليه نظرة خائفة مرعوبة. خائفة منه. لم لا تخاف؟ الآن اكتشفت أنها لم تفهم ولن تفهم. الآن اكتشفت وانكشفت، بل إنها انكشفت منذ زمن بعيد، منذ اكتشف أنها بلهاء. لكنه الآن يزداد اكتشافا ومرارة. فها هي الفتاة تقول أشياء تهزّ بدنه، تجعله يحس بأنه ضعيف وتكشف ضعفه، فما ينطبق على رشاد ينطبق عليه. هو مثل رشاد، فكيف لم يخطر بباله قبل اليوم أنّه كرشاد ورشاد مثله؟! كيف لم يتنبه لهذه الحقيقة حتى الآن؟ كان يظن أن رشاداً هو الظالم وها هو يكتشف أن رشاداً مظلوم، وهو مثله.

وتأمل زوجته وهي تحدق برعب وذهول، فأحس بإشفاق مضاعف لأنها مظلومة هي الأخرى. هي لا أكثر من طفلة ضعيفة ولا شيء لديها تقاوم به. لم يمنحها الله عقلاً تفكر به، ولم يمنحها أبوها تربية تعوضها عما بخلت به الطبيعة. وهذه هي النتيجة. لا تعرف كيف تتصرف. لا تفهم الدنيا وحركات الناس، وانخدعت بكلام ومظاهر. خدعتها

البت. ضحكت عليها وسلبتها. أخذت الأسوارة مقابل لا شيء، فكيف يسترد الأسوارة بدون فضائح؟

عادت جفيريت شالوم إلى المكتب وهي تحمل رزمة كتب. وقفت في الباب وقد فوجئت بوجود ابنتها مع امرأة عربية غريبة. تمنعت في شكل ابنتها وأهملت وجود العربية. وقالت وهي تزم شفيتها، وقد بدا وجهها أكثر جمودا وبياضا:

- هذا الفستان في كيبوتس عخشاف؟!

لم تجب البنت، بل هزت كتفها بصفاقة. عادت الأم تستنطقها، وقد تجاهلت وجود العربيين تماما:

- هذا الفستان في كيبوتس عخشاف؟!

وتأملت الأسوارة في ذراع ابنتها الشبيهة بأساور المرأة العربية، وقالت بقرف:

- وهذي الأسوارة في كيبوتس عخشاف!

قالت رشا باندفاع يائس:

- إسوارتي أنا.

رشقتها الأم بنظرة سريعة ثم تجاهلتها كلياً وعادت تقول وهي تتأمل ابنتها من فوق لتحت، وقد احمر وجهها:

- إسوارة ذهب في كيبوتس عخشاف؟

هزت البنت كتفها، وقالت بتبرم وعدم اهتمام:

- بكره أبيعها.

صاحت رشا:

- كيف تبيعها؟ أسوارتي!

نهرها وحيد:

-
- اسكتي يا رشا.
 - صاحت بغضب:
 - إسوارقي أنا، كيف تبيعها؟!
 - فعاد يردد بخجل وارتابك:
 - طيب. خلص. اسكتي يا رشا.
 - بدأت تبكي مثل الأطفال:
 - إسوارقي أنا، إسوارقي أنا.
 - أحس بإشفاق لا يوصف. انتقل إحساسها بالخدعة إليه هو، ولم يعرف كيف يتصرف، لكنه ملّم نفسه ومد يده نحو زوجته وقال بعطف:
 - يا الله يا رشا، إنسي الموضوع.
 - وخرج مهزوما مهموما من كيبوتس عخشاف.

شيخ الجليل

أصر أمين على مرافقة أخيه لزيارة شيخ الجليل. كان قد سمع الكثير عنه مما أثار تخوفه وفضوله، فبالإضافة إلى قدرة الشيخ على استيعاب أخيه وإقناعه بمفاهيم أكبر من قدرة رجل شبه أمي على التفكير فيها والدخول من أجلها في متاهات خطيرة، فقد تمكن من التأثير على مئات الفلاحين وأصحاب السوابق وجعل منهم مناضلين أشداء على استعداد للتضحية بكل ما يملكون، لدرجة أن البعض باع كل ما لديه من متاع - بما في ذلك مصاغ زوجته وعنزته وخاتم أمه - ليشتري سلاحاً قديماً يقاتل به جيش أقوى دولة على وجه الأرض. وحين حذر أمين أخاه من مغبة الانسياق وراء أحلام الشيخ ووعوده، ردّ الآخر بغلظة لم يعهدها فيه: لكم دينكم ولي دين. وهذا ما دفع أميناً على الإصرار على مرافقة أخيه ليتعرف على من تسبب بكل ذلك التغيير في حياة أخيه.

حين دخلا الجامع فوجئ أمين بهيئة لم يتوقعها. كان الشيخ في الستينات، بلحية شائبة وعباءة قديمة فوق قنبار حائل. ما كان طويلاً وعريضاً كما كان يظن، ولا كانت ملاحه كملاحم الزعماء والقادة، ولا كانت عيناه تلمعان ببريق فذ. كان قد سمع ما أثار خياله وتوقعاته وإذا به أمام رجل عادي بلا رهبة.

أدخلهما الشيخ داره. كانت عبارة عن غرفتين ومنافعهما. الغرفة التي دخلها كانت عارية إلا من بساط قديم وسرير حديدي من مخلفات الجيش التركي، وفي الزاوية قوس فراش تغطيه ستارة مهترئة تخفي كما هائلاً من الحشيات والوسائد، وعلى الأرض بُسْط ومساند.

بدأ يعيد عليهما ما كان يعظ به العمال والفلاحين في مدرسة الجامع، فقاطعه أمين قائلاً إنه لا يتفق مع منهجه في تحفيز البسطاء على الثورة. واستأنف بقلق وتوتر:

- أنت تحرض البسطاء وتدفعهم إلى الانتحار. ماذا لديهم؟ سلاح عتيق لا يصلح لصيد العصافير، ووضع دولي متحيز، وجو عربي ممزق لا يعبأ بهم؟ يا سيدنا الشيخ، أنت تجازف، من يراكم؟ حتى في القدس لا أحد يهتم أو يحس بكم؟ ماذا تفعلون وأنتم قلة؟ لماذا التضحية بلا طائل؟ لماذا الموت بلا مقابل؟ وأخي هذا لماذا تورطه؟

امتعض وحيد لكن الشيخ هدّاه وتولى الدفاع. قال بهدوء:

- في القدس زعماء نيام سنصحهم، وأصحاب نفوذ ومصالح سنواجههم، فماذا فعلوا في المؤتمرات؟ ولجان التحقيق المنتدبة وخداع الانجليز ونواياهم في إقامة وطن بديل لليهود الغرب على أنقاض أمتنا وعروبتنا، ماذا فعلوا مقابل ذلك؟ يفاوضون؟ يفاوضون من الصليبيين؟ ألا يعرفون أن قلب الصليبي الحاقد لم يتغير؟ بالنسبة لهم كما لليهود نحن الكفرة، نحن الأغيار، دمنّا حلال، غزونا حلال، أرضنا حلال وأرزاقنا، وتجريدنا من كل غال ومقدس. هم واليهود جاءوا إلينا بهذا المفهوم، فهل نرضخ أم نشحذ قوانا ونقاوم؟ وكيف نقاوم؟ بالمظاهرات؟ بالمؤتمرات؟ بالعرائض؟ أنا لا أرى إلا السلاح طريقا ينفعنا. جربنا كل التجارب. حاربنا معهم للخلاص من تركيا فماذا نلنا؟ كذبوا علينا وخدعونا وأهانونا وقسموا بلادنا كذبيحة فعدنا قبائل. رحمة الله على تركيا، على الأقل كنا أمة وكان الإسلام منارتنا. أضأنا العالم ثم خبونا فانتشر الظلم. فماذا نفعل الآن وقد ضعنا؟ نركع؟ ننخ؟ نسكت على الظلم؟ نخرس وننشل ولا نقول كلمة الحق في وجه الضلال والمستعمر؟

وارتفع صوته وتهدج فأحس أمين بالغرفة تنزّل:

- اسمع يا بني، بلدنا تضيع من أيدينا. باعوا فلسطين وباعونا. وها هم

ينتزعون أراضينا قطعة قطعة. اتفاق مكتوب بين اليهود وبين السلطة. الانتداب يسن القوانين ويشرعها، وتكون النتيجة إفقار الناس ونزوح القرويين عن أراضيهم. ألوف الفلاحين لجأوا لحيفا لإيجاد عمل فضاءوا فيها. بدأوا بتهجير القرى والفلاحين وغدا يصلون إلى حيفا ويافا وعكا وكل فلسطين. زعماء القدس يظنون أن الدور لن يصلهم لأنهم لا يفكرون إلا بالكسب والمصالح. قل لي من باع وادي الحوارث وأراضي العفولة وقصص وطبعون وشطا والزبيدات وجبل كنعان؟ قل لي من باع مرج بن عامر؟^٥ قل لي من تاجر مع اليهود وشاركهم؟ لا تستدر بوجهك عني، أنا لم أقصد شركة خالك، خالك واحد من طبقتهم. والغريب في الأمر أن كل الأحزاب نبعت منهم. يسمون الأحزاب قومية فأين الإسلام؟ زمن الإسلام كنا وحدة، من الأناضول حتى السودان حتى اليمن حتى المغرب. في زمن الانجليز عدنا قبائل. فلو استرجعنا منارتنا وتمسكنا بعري الإسلام لعدنا أمة وتفوقنا. هو الإسلام ناصرنا ومخلصنا فلتتمسك بعري الإسلام.

سأله أمين، وهو يلهث:

- يعني الإسلام سيخلصنا؟

أجاب بثقة:

5 راجع يوميات كل من: أكرم زعتر، محمد عزت دروزة، خليل السكاكيني، فيصل الحوراني وغيرهم.

شاعر المرحلة الكبير إبراهيم طوقان عبّر عن ضمير الناس بقوله:
أما سماسرة البلاد فعصبة عار على أهل البلاد بقاؤها
يتنعمون مكرمين كأنما لنعيمهم عم البلاد شقاؤها
هم أهل نجلتها وإن أنكرتهم وهم - وأنفك راغم- ز عماؤها

- طبعاً يا بني، فإيمان الناس يوحدهم وهو يقويهم.
التفت إلى أخيه ليعرف رأيه لكن الآخر ظل صامتا يتطلع إلى الشيخ بثقة
وانبهار. فبادره الشيخ:
- لا تنظر إليه فهو منا.
وحين رآه صامتا لا يتجاوب، ابتسم وقال:
- وأنت منا. أخوك منا وأنت منا. نحن بحاجة لشاب مثلك، شاب
خلوق ومتعلم.
استدار أمين بوجهه مفكرا بقلق، فصاح الشيخ:
- اصح يا رجل. الوطن يضيع. رأيت بعينيك ما حل بالقرى
والفلاحين. .. إن نحن سكتنا على الهجرة سيحل بنا ما حل بهم. هل
تفهمني؟ هل تسمعني؟ هذا ما ستقوله للمفتي في أول مهمة تقوم بها.
قال مندهشا، وقد فوجئ:
- أنا أقول للمفتي؟ أنا؟ من أنا؟
قال بجدية وحماسة:
- وتقول أيضا للأحزاب.
نظر إليه حتى يفهمه أنه غير مؤهل، فصاح به بصوت كالرعد:
- اجمد يا رجل. أنت مثلهم وأكبر منهم. أنت ابن ناس ومتعلم. أنت
بالذات أحسن منهم. أخوك هذا أنت مثله، بإذن الله أنت مثله. اذهب
يا بني، ابذل جهدك. قل للمفتي وقل للزعماء إن العرائض والمؤتمرات
لن تنفعنا. نهج السلاح هو الأصلح.
قال بجمود وتلعثم:
- دعني أفكر.
وغادر المكان وقلبه يخفق.

استيقظ أمين صباحا ولم يجد أحدا في الدار. ولم تدم وحدته طويلا، إذ جاء شاب طويل نحيف متجههم الوجه فظ الملامح، وقال إنه مبعوث من قبل الشيخ ليأخذه للفطور قبل رحيله. وحين خرجا ورأى الشارع في ضوء النهار، لاحظ المباني المهلهلة وأكشاك الصفيح حيث يقطن المهجرون عن القرى التي أحييت إلى مستعمرات يهودية. كما رأى العمال العاطلين يتسكعون على الرصيف أو يتحلّقون تحت الشجر بكمول كثيب.

جلسا إلى طاولة أمام دكان الفوال، وطلبا صحنين حمص وكوبي شاي. وفيما هما يتناولان الفطور حدّثه الشاب عن علاقته بالشيخ، وكيف غيّر مجرى حياته. قال إنه وُلد في أسرة فقيرة لأم تعاني كثرة الأطفال وهجران الزوج، فانحرف عن الطريق السوي منذ صغره ولزم الشارع. بدأ بأعمال السرقة الصغيرة كانتشال محفظة أو سرقة الثياب عن حبال الغسيل، إلى أن التقطه رجل عصابات معروف دربه على أعمال السطو وألحقه بعصابته فبات من قطاع الطرق.

في البداية كان قليل الحيلة والدراية ثم تمرس. خلال سنتين أصبح من الأشقياء المعروفين وبات الناس يلقبونه بالزريق، لقدرته الفائقة على التخفي والانسلال من المواقع بسرعة البرق وانسياب الزئبق. وحين قبض رجال الشرطة على زعيم العصابة أخذ مكانه، وبدأ يقوم وعصابته بأعمال اتسمت بالجرأة والقدرة على ابتداء الحيل الماكرة ودقة التخطيط. ازدادت شهرته وذاع صيته، فاستغل خوف الناس منه ومن عصابته وفرض أتاوات على المخاتير وتجار المدن، واتخذ من عيون الحرامية بين رام الله ونابلس مقرا له ومسرعا لعملياته. كان ورجاله يسرحون في القرى الجبلية نهارا وينزلون في غارات فجائية ليلا، يقطعون الطرق على

السيارات، يُشَلِّحون الركاب من أمتعتهم وأموالهم، فأعلنت السلطات عن مكافأة مجزية لكل من يتصدى للزبيق أو يأتي بأخبار عنه. بالمقابل أعلن هو عن تحديه للسلطات بأن قطع الطريق على قوة عسكرية قام بتسليح ضباطها الانجليز وعساكرهم من أموالهم وأسلحتهم وفجر شاحناتهم وجعلهم يعودون إلى نابلس بملاصهم الداخلية سيرا على الأقدام، مما جعل الناس يغفرون للعصابة ذنوبها، ويعتبرون عملها نوعا من المقاومة والجهاد ضد الانتداب. ولعبت مخيلة الناس دورا هاما، فانتشرت قصص مختلفة تجلت فيها عبقرية الزبيق وجرأته وقدرته على تحدي الانجليز ومقاومتهم. وكان وزملاؤه يسمعون تلك القصص ويستلهمون منها مادة قابلة للتطبيق، حتى امتلأت أحاديث الناس بمآثرهم. ثم سمعوا أن شيخ الجليل ذكرهم بالخير وامتدحهم ولقبهم بالأبطال والمجاهدين. استثارت تعليقات الشيخ فضولهم ودهشتهم، فجاءوا متخفين واندسوا بين المصلين ليتعرفوا على الشيخ ويستمعوا لمواعظه وأفكاره. وكانت تلك هي البداية، إذ تغلغت كلمات الشيخ في وجدانهم، وجعلتهم يقتربون من الشيخ ويكشفون له عن هويتهم. رحّب الشيخ بهم واحتواهم وغير أسلوب حياتهم. وها هو ورفاقه مواطنون صالحون يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويهبون حياتهم للدفاع عن حقوق الناس وممتلكاتهم ويتصدون للإنجليز ومستعمرات اليهود.

حين لم يجد في ملامح أمين ما يدل على الانبهار، قال بحماسة شديدة أن لديهم تنظيما يمتد من حيفا حتى نابلس ولو استطاعوا الوصول إلى القدس لشكلوا جبهة عريضة تعجز عن دحرها قوات الانجليز وجيش اليهود.

ابتسم أمين لمعرفة ما يرمي إليه الرجل، فصاح الآخر مؤكداً أن لدي اليهود جيشاً مدرباً أحسن تدريب وضباطاً تدربوا في أوروبا وجهاز مخابرات وسلاح حديث، وأن عليهم الاستعداد لمواجهةهم وقد بدأوا صاروا قوة. خيرة الرجال صاروا معهم.

ابتسم أمين ثانية، فقال الآخر معترفاً أن تنظيمهم يضم اللصوص والمشردين أمثاله، وهذا ما لا يخجلون منه، لأنهم أصبحوا شرفاء وأتقياء بفضل الثورة والإيمان. وحين رأى أميناً ما زال يبتسم بشك لفت نظره إلى بيوت الصفيح، وقال صارخاً وهو يحملق كالمجنون إن أعشاش الدجاج أحسن من تلك البيوت، فهي في الصيف نار، وفي الشتاء حل ودلف ومزاريب. وأتبع ذلك بقوله، أنه لا يرى حلاً للفقر إلا الجهاد أو السرقة. إما أن يصبح الفقير شقياً وقاطع طريق أو أن يصبح مجاهداً في سبيل الله وسبيل الوطن. أما أن يبقى الفقير على فقره، فهذا برايه ندالة وجبن وهبل. وأنهى قوله، صائحاً:

- اذهب للقدس، وقل هذا إما الجهاد أو السرقة.

سأله بذعر:

- ماذا تقصد؟

قال بحدة:

- لا تتغابي. أنت تفهم ماذا أقصد. لدينا رجال ولديهم المال. نحن بحاجة لتلك الأموال.

سأل بدهشة واستنكار:

- يعني أهددهم بالسرقة؟

ابتسم لأول مرة وتجدد أنفه وبانت أنيابه فبدأ قبيحاً مثيراً للذعر. فقال أمين متمماً باكتئاب:

- هذه إذن تعاليم الشيخ!
صاح وهو يلوح بيده:
- وما شأن الشيخ؟ الشيخ يعدهم بالجنة، وأنا أعدهم بأرض فلسطين.
اذهب للقدس، وقل للزعماء ما سمعته. قل الجهاد أو جهنم.

3 3

كان منقسماً بين طرفين، وأضحى الآن بين ثلاثة. ثم اكتشف طرفاً رابعاً لم يخطر له على بال. ابن صاحب سكن الطلاب، وهو شاب صموت ومثقف، ولا يراه إلا والكتب تحت إبطه، جاء ليقول لهم إن المفتي وكل الزعماء يدعون لاجتماع خطير، وإِنَّه وأباه وزملاءه سيتوجهون بعد ظهر اليوم إلى البلدية للاطلاع على بيان الأحزاب.

مشى التجار في المقدمة، ومشى الطلاب في الخلفية. أما محمود فسار بعيداً عن أبيه والتجار، وكذلك بعيداً عن الطلبة. وربما كان اختلاف السنّ ونوع العمل هو ما جعله يبتعد عن الطلبة وعن التجار مسافة خطوات. فتذكر أمين ما سمعه من البقال وبعض الطلبة. قالوا بلشفيك، قالوا مسكوب، قالوا كافر، يعني بلا دين ولا أخلاق ولا وطنية. قالوا البلشفيك لا يحترمون الكبار ويتمردون على العيلة ويكرهون الأغنياء مهما كانوا، عرباً، يهوداً وفي أي مكان، وينقمون على السلطة. لكن محموداً - كما قالوا - شاب خلوق ومتعلم، يقول الصدق، ويحترم الناس، ويعمل بصمت ضد الانتداب والحكومة. وقالوا أيضاً أنه سجن مرة وحُقق معه عدة مرات وهذا ما جعل أباه غير راض عنه ويتأفف من سلوكه.

وصلوا البلدية، وكانت القاعة تغصّ بالناس من كل الطبقات والاتجاهات. كانت الغالبية من أصحاب المهن الصغيرة وحرف التقديس والسياحة. فهذا نجار ينحت الصلبان وتمائيل العذراء وقبة الحرم والقيامة، وذاك رسام للأيقونات، وآخر بيّاع للكعك والبيض والفلافل، وعشرات المعلمين والطلبة، وشيوخ وخوارنة وعمال بناء. كلّهم جاءوا لهدف واحد، وهو الدفاع عن أرزاق الناس وعروبة فلسطين. كانوا يرون البلد تهرب منا، وأثمّهم في سوق العمل لا يضاھون اليهود، وأن الحكومة تعمل ضدهم، وأن الانتداب بات لعنة، وأن على القادة أن يجيبوا عن السؤال الصريح: ماذا نفعل؟

دخل التجار واندسوا بين الوجهاء في أول صف، وتوزع الطلبة بين عدة صفوف. للصدفة، جاء مقعد أمين بجوار محمود ابن الجيران. تلفت حوله، ولم يجد أحدا يستأنس به، فالتفت لمحمود وابتسم له فقال الآخر: "أهلاً" وهو شارد الذهن ومتململ.

فجأة عمّ المهرج والمرج وتململ الناس في مقاعدهم. اندفعت مجموعة من الرجال المسلحين وشقت طريقها بسرعة وجلبة بين الصفوف يتوسطها عدد من الزعماء بالبذلات البيضاء والطرايش وعصي الوجاهة. تذكّر على الفور هيئة خاله سوى أن هؤلاء أرقى وأوجه لأنّهم يتكلمون الفصحى بلا تلوّك، ويتحدثون بالسياسة والشأن العام ويدعون الناس للإضراب والتظاهر.

وقف الخطيب، وقال للناس بلغة مقعرة ذات زوايا تنعم بالسجع والتفاخر، إن العرب خير أمة أخرجت للناس، وإن فلسطين هي أرض الأنبياء والمرسلين، منها عرّج النبي على فرسه وانبثق النور من الجلجلة حيث صلب المسيح. وأطنب الرجل في تقرّظ أرض السلام

والمحبة وعدد ما فيها من مآثر وتاريخ مجيد حتى تململ بعض الطلبة، وقال أحدهم: طيب، وبعدين؟! فنهزه رجل بصوت آمر: "أسكت، بلا صوت، خلىنا نسمع."

أنهى الخطيب خطبته بأن أعلن عن بدء الاجتماع بأي من الذكر الحكيم. تنحى البعض وسعل آخرون وتهامس شبان، وتطلع الفضوليون حولهم ليعرفوا من حضر ومن لم يحضر. وسلّم الوجهاء على بعضهم أثناء صعود الشيخ الضرير إلى المنصة. لكن الصمت حلّ فجأة مع بدء التجويد، فجوّد الشيخ بصوت جيد فطرب البعض، وقالوا "الله!" وما كان الشيخ، ولا حتى الخطيب ذو السجع الفخيم بحاجة لكل ذاك الجهد لإقناع الناس، فقد كانوا مقتنعين فعلا وأصلا ولأبعد حد، لأن الدماء سألت على الأرض ورأوا بأعينهم شفق الشهداء، ولأن الانجليز ضربوهم من على الخيل بالكراييج وطاردوهم ورموهم بالرصاص واعتقلوهم.

جوّد الشيخ وزاد وأطنب، فقال البعض له: "أحسنه". فاسترسل ومال على الجانبين وهو يقلقل فننّذ صبر بعض الطلبة، وقالوا: وبعدين؟! فنهزه الكبار، وقالوا: إذا قرئ القرآن فاستمعوا. فاستمعوا للشيخ رغما عنهم.

أخيرا انتهى الشيخ من تجويده وسحبوه عن المنصة بين ثناء الوجهاء وبسملة الحضور. ثم صعد الخطيب ثانية، وبدأ وصلة جديدة من الترحيب والتقريظ للزعماء لأن أحدهم يمتد بجذره للحسن والحسين، وآخر يمتد إلى خالد، وآخر يمتد لإبراهيم. وأخيرا قال إن الانجليز يحابون اليهود، ويهبونهم أرض المشاع، ويوظفونهم في أرقى المناصب، ويشجعون السّياسرة على بيع الأرض، ويسمحون لليهود بالهجرة

وتهريب السلاح. فقال أحدهم: مفهوم، مفهوم! وقال آخر: طيب
وبعدين؟

بدأ الناس يتلململون في مقاعدهم لأنه مضى على الاجتماع أكثر من ساعة
ولما يسمعون من الوجهاء والقادة كلمة واضحة تقول لهم ماذا يفعلون؟
ثم وقف أحد الشعراء وألقى قصيدة لعن فيها سيطرة الأرض وبائعها
وحكم الانجليز ومكر اليهود، وقال إن الشهداء هم الجنة وإن فلسطين
تناديهم وجبال القدس تهيب بهم، وظلال الأقصى والصخرة وأجراس
القيامة تدق لهم، فليهبوا للحرب وامتشاق السيوف، وليدكوا الأرض
ويزلزلوها تحت أقدام الأعداء؛ ليعرفوا أننا أمة لا تسكت على ضيم وأن
اليهود أبناء رجس وشياطين.

دوى التصفيق ودمعت أعين، وقال الزعماء باتزان مهيب " أحسنت،
أحسنت. " فصاح رجل وقد عيل صبره: أعطونا سلاح! وصاح
آخرون: أعطونا سلاح.

وقف زعيم من الصف الأول ببذلته البيضاء وطربوشه واستدار بجذعه
للعمامة ومد ذراعيه يهدئهم، وقال: صبرا يا شعب، صبرا، صبرا. ووقف
آخر وسط القاعة بلا طربوش ولا بذلة وصفق بيديه، وقال: هش هش.
فلم يفعلوا لأنهم كانوا قد فقدوا الصبر ويريدون جوابا صريحا عن
سؤال بسيط: ماذا نفعل؟

أخيرا اتفق قادة الأحزاب على أن يقف أحدهم ليقرأ البيان المتفق عليه،
فأخذ يقرأ. وسمع الناس ككل مرة أن المطلوب هو الاستنكار وتوقيع
العريضة وتوكيل فريق الزعماء للتوجه للحاكم الانجليزي، والطلب

منه بأقسى لهجة أن يمنع السمسرة وبيع الأرض.⁶
صاح محمود ابن الجيران بدون سابق إنذار وسط وجوم الزعماء
ودهشتهم:

- لماذا لا تبدأون بأنفسكم؟

التفت الناس إلى المصدر وساد صمت أعقبه هياج. هذا يقول: الحق
معه، وآخر يقول: ابن أبو محمود، وثالث يقول: بلشفيك كافر.
وقف من قال لهم: هش، هش أول مرة وأعاد القول: سَمع يا ناس.
فصمتوا لحظات ليستمعوا، لأنهم كانوا بحاجة للمزيد ولم يشبعوا من
بيان معاد وقول معاد وآيات ذكر وقصيدة. كانوا يريدون فعلا حقيقيا
يقنعهم أن الأمور ستتحسّن. لكن الأمور لم تتحسّن، على الأقل في ذاك
الاجتماع، لأن الخطيب صاح بمحمود ابن الجيران:

- أنتم البلشفيك مثل الحية من تحت التبن. تثيرون الفتنة بين الناس
وتقسمون العرب إلى عربين. أنتم خونة.

وقف أبو محمود من الصف الأول وهم بالخروج من القاعة، فشد
الزعماء بقنباذه، وقالوا: اقعد، ابنك مسكين، لعبوا بعقله. فقعد على
مضض بانتظار أن يتراجع الخطيب عن أقواله، لكنه لم يتراجع إذ عاد
إلى القول:

- أذئاب المسكوب بلا إسلام ولا وطنية. أذئاب المسكوب بلا أخلاق.
هم مثل اليهود، الواحد يتزوج أخته.

6 - أنتم رجال خطابات منمقة كما علمنا وأبطال احتجاجات!
وقد شبعتم ظهورا في مظاهرة مشروعة وسكرتم بالهتافات!
أضحت فلسطين من غيظ تصيح بكم خلوا الطريق فلستم من رجالاتي

فوقف محمود ولوح بأوراق في يده، وصاح بحدة:
 - معي قائمة بالأسماء. قولوا للناس الحقيقة. قولوا الواقع.
 صاح الخطيب:
 - يشقون الصف، هذي خيانة. البلشفيك لا دين لهم. الواحد يتزوج
 أخته.

لوح محمود بقائمته، لكن أحدهم كان أسرع. هجم واختطف القائمة
 ومزقها وطير القصاصات فوق الرؤوس، فعمّ اللغط واحتدّ الهياج.
 وانتقل غضب الناس من الانجليز ومكر اليهود إلى البلشفيكي ابن أبو
 محمود لأن البلشفيك أقبح ذنبا فهم بلا دين ولا وطنية ويحللون الزواج
 من الأخوات. استغفر البعض واحتدّ الخطيب، وقال: ملعون، ملعون،
 هذا شيطان، ملعون، ملعون. فوقفت مجموعة من الرجال وسحبوا
 محمود من كتفيه ومن ظهره ودفعوه دفعا نحو الباب، وهم يصرخون:
 ملعون، ملعون.

وقف أبو محمود وهمّ بالخروج، فامتدت أيدي لإيقافه. انتزع نفسه
 بالقوة ومشى بسرعة ليلحق بابنه، وأقوال الخطيب تهب به أن يعود إلى
 الجمع، لأن التهمة لا تنطبق عليه، فهو رجل محترم وصاحب أخلاق
 ومتدين.^٧

7 راجع "الأحزاب السياسية ومسيرة الحركة الوطنية" في القيادات
 والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917-1948 لبيان الحوت.

كان من الصعب على أبو محمود أن يتقبل ثورة ابنه. لكن الأصعب والأقسى هو أن يقف ذاك الموقف، فهو مع ابنه ضد الناس، ومع الناس ضد ابنه. لكن، حين تصبح سمعة العيلة على المحك فيتهم فرد منها بأنّه خائن، فهذا يعتبر أكبر تنكيل بالحمولة. لديه بنات يخاف عليهن، ولديه عائلة طيبة الذكر، ولديه قبل وبعد كل شيء تجارة ناجحة في خان الزيت. فإذا توقف الناس عن الشراء منه وخطة بناته والنظر إلى عائلته بشيء من الشك والتوجس، فماذا يبقى؟ يبقى النبذ والفضيحة وبوار البنات.

جاء محمود وقال لأبيه إن الاجتماع كان مهزلة، وإن الزعماء يضللون الناس ويوهمونهم إتهم سيجدون الحل، مع أن الحل بعيد عنهم، لأن فلان جاء بتوظيف من الحكومة، ولأن المعارضة اخترعها الانجليز، ولأن القوميين لا يفهمون أن الدنيا ميزان قوى وأتهم خسروا الميزان بمعاداتهم الانجليز والمسكوب وأن الألمان أسوأ من الاثنين، لأن الألمان مع تركيا، ولأن تركيا تكره العرب بعد أن تأمروا عليها مع الانجليز ودحروها. وسأل والده محاولاً إقناعه بلغة العقل: إذن يا والدي، من بقي لنا؟ قال أبو محمود بإيمان عميق:

أمة العرب والمسلمين. سأله محمود مبتسماً: إذن يا أبي، لماذا حاربتكم تركيا المسلمة؟ لم يجب الأب فعاد الابن يلح عليه: ووقفتم مع بريطانيا المسيحية ضد الأتراك! هزّ الأب رأسه، وقد بلبله القول، وقال بأسف: كانت غلطة. سأله ساخراً: يعني استعمار تركيا كان نعمة؟ رد الأب بحسرة ونقمة: على الأقل كنا بلا يهود. علق همساً: بعض اليهود أحسن منا. سمعه أبوه فصاح مهدداً: إياك أن تقول مثل هذا الكلام. أتبرأ منك. أنشرها بكل الجرائد. أحرمك الميراث واسم العيلة. إحنا

.....

ناقصنا؟ سوّدت وجهي قدام الناس، يسوّد وجهك. غور من وجهي.
 فغار محمود من وجه أبيه وصعد إلى السطح ليتنفس، وهناك التقى
 بجمع الطلبة، وكانت سهرة امتدت للصبح.⁸

8 المشهد مستوحى من "الفصل ٣" من الوطن في الذاكرة لفیصل حوراني.

عالم ضيق

عادت وداد لدار العيلة. نصحتها ليزا بالعودة لأنها خافت من اقتراب موعد ولادتها، كما أن البقاء في غرفتها لن يحل المشكلة أو يجد الحل. قالت لها: ماذا تريدين؟ تريدين الطلاق؟ تريدين حياة جديدة؟ تريدين شروطا لرجوعك؟ ماذا تريدين؟ حين لم تجبها، قالت بأسف: وماذا بعد؟ ماذا نفعل؟

ماذا نفعل؟ فعلا وحقا هذا هو السؤال: ماذا تفعل؟ تعود إلى الزوج؟ هذا مستحيل. تعود إلى دار العيلة لتعيش مع الأم؟ أيضا مستحيل. تظل عند ليزا مختبئة بين جدران الغرفة؟ أهذا هو الحل؟

في البداية، كانت تتوقع أن يكون هذا هو الحل، فليزا المنطلقة ستطلقها مثل حمامة في سماء القدس. هذا ما كانت تحلم به. وهذا ما كان في البداية. أخذتها ليزا إلى المظاهرة والجمعيات النسائية ودارت بها في شوارع القدس القديمة والحديثة وعزمتها على الغداء وأكل البوظة. وفي كل مرة كانت تحكي لها عن حياة القدس وحياة العمل والحرية. هنا أصدقاء وزملاء عمل، وهناك اجتماعات وحركة ونشاط وانطلاق جميل، فلا قيود ولا مشاكل ولا ذل الزوج وحساب الأهل والتزمت. فخلعت منديلها واستبدلته بشال صغير وجاكت قصير.

في جو القدس لا أحد يعرف من هي وما قصتها. يرونها برفقة ليزا، فيصافحونها ويبتسمون لها ثم يلتفتون إلى ليزا ويواصلون حديث الأمس والسياسة وما يطرأ على الساحة من أحداث. هذا ما كان في البداية. لكن مع الوقت، عادت ليزا لبرامجها وصارت تغيب عن الغرفة حتى المغرب وأحيانا بعد ساعات من حلول الليل. وصارت هي تشعر بالملل ثم بالخجل ثم بالخوف. أخذت تراجع موقفها، فهذا الوضع لن يطلقها مثل حمامة في سماء القدس كما حلمت. هذا الوضع لن يتغير

ويغيرها. إذن ما الحلّ؟

قالت ليزا: الحلّ لديك، اتخذني القرار وضعي خطة. ماذا تريدان؟ تريدان حياة جديدة؟ وماذا تفعلين بحياتك وحياة ابنك؟ أين تعيشين؟ ماذا تعملين؟ من يصرف عليك وعلى ابنك؟ أم تكونين عبئا على إخوتك؟ لا بد أن تحددى ماذا تريدان. قالت بحيرة وسداجة: أريد أن أصبح مثلك. سألتها ليزا بدون ابتسام: طيب، عظيم، ولكن كيف؟ أنا تعلمت في الجامعة ثم سافرت إلى لندن ثم أميركا واعتدت العمل والحرية. أنا لي أجوائى، لدي وظيفة ولدي نشاط في الجمعية ولدي ارتباط سياسي. فلنكن واقعيات ونبحث عن حل مناسب.

سألتها بحيرة وأمل غامض: وما هو الحلّ؟ قالت بحزم وجدية: هذا بيدك، بيدك أنت لا بيدي. ماذا تريدان؟ تريدان الطلاق كخطوة أولى؟ وماذا بعد؟ بعد الطلاق ماذا تفعلين بحياتك وحياة ابنك؟ بإمكانى إلحاقك في الجمعية. لدينا برامج مهنية لتأهيل النساء، كوافير، سكرتاريا وخياطة. قالت بأنفة واستهجان: أنا خياطة؟ أنا كوافيرة أقص الشعر؟ وسكرتيرة، أنا لا أجد الطباخة. قالت ليزا بصبر نافذ: تتعلمين.

عقدت حاجبيها وتلوت. كانت قد اعتادت حياة الكسل والبلادة. تجهئها الأشياء بلا مجهود. تجدها أمامها، فتأخذ منها ما يحلو لها ثم تتصرف باستعلاء، كأن تقول: أنا لا أريد هذا وهذا. لا أريد الذهب والجواهر. لا أريد الحرير والمخمل. لقمة وزيتونة وحصيرة أفضل من كل هذا الذهب والجواهر وحياة الكذب. كذب بكذب. حياتي كذب، زواجي كذب، العزّ كذب، وحب الأهل كذب بكذب.

أخذت تتخيل حلول ليزا المقترحة، فانزعجت وأحست بالغضب واكتئاب شديد. إذ أنّها لم تحلم قط أن تستبدل موقعها المريح بمهنة

حقيرة كالحياطة وقص الشعر والطباعة. صحيح أن أمها عاشت سنوات وهي تخطط الملابس وربتهم من عرق الحياطة ورقع القنايينز، وكانت هي تساعدنا آنذاك. لكن بعد الزواج، وبعد أن عاشت بطرانة باتت تحس أن الحياطة لم تخلق لبنات العزّ، بنات العيلة. هي تستعوض عن واقعها بواقع أسوأ؟ بمهنة حقيرة؟ تعود إلى الفقر والعمل والجهد مثل خدّامة من الشارع؟ صعب جدا. وحين تنظر في وجه ليزا لترى ردة فعلها على موقفها ترى الأخرى تتأملها بصمت يائس، فتحسّ بحقد لا تفهمه وتكرهها.

ثم جاء أمين وأخذها لدار العيلة.

استقبلتها الأمّ بالدموع والعتاب ومزيج من الغضب والخوف. إذ ماذا بعد؟ ماذا تفعل هي بابنتها وماذا تفعل ابنتها الآن؟ هل تتطلق؟ هذا أبعد من أي احتمال، إذ لا يمكن أن يطلقها رشاد مهما فعلت. تحرد، تهرب، تتجرع السمّ أو تحرق نفسها أمام عينيه، لن يتحرك. لن يطلقها، لا حبا فيها ولا كرما منه، بل لأن الطلاق أبعد ما يكون عن التقليد. سمعة العيلة لن تسمح. قال أخوها في آخر لقاء: أولادنا يا أختي، أولاد صغار، لا يعرفون مصلحتهم. أنا وأنت يا أم وحيد، لن نسبح بالعيب ولن نرضى به. أترضين أن يقال بنتك طالق؟ أترضين أن يقال طعام بايت؟ صرمة قديمة؟ ممسحة استعملها ورمها؟ ستعود وداد مهما غابت. أين اختفت؟ أنا أشك بابنك أمين. هل سألت أمينا؟ لم تجب عن السؤال حتى يظل على اعتقاده أن ابنتها، زوجة ابنه، حردانة

ومختبئة في بيت أمين. وهي أيضا تشك، أو تتمنى، أن تكون ابنتها في بيت أمين. لكنها تعلم قبل كل الناس أن أميناً لا بيت له لأنه يعيش مع زملائه في دار مشتركة ككل الطلاب. لكنها ظلت على صمتها، وقالت بعد حين، وهي تنظر في فنجانه: ابشر يا حج، بعد إشارتين أو ثلاث، بشارة كبيرة، طير محمل بالرزق والخير، بقجة بيضا ومكتوب كبير مجلل بالبياض، بياض بياض. ابصم في القاع.

بصم وابتسم، وهو ييسمل، فابتسمت له بسمة غريبة، بسمة مندهشة ومبهورة. وهزت رأسها عدة هزات، وقالت بعجب: سبحان الله! نفس الإشارات في فنجاني، صدق وآمن يا أبو رشاد إن بشارتك مثل بشارتي وفنجانك بالضبط أخو فنجاني. طير محمل وبقجة بيضا ومكتوب كبير وبياض بياض. قل يا الله، وحد الله.

قال بإيمان وسعادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وخرج من عندها منشرح البال.

34

جلست في الحضير ونظرت للسماء. سماء زرقاء صافية وأوراق الليمون والخشخاش تبرقشها فتبدو سوداء تحت الأزرق. رائحة الزهر تدير الرأس فتخدرها وتغيب عن الواقع لحظات ثم ترتد بارتطامه حين تحسّ بركلات الطفل. ما عادت تتمنى إسقاطه والخلاص منه كما كانت تفعل خلال أشهرها الأولى. بدأت تحسّ أنّه موجود وله شكله وملاحه وعينان زرقاوان مثل جده. تتمنى له عينين زرقاوين أو خضراوين تتميزان عن كل الناس. معظم الناس بعيون سوداء أو عسلية، لكنه هو، أو ربما هي، كما حلمت قبل يومين، ستكون بعينين ملونتين كلب الفستق.

رأتها في المنام مثل اللعبة، بيضاء شقراء بعينين خضراوين مفتحتين مثل القطعة. ما كانت حديثة الولادة، بل كانت ابنة شهرين أو ثلاثة وربما أكبر. كانت تضحك وتلوح بيديها البضتين وأصابع بيضاء شفافة مثل الحلقوم ولعابها يسيل من شفتيها، شفتان حمراوان بلون العناب وشعرها يتلولب في حلقات. طفلة جميلة، أجمل بكثير مما تمت. وحين حملتها إلى صدرها وأحست بطراوة ملمسها ودفء وردي على صدرها امتلأ قلبها بحب دافق، دافئ، حساس، غمر كيائها حتى امتلأت. ما عادت تحسّ أنّها فارغة في الداخل، ولا أن الدنيا باردة والظلام كثيف، بل إن العالم بدأ يضيء والعيش فيه ما عاد مملا كثيبا والناس قساة.

صارت تحسّ أن في الكون من يحبها وهي تحبه، يحبها هي من دون الناس، يتعلق بها، تتعلق بها، لا تتركها ولا لحظة. ستقول لها "ماما، أمّه." ستلحق بها أينما ذهبت. ستشد بذيلها حين تخرج، وتمسك بيدها حين تمشيان في عرض السوق، وتأخذها معها إلى الحَمَّام، حَمَّام البلد حيث النسوان والبخار والضباب وصدى الأصوات والطاسات والصابون، ورائحة التوابل والحناء وشراب الورد والليمونادة حول البركة، وزهر الليمون فوق سطح الماء، وكوات الزجاج تلمع في السقف فتضيء عيني طفلتها مثل زمرد يلمع في الشمس، فتبسمل النساء وتصلي على النبي من هذا الجمال وتلك الخلقة. "صلوا على النبي"، تصيح امرأة، فتنهمر الصلوات من كل اتجاه، وتقول الحممجية، وهي تمسك بوعاء البخور: هات البنوتة لأرقئها.

35

قالوا هربت. قالوا انخطفت. قالوا ضاعت. قالوا سقطت. وحتى تثبت الأمّ أن ما قيل ليس صحيحا قررت أن تذهب بابتنتها لحمام البلد - مجمع النسوان ومنبع الحكايات والفضائح - لتثبت لذوات اللسان أن ابتنتها موجودة ومستورة وفي أحسن حال، فلا هي ضائعة ولا مخطوفة، بل هي محترمة ومصونة لأنّها حامل. فهل الحامل تدور في القدس مثل البطالات بشعر أشقر؟ وداد ما زالت بصفائرها، بشعر أسود لم تصبغه ولم تكويه ولم تقصه مثل النساء السافرات، بل احتفظت به طويلا مجدولا بصفائثر. وحين تفرده في الحمام كي تتغسل وتحلع ملابسها ويرون بطنها منفوخا كالقربة سيخرسن ويخجلن ويطوين القصص. وإذا سألنها ستقول لهن

إن ابنتها جاءت عندها لتولِّدها، وهذا طبيعي، ألا تفعل كل النساء مثل ذلك؟ تذهب الحامل عند أمِّها لتولِّدها ثم تعود بالطفل إلى زوجها ودار حماها مثل كل النساء. هذا هو الحال، فمن لديها قصة مختلفة فلتفضل وتطوِّبها، لأن الصحيح أن ابنتها محترمة ومصونة وتغرق بالعزِّ والذهب والألماس ودسِّة مباريم وسلسلة ذهب بنهايتها "ما شاء الله".

وهكذا، حين دخلتا الحَمَّام، كانتا قد استعدتا لذلك الموقف. ذهب ومباريم وسلسلة ذهب وبقجة مليئة بالملابس كلّها مقصبة وجديدة من مال الشام. ومال الشام فيه أشكال واللوان وفيه المقصَّب والمذهب والراحة والحلقوم والمشبِّك. في آخر زيارة لتجارة عاد منها الخال أحضر معه ما لذَّ وطاب من حلويات شامية وسبع حقائب ملاءها بالشراشف والملاحف والقرن المطرزة والبقايب ذات الأجراس. وحتى يرضي ابنة أخته، أي كنته، جاء لها بشنطة كبيرة من الوزن الثقيل مليئة بالمقصَّب والمذهب والفسق الحلي والحلقوم، وطبعا بقجة عليها آيات كريمة مشغولة بالقصَب والذهب وعبارات تفتح النفس للاستحمام، مثل: حَمَّام الهنا، ويا سعده من دخل الحَمَّام.

سمير الصغير ذهب معها كي يحمل البقجة ويستحم هو الآخر، مع النسوان، لأنَّه ما زال ولدا صغيرا ولم يبلغ بعد، وصوته رفيع مثل النسوان. كان فخورا بما حملت يدها، فمشى أمامها يقفز قفزا مثل العصفور، ويتلفت يمينا وشمالا ليرى تأثير حملته على أهل السوق، وأمّه خلفه ببطء ملحوظ حتى لا تسبق ابنتها، ووداد تجر جر قدميها مثل النائمة بلا إرادة. كانت قد انصاعت لإرادة أمِّها بعد فشلها ورجوعها من عند ليزا مكسورة الجناح والخاطر. وكان الحمل وانتظار الطفل ونظرات الأمِّ المستاءة قد أعادوها إلى موقعها، مثل السابق،

امرأة مقهورة مكسورة تمشي بذهول بلا إرادة. لكن التعليقات أيقظتها ولهاث الأمّ ودمدماها خلف المنديل وهي تستغفر وتتشهد مما سمعت. كانت قد سمعت كلاما جعلها تهتزّ من الغضب والغيط من ابتتها وعلى ابتتها. سمعت النجار يقول للمنجد: بنت القحطان قالوا رجعت! فرد الآخر بهتاف جبار كأذان السحور: يا مثبت العقل والدين، استر يا رب. ولم ينته الأمر عند ذلك، إذ سمعها أجير الفران فأخذ يغني: يا ريتني طير لأطير حواليك، مطرح ما تروح عيوني عليك.

دخلتا الحمام فاستقبلتهما الحممجية كالعادة. امرأة شمطاء بشعر مقسوم إلى نصفين: النصف العلوي أبيض كالليف، والنصف السفلي محنى بحنة حمراء سعودية، قيل إنّها المفضلة عند النبي، فاعتمدتها. لكن انشغالها بتحنية النساء وتكيسهن وتحفيفهن وصناعة تحاميل البيض والزنجبيل لفروجهن وتلاوة الرقيات وكتابة الحجب جعلوها تنسى شعرها وتنشغل بشعور الأخريات وأعضائهن وما تتطلبه تلك الأعضاء من تنف ودعك ومراهم.

استقبلتهما الحممجية بالصلوات والدعوات، وصلاة النبي على هذا البطن، وما شاء الله والحامي يحميك ويحميها، وطوّلت الغيبة يا أمّ وحيد اشتقنا لك، واسم الله ابنك صار طولك، صار فرخ شاب وهذي آخر مرة يبجي معكن بين النسوان. اسم الله ما شا الله يخزي العين، وبر الشارب صار معلّم، وبكرة يشوك مثل القنفذ، والوتد يشد ويهد الحيط. ولّه يا عكروت، جاي تتصبب؟!

ابتسمت أمّ وحيد وهي تأخذ البقجة عن رأسه، وتغمز له وتهمس بخبت: زي القنفذ؟ فطأطأ واحمرّ واختبأ خلف ظهر أخته يحتمي بها من عين الحممجية ولسانها، ورفض أن يخلع ملابساً حتى لا يظهر ما ينجل

منه، وجلس على المصطبة يتفرج على القبة وكوّات الزجاج والزخارف، وآيات القرآن المنقوشة على الأعمدة وزنار السقف.

كانت الأم قد دخلت خلوة في الحَمَّام، أي حجزتها ودفعت أجرها طوال النهار. وهذا الأمر مكلف جدا إذا ما قيس بالاستحمام مع النساء في الصلاة أو في الخلوات المشتركة. لكن الأم، وكانت تخطط أن تثبت للنساء ولكل البلد أن ابنتها تغرق بالعزّ، وأنها مصونة ومحترمة، تعمّدت أن تقول للحممجية بصوت عال تسمعه كل من حضرت في قاعة الاستراحة أن إخلاء الخلوة ودفع الأجرة تم عن طريق ابنتها وزوج ابنتها، لأن زوج ابنتها لا يريد لزواجه أن تستحم في الصلاة وتنتظر الدور لاستعمال الجرن. لكن الحممجية همست لها وكأنها تفشي سرا أو تقدم النصيحة لوجه الله أن الانزواء في الخلوة لن يجديها، لأن النساء لن يروا عزّ ابنتها، وكانت تقصد "ذهب ابنتها." "لو كنت مكانك يا أم وحيد لخليتها تدور على النسوان تضيفهن من هذا الملبس والحلقوم."

سمعت أم وحيد المشورة وادعت أنها لم تسمعها، لأن الموافقة والتجاوب يعني الإقرار بما أبطن. وما أبطن في هذا النصح أن ابنتها مشبوهة ومتهمة بين النساء، وأن عليها أن ترد على الشبهة بما يؤكد براءتها أو تسترضي النساء برشوة صغيرة، واستعطاف لطيف، من خلال تقديم ملبس وحلقوم الشام. كما أن النصح يعني أن الحممجية قد سمعت، وربما شاركت، بما يقال عن ابنتها. ويعني أيضا أن الحممجية تحاول أن تثبت لها أنها معها ومع ابنتها ضد الأخريات وضد ما قيل أو يروّج عن

هرب وداد وحرد وداد وشعر وداد.

قالت الحممجية، وهي ترمق وداد وتتفحصها بكل وقاحة، وتتأمل المباريم وسلسال الذهب والماشاء الله: ما شا الله عليك وحوالك. إنشا الله بقيامك سالمة تحلينا ملبس وكنافة وهذا الحلقوم. ومدت يدها وتناولت حبة حلقوم ووضعتها في فمها بدون استئذان.

لكز سمير والدته، وقال همسا: يمه الحلقوم! فنهرته أمه: طيب اسكت. فسكت على مضض وعن غير اقتناع لأنه المسؤول عن إحضار كشكول الحلقوم والملبس رغما عن استياء أمه وتجاهل وداد، فهو يعتبر أن الكشكول أصبح ملكه. أمه قالت: هذا الكشكول لأختك وداد. سأل وداد إن كان باستطاعته أخذ الكشكول إلى الحمام، فقالت ببرود وعدم اهتمام: خذه مين سائل! وذلك تعبيرا عن عدم اهتمامها، بل ضيقها بما أحضره خالها من هدايا الشام كي يرضيها. وأردفت بتنهيد وهي تنظر إلى الكشكول بيأس وقرف: خذه الله ياخذه وياخذني. فأخذه ودسه بين المناشف والطاسات وفلق الصابون. وحين فكوا البقجة قصد أن يبرز الكشكول أمام الآخرين كي يتباهى ويأكل منه ويطعم الأولاد حتى ينال صداقتهم. لكن الأولاد، ومعظمهم بنات، ظللن ملتصقات بأمهاتهن ولم يلتفتن لسمير وأم سمير وأخت سمير. كن قد سمعن من أمهاتهن وشوشات منفرة حول أم سمير وأخت سمير، فلم يقتربن من موقع سمير وأم سمير ولم يتبهن لما في الكشكول من حلويات. وهذا ما عزز إحساس سمير بالعزلة ونفور الناس منه ومن أمه ومن أخته وداد. عزلتهم كان سببها، كما فسرت أمه وصدقها، أن الناس يغارون منهم ويحسدونهم على هذا العز الذي غرقوا فيه منذ زواج أخته وداد وأخيه وحيد.

قالت له عدة مرات إن الله كفاها شر الخياطة ورقع القنايز، لأن الخياطة هدتها وقللت قيمتها بين الناس، وأن الفضل في هذه النعم وهذا النعيم الذي باتوا يغرقون فيه ويستمتعون بأفضاله هو لخاله. فلولا خاله وغنى خاله وكرم خاله هل كانوا يلبسون كما يلبسون الآن؟ هل كانوا يأكلون كما يأكلون الآن؟ هل كانوا يبيّضون الدار ويدهنون الحديد ويبلطون الحضير ببلاط جديد، ويستبدلون ستائر الشاش بستائر ساتان وأورجنزا لولا خاله؟ هل كان يحظى بحذاء جديد وينطلون جديد وقميص جديد وحقيبة جلدية من الحميدية بدل القديمة لولا خاله؟ "خالك يا سمير أكرمنا وزاد قيمتنا أوع تنسى." فوعدها بألا ينسى، وصار يقبل يد خاله ويرفعها إلى جبينه عدة مرات حين قدومه، فيرضى عليه ويبش له، ويمد يده إلى جيبه ويعطيه شلنا كاملا كي يشتري به ما يخلو له. فينزل إلى السوق ويشتري قضاومة وشوكلاتة ويتباهى أمام الأولاد.

لكن الأولاد صاروا يغارون منه. صاروا يغارون ويسخرون منه ومن حذائه ومن بنطلونه ويدعون أنه دلوع وشايف حاله. "قالوا يمه شايف حالي." قال لأمه: "قالوا: دلوع، خرقة مرقه." فهزّت أمه رأسها عدة هزّات كي تفهمه أنها تفهم، وكي تعزز مقولاتها حول الغيرة والحسد والكيد عند الناس.

فهم الموضوع واقتنع به، لكنه لم يفهم لماذا وداد هربت للقدس. لماذا وداد تبكي دوما خلف الياasmine وشجر الخشخاش، وتشهق وتنوح؟ لماذا وداد تنهره بعنف ثم تحضنه وتعتذر له وهي تبكي حين يسألها عما بها؟ أحيانا تقول: "راسي مصدّع." أحيانا تقول: "مغص في بطني." وأحيانا تقول: "مالك ومالي، حلّ عن ديني." فيذهب إلى أمه ويشكو

لها، ويقول وداد قالت لي كذا وكذا. فتقول الأم: مالك وماها. ابعدها. فيقول بخوف: أنا خايف عليها يا أمي. فتقول له وهي تطبخ أو وهي تحممه: ما تخاف عليها ولا تحزن. بكرة تعقل. تعقل على شو؟ تعقل من شو؟ ولماذا تعقل من وجعها، من وجع الرأس أو وجع البطن أو الاثنين. وهل دواء وداد في أن تعقل أم في الدكتور؟ لماذا لا تذهب إلى الدكتور؟ لماذا لا يحضرون لها الدكتور؟ ولماذا تقول: "الله ياخذني وياخذهم"، كلما سألتها إن كان باستطاعته أن يأخذ كذا أو يأخذ ماذا؟ لماذا تتنازل عن الأشياء بسهولة؟ قبقاب الشام وحلقوم الشام ومسبحة صغيرة من الفضة ومصحف صغير مصدّف، قالت له: خذه وخذها. يسألها بحذر: أشوف القبقاب؟ فتقول بقرّف: شوفه وخذه، الله ياخذهم. أشوف المسبحة؟ شوفها وخذها، الله ياخذني وياخذهم. أشوف المصحف؟ شوفه وخذه، الله ياخذني وياخذهم. يأخذها هي سهلة على الفهم. أما يأخذهم، فمن هم؟ هل هم الخال وبنات الخال ورشاد ورشا واسحق شالوم؟ أم هم أمّه ووحيد وأمين وهو معهم؟ لكن من الواضح أن وداد غير سعيدة وتغرق بالعزّ كما تقول أمه. تقول عنها: غرقانة بالعزّ لشوشتها، وياريت يرضيها ويعجبها. مسكين خالك لأنّه حاير بين سين وجيم. ما السين وما الجيم؟ سأل أمه، فقالت: اسكت. سأل عن وداد، فقالت: اسكت. سأل عن وحيد، فقالت: اسكت. والآن يقول: يَمّه الحلقوم، فتنهره همسا، وتقول له بطرف فمها: طيب اسكت. لماذا يسكت؟ هو لا يفهم. وأيضا لا يفهم لماذا الأولاد لا يفهمون أن حذاءه الجديد وبنطلونه الجديد والحقيّة الجلد لا يعنون أنّه لا يرغب باللعب معهم في الحارة؟ لماذا يقولون عنه خرقة مرقّة، وهو الأشطر في مدرسته ولعب الفوتبول وكرة السلة؟ في

حصّة الرياضة هو الأشرط. وفي الحساب هو الأشرط. وفي قراءة القرآن والتجويد، يقول له الأستاذ: عفّارم عليك، صوتك جميل، ولا غلطة. لكن الأولاد يقولون له حين يخرجون إلى الساحة: صوتك رفيع زي البنات، أحو، أحو.

36

نظرت الأمّ إلى ابنتها ثم إلى الناس. رأت النساء في مجموعات. فلانة وبناتها وكنتها. فلانة وجارتها وصاحبته. فلانة وفلانة مع فلانة ودسته أطفال. كلّهن مع بعضهن يتسامرن ويتمازحن ويتبادلن النكات مع بعضهن، وهي وحيدة. هي وحيدة مع هذه البنت ذات النكد والبوز الممتد والبطن العظيم. آخر مرة زارتا الحّمّام، وكان ذلك قبل بضعة سنين، كانت وداد ما زالت مثل القشة، رفيعة، نحيلة، بعظام بارزة وصدر ممسوح. وها هي الآن منفوخة كقربة ضخمة وتكاد تنفجر من الحبل والحقد. ابنتها تحقد عليها وتعتبرها السبب في زيجتها. قالت لها قبل يومين: أنت السبب. أنت رميتيني ها لرمية. قالت مدافعة عن نفسها: ما حدا غصبك. ليش وافقت؟ لطمت وداد خديها: كنت صغيرة. أنا كنت خدامة لولادك. أنا كنت خدامة لك أنت. نزلت أجوبتها كالصاعقة فلم تجبها. خدامة لها؟ خدامة لأولادها؟ وهي إذن خدامة لمن؟ لمن خاطت ورقعت القنابيز؟ لمن سهرت الليل وهي تدرز وترقع وتكوي الطرايش؟ لمن انقطعت عن الزيارات والاستقبالات وأجواء الحارة ولما ت الموالد والأعراس؟ أيام المرحوم كانت تخرج يومياً من بيتها تزور هذه وتزور تلك، لأن المرحوم كان "مستتها" وكانت هي ست الستات.

كانت تدخل على الاستقبال فيستقبلنها بالقبّل والنكات وأحيانا بالغناء والزغاريد. لم يفتها استقبال لم تحضره. لم يفتها عرس لم تشارك في زفته أو نقوطه. كانت تنقط كل عروس مهما كانت ومن أي أصل وخلفية. وكن يعتبرن مشاركتها شرفا وتنازلا وقيمة كبيرة لأنّها من أصل وفصل ولا كل الأصول. أبوها الشيخ فلان الذي يعود بأصله إلى جذر النبي، وجدها فلان صاحب الطريقة والحضرة، وستها فلانة المعروفة بكرامتها وطهارتها وانكشاف السر ومخاواة الجن. وهي ذاتها، ألم تكن تكشف المخبوء في وجه القمر وتفتح بالزيت وبالفنجان؟ ألم يكن يزورها صباحا ظهرا عصرا ليلا لترقي فلانة أو تبطل مفعول حجاب عمل لفلان أو تعدل معصما مفكوكا أو ترفع اللوز بمساج الزيت؟ كانت مختارة في الحارة ثم انعزلت حين اعتزلت، لأن الدنيا لم ترحمها وأخذت منها أحلى الرجال وأغلى الرجال وأغنى الرجال. كان غنيا، وكان فنانا وصاحب كيف. يعزف القانون ويغني لها ويغازلها ويحيي لياليتها بشهواته. كانت أنثى. وكانت تحسّ بقيمتها وتبتسم بنشوة، وهو يقول: أنت الملكة وست الستات. ثم يغني: ملك قلبي وملك روحي أنت يا ملاك يا مجنني. كانت ملكة، وأيضا ملاكا، لأنّها امتلكت الاثنين: جمال الجسم، وجمال الروح. جمال لا يضاهيه أي جمال لا في العيلة، ولا في الحارة، ولا حتى في نابلس وكل فلسطين. وجمال الروح لأنّها من أصل تتجلى فيه القدرة على الوصول إلى السموات وإخاء الجن واكتشاف الغيب. كانت ملكة ثم انحدرت حين ترملت وانكسر التاج. ما عادت حلوة كالسابق، ما عادت تفتح للنسوة، ولا ترقى فلانة، أو تعدل معصم فلان، أو ترفع اللوز بمساج الزيت. ما عادت تستقبل جاراتها أو تذهب للأعراس والموالد. ما عادت تملك نقوطا لتنقط به. ما عاد لديها

الوقت لتجامل أو تتجامل. بعد الرملة، وبعد أن غدر بها كبير العيلة وسرق الذهبات والمجديدات وتركها أرملة مكسورة بكومة أولاد بلا عائل، ما عادت تفتح بيتها للست فلانة أو أم فلان. صارت غرقانة لشوشتها بالهمّ والغمّ والخياطة وقلة المال. المال مهم. المال أساس. المال حياة. لم تفهم هذا ولم تفكر فيه إلا حين احتاجت. فهمت ساعتها أن الحاجة هي ألا يكون لديك مال تشتري به ما تأكله وما تلبسه وما يحفظ وجهك بكرامة أمام الأعين وفضول الناس. صارت أرملة مسكينة بنظر الناس بعد أن كانت ملكة ومختارة في الحارة. كانت محظوظة ومرموقة. كانت محترمة ولها شأن. كانت ملجأ لذوات الحاجة المحتاجات. وحين صارت من ذوات الحاجة المحتاجات سقطت هالتها وسقط التاج وما عادوا يقولون "ست الستات." والغريب في الأمر أنّهم لم يفرحن لها حين اغتننت وعادت للعزّ بعد زواج ابنها وزواج ابنتها وقدم الخير. صاروا يقولون: شايقة حالها. وابنها الصغير شايق حاله. وابنتها وداد نفشت ريشها زي ديك الحبش، بعد ما كانت قطعة مغمضة بلا شكل ولا فهم ولا شخصية. وانتهزن فرصة هرب وداد ليكلن التهم ويخترعن القصص وينظرن إليها من تحت لتحت وشقوق الشبايبك، ويحرضن الأولاد على ابنها لأنّه يتميز على الأولاد بشطارته وفصاحته وهدايا جميلة من خاله. صار أولادهن يعبرونه بالبنطلون الجديد، وكأنّ البنطلون الجديد عاهة مشينة.

شيء غريب طبع النسوان. يغرّون ويحسدون ويقلن الكلام خلف الظهر ثم ينقلن ما قالت فلانة وما قال فلان. أمّا الرجال، جيران الحي، فهذا النجار وذاك الحداد والمنجد، كل يغني على كیفه ويسمعها الكلام المبطن وما قيل وقال. ألم يقل النجار للمنجد حين مرت، وكان يقصد

أن يسمعها: بنت القحطان قالوا رجعت. فقال الآخر: يا مثبت العقل والدين؟ أي ما معناه أن ابنتها بلا عقل ودين، أو أيتها هي، بنت القحطان وشيخ المشايخ سيدنا الشيخ، أبوها فلان وجدها فلان، وجدتها فلانة بنت فلان، بنت الأصل والفصل وخير الأصول، هي من يقصد بلا عقل ودين. وربما يقصد كل العيلة، عيلة قحطان. أما الآخر، أجير الفران فأخذ يغني: مطرح ما تروح عيوني عليك. أي ما معناه أن ابنتها مهما هربت، مهما اختفت ومهما اختبأت فهي مكشوفة للأعين وكلام الناس. هذا ما قيل، وهذا ما يشاع عن ابنتها وهذا ما يعاني منه سمير، وهي أيضا تعاني منه. وكله، كله، بسب وداد وتياسة وداد. فلو أن وداد تتلحح وتبجح مثل النساء الشاطرات، ومثلها هي أيام العز لأخذت عقله. لكنها..

ونظرت إليها بغيظ مكبوت. لكن منظرها صفراء عجفاء رغم حبلها، عظامها بارزة في كتفيها وصدرها ممسوح، وذراعاها مسحوبان جلدا على عظم، كل ذلك جعلها تحس بقلبها يهبط وثقل يجثم كرحى الطاحون على صدرها. تذكّرت ما مرت به وداد من ذل وعذاب مع ذاك الزوج. هل كان زواجا أم لعنة؟ منذ الخطبة ووداد تدور في دوامة، وهي معها. منذ الخطبة وهي تراقبه، لم يقل لوداد كلمة واحدة ترد الروح. وبعد جريشة، حين طلبت وداد فسخ الخطبة، قالت لها، كما قال وحيد، ألا طلاق في عيلتنا. طلاق البنات يعني فضيحة. كتب الكتاب يعني زواجا شرعيا على سنة الله ورسوله. فسخ الخطبة يعني الطلاق والفضيحة. وتم الزواج وظلت وداد في وحدتها وفي وحشتها وعزلة واغتراب عن دنيا الناس. ما كانت تحكي ولا تشكي، فقط تنظر. تنظر إليها ولا تراها. تقول بعينها ما لا يقوله لسانها أو يصرح به. تنظر إلى

أخيها وزوجة أخيها ولا تتكلم. تجلس في البلكون تنظر للبحر بصمت ووجوم. وحين تقترب منها لتحدثها حتى تفتح قلبها وتفضفض لها تهرب منها. تهرب للنوم في غرفتها وتظل هناك من الصباح حتى المغرب. وفي المساء تجلس ساهمة في البلكون تنظر للبحر لمنتصف الليل، أو ربما لطلوع الفجر. قالت لوحيد: خايفة يا وحيد أختك تنجن! هز رأسه، وقال واجما: وأنا يا أمي خايف أنجن. وهذا ما حدث، وداد جنت ووحيد جنّ. وحيد جنّ، ربي لحية وصار يصلي مثل المهووس ويمضي ليلاليه في الجامع. ووداد جنت وعقلها طار فهربت منهم. وهي بينهما ماذا تفعل؟ وحيد المسكين يجد عزاءه عند ربه، فقال الناس: خير وبركة، أما وداد ففضحوها.

37

اقتربت شابة من الخلوة ووقفت في الباب. هي ابنة تاجر الألبان والأجبان في وسط السوق. كانت في صف وداد وهي طفلة ثم اختفت. قالوا ذهبت مع أمّها إلى الشام وبقيت هناك. أبوها تزوج على أمّها، لأن أمّها ما عادت تلد. حملت الأمّ ابنتها وذهبت إلى الشام. وحين بلغت البنت استعاد الرجل ابنته وأعادها لنابلس كي تعيش معه ومع زوجته التي لم تلد ولم تحبل قط. قيل وقتها أن السبب كان من الزوج، لكن الزوج لم يعترف بعدم الإخصاب لأنّه قادر، وقرر أن يتزوج ثانية، بل ثالثة، حتى ينال من الخلفة من يرث عنه خير الجبنة واسم العيلة. رأت وداد الشابة ولم تعرفها، لكن الأمّ عرفتها، وقالت:

- أهلين وسهلين. شوفي يا وداد مين زارتنا!

مسحت وداد الرغوة عن عينيها وحدقت من خلال البخار. ضباب الحمام والرغوة والهَمَّ المستشري في قلبها جعلوها ذاهلة شاردة ترى الأشياء ولا تراها.

قالت الأم بحماسة:

- تفضلي يا عليا يا بنتي، أنتِ زي وداد.

همهمت وداد كي تعلق، فلم تصدر من حلقها إلا أصوات مبهمة لا معنى لها. كانت تريد أن تسخر. كانت تريد أن تقول لأمّها: ومَن هي وداد؟ أهَي ابنتك؟ أم هي الطبطوبة المركوبة مثل الدابة؟ لكنها لم تصدر سوى همهمات بلا معنى.

اقتربت الشابة من الأم وقبّلتها، فرحبت الأم بحرارة وبادلتها القبلات على الخدين.

فرحت الأم، لأن أحدا من الحارة بادر بالزيارة والتحية دون أن تذل نفسها أو تذل ابنتها باسترضاء النساء ورشوتهن بملبس وحلقوم الشام. كما أن وجود هذه الشابة قد يريح وداد. قد تجد فيها صديقة قريبة تفضفض لها وتخرجها من عزلتها. وقد تجد هي من خلالها معبرا للدخول إلى عالم وداد.

قالت الشابة ضاحكة:

- عروسة أبي في الخلوة هناك.

ابتسمت الأم، وسألت بفضول:

- واحدة جديدة؟

ضحكت عليا:

- هذي الثالثة.

علقت الأم ضاحكة:

- صحة وصحيتين.
- صاحت عليا:
- علةً وعلتين، عمره ما بشبع.
- ارتدت الضحكة عن وجهه الأمّ، لأن تعليق البنت فيه قلة أدب وتطاول على الأب، وهذا لا يجوز. الرجل بحاجة لولد يرثه، يحمل اسمه، فماذا لو تزوج ثانية وثالثة وجرب حظه؟ الله حلل.
- قالت عليا وهي تتأمل شعر وداد:
- قالوا النسوان شعرك أشقر، لكن لا أشقر ولا أحمر. ليش ما تحنيه؟ الحنة مليحة وتقوي الشعر وتخليه أحلى وأنعم. وأنت يا خالتي شعرك شايب، ليش ما تحنيه؟
- مدّت الأمّ يدها إلى شعرها، وكان مبلولا مسحوبا كشلة خيطان:
- أنا أحنيه؟! لمن يا حسرة. خلص يا بنيتي ودّعنا، لمن أحنيه؟
- لمن تحنيه؟ حنيه لنفسك ولعيونك. حنيه لنفسك بالمراية. الواحدة منا لازم تعيش وتشوف حالها، تحسّ بحالها وتتدلل.
- ابتسمت الأمّ ولم تعلق، فاسترسلت الشابة، وهي تحديق في شكل وداد:
- وّله، يا وداد، ليش هيك شكلك؟
- لم تجبها وداد، بل ظلت تحديق في الاثنتين من خلال البخار ولا ترى إلا شكلين باهتين وحدود ملامح غامضة وجرن الحمام. فعادت إلى الجرن تغرف منه بطاستها وتدلّق الماء على رأسها بشكل آلي.
- التفتت عليا إلى الأمّ، وقالت لها:
- شعرها هذا لازم ينقص. اليوم الموضة للشاليش.
- حدقت الأمّ ولم تسأل ففسرت البنت:
- يعني القصير لحد الرقبة. شعرها هذا لازم ينقص. لازم تقصه

وتحنيه. وأنت كمان يا أم وحيد، لازم تحنيه.
ربت الأم على ذراعها ولكزتها لتلفت نظرها إلى وداد:
- البركة فيك وفي أختك وداد. الدور دوركن يا بنات اليوم. وداد زي
أختك. خذي بالك منها وحنيتها وحنى إيديها.
صاحت عليا:

- أحنى إيديها! لأ يا خاله. حنة الإدين موضة قديمة. اليوم المناكير
هي الموضة. وكمان الذهب بطلت موضته. الذهب اليوم للفلاحين.
وله يا وداد ولي على قامتك، دستة مباريم وما شاء الله! وكأنك جاية
من برقة! شو هذا يا ست؟! شكلك يا وداد مش عاجبني. كيف قالوا
عليك اللي قالوه?
انتبهت الأم:

- شو قالوا عليها، قولي لي?
صاحت عليا بصوت رنان متحد:
- يقولوا عليها اللي يقولوه. ويقولوا عليّ اللي يقولوه. مش مهم الناس،
المهم أنت. هذي البلد دايمًا تحكي. وناس البلد بدهم قصة. خليهم
يحكوا لينفلقوا.
هتفت الأم:

- لأ يا بنتي، عيب يا حبيتي. الناس الأصل والأصل الناس.
- طز على الناس.

صاحت عليا بصوت هزّ الخلوة وأساع وداد فأحست بالكلمة
تدغدغها. أحست بشعرها يقف في فروتها، فأخذت تحكه وتشده
وتسحب يدها بامتداده وتمنت لو تقصه أو تحلقه أو تصبغه حتى
تتحدى ما قالوه. قالوا شقراء، قالوا حمراء، قالوا مكشوفة بلا منديل.

فليقولوا عنها ما يريدون، فلينفلقوا، لأنها زهقت من كلام الأمّ وكلام الناس. هي أيضا تريد أن تقول: طز على الناس.

قالت بصوت أجش ضاع في معمعة الأصوات والطاسات وصياح الأطفال والأمّهات:

- قصّي لي شعري يا عليا.

صاحت عليا:

- نعم؟ شو قلت؟

رفعت صوتها وقالت بصوت أشبه بالصراخ:

- قصّي لي شعري وحنيني.

صفقت عليا يديها، وقالت للأمّ:

- شايفه؟ شايفه؟ نطق البلبل. نطق وغرد!

فرحت الأمّ، وقالت لعليا تشجعها:

- هذا بفضلك، والدور عليك تحنيها.

- وأقصّ شعرها؟

- قصّيه وحنيه، خليها تتلحاح وتتبحبح.

قهقهت عليا ودغرت وداد في كتفها:

- خلص يا وداد، أمك قالت. وأنا كمان في عرس أبي لازم أتلحاح

وأتبحبح. تعالي معي، قومي، يا الله، فيه واحدة هناك من حيفا، تقصّ

الشعر وتحنيه وتصبغ مناكير. يا الله يا وداد، يا الله قومي.

38

جلست وداد بين يدي الحلاقة فأحالتها إلى شبه عروس. والحممجية سلختها ونفت الشعر عن ساقها وذراعيها وأيضاً هناك، في ذاك المكان، حتى تلد على نظافة، فصارت حلساء ملساء بشعر شاليش على الموضة لونه خمرى بفعل الحناء وشنيون مرفوع فوق الجبهة محاط بدوائر وحلزونات.

جاءت الأم من الخلوة ورأت وداد فانزعجت لأن الشنيون ذكَّرها بنساء السينا وأسمهان. صحيح أنها كانت تريد لابتها أن تتلحح وتصبح كالنساء العيوقات لتأخذ عقله، لكن الأصول ألا تخرج المرأة عن حدود الأصول. لو أن وداد قصَّت شعرها وحنته فقط فهذا مقبول. أما أن ترفع شعرها "بالكوكو" والحلزونات فهذا غريب، غير مقبول. فماذا تقول عنها النسوان؟ ألا يكفي ما قلنه وما اخترعنه من إشاعات؟ قلن شقراء، قلن حمراء، قلن مكشوفة بلا منديل. فماذا يقلن الآن وهي وحيدة، يعني بلا زوج وحر دانة؟ سيقلن: إذا كانت تتزين في غياب الزوج، إذن هناك من تتزين له، فمن هو هذا؟ لازم نعرف.

لكزت عليها وهمست لها:

- شعر وداد مش عاجبي.

لم تلتفت عليا إليها وظلَّت تتابع الحلاقة وهي تسرح شعر امرأة وتعيد تشكيله في حلزونات. وكانت وداد بجانبها تتابع ما يجري وتستمع لما يدور من تعليقات. كان من الواضح أن عليا قد بدأت تثير اهتمامها

وتخرجها عن صمتها وتضحكها بتعليقاتها الجريئة وحركاتها الطريفة. وانتبهت الأم إلى أن تأثير عليا على ابنتها سيكون سلبيا لأن عليا - كما يبدو - قد تأثرت بأجواء الشام. أمها شامية وربتها كالشاميات. بنت أبو لبن بياع اللبنة والجبنة تعمل بأصلها كما يحلو لها. لكن وداد ليست عليا بنت اللبان.

اقتربت من ابنتها وهمست لها بصوت خفيض حتى لا يصل إلى عليا والحلاقة:

- شعرك يا وداد مش عاجبي.
- لم تجبها وداد وظلّت تتابع ما يجري فوق رأس المرأة من حلزونات وتستمع إلى ما يدور من تعليقات.
- فعادت الأم تلح على ابنتها:
- وداد يا وداد، اسمعيني؟
- همهمت وداد:
- همهم، همهم.
- أنا أقول شعرك يا وداد مش عاجبي.
- همرت وداد دون أن تلتفت إلى أمها:
- أنا عاجبي.
- همست الأم:
- بلا قلة عقل، اسمعي مني.
- لم تعلق وداد وظلّت تتابع ما يجري والتعليقات. فعادت الأم تلح عليها:
- شعرك مش مناسب يا وداد، اسمعي مني.
- صاحت عليا، وقد سمعتها:
- هذا يا خالتي على الموضة.

قالت الأمّ بلباقة حتى لا تزعل الحلاقة وتثير عليا وتخرج وداد:

- هذي تسريحة عرايس، لكن وداد، أنت عارفة.

صاحت عليا:

- قصدك بلا زوج وحرذانة؟ مين سائلها ومين محاسب؟ وبعدين يا

خالتي يا أمّ وحيد مين قال أن العروس أحسن منّا؟ والله العظيم إني

أحلى، ووداد أحلى. وداد بالشعر صارت أحلى. ولو تسمن شوي تصير

أحلى، أحلى بكثير. شوفي عينيها بعد الكحلة. شوفي الحمرة شو لايقة

عليها. تقاطيعها حلوة وبتجنن. عينيها حلوين وشفافيتها قد الفستق

وبشرتها ناعمة بلا بودرة. بس هي هبلّة، مهملة حالها. ولّه يا وداد ليش

هيك أنت؟

ابتسمت وداد:

- ليش مالي أنا؟

- مالك أنت؟ دايما ساكتة، دايما صافنة وبوزك شبرين ومهملة حالك

وشكلك كأنك فلاح. شيلي الذهبات والماشاء الله، وهذي المباريم

موضة قديمة، كلك يا وداد موضة قديمة. شوفي شعرك لما رفعته كيف

صار شكلك. وعينيك لما تكحلت صرت أحلى. لما العينين يكونوا

حلوين بتصير الواحدة زي الملكة. لغة العيون يا شاطرة. اسمعت شو

قال عبد الوهاب؟

قالت وداد برقة وخجل، وقد بدأت تخرج عن صمتها:

- حكيم عيون أفهم بالعين.

فأكملت عليا الأغنية بصوت رنان:

- وافهم كمان برموش العين. أعرف هواهم ساكن فين. واعرف دواهم

ييجي منين. الله الله يا عبد الوهاب! يسلم صوته ويسلم شكله. بتحبي

- يا وداد، عبد الوهاب؟
- ابتسمت وداد:
- ومين ما يحبه.
- صاحت عليا:
- وأنا بموت بعبد الوهاب. أنا لو أشوفه يمكن أموت.
- قالت وداد بحسرة وخجل:
- غنّى بعربي.
- حدقت في وجهها كالمصعوقة، فحلفت وداد:
- والله العظيم غنّى بعربي.
- والتفتت إلى أمّها تشهدها:
- يَمّه قولي.
- قالت الأمّ برصانة:
- غنّى بعرسها.
- ضربت عليا صدرها ضربة قوية:
- غنّى بعرسك؟ وأنت سمعته؟
- لأ، ما سمعته. غنّى للرجال، أخوتي سمعوه.
- حملت عليا في وجه وداد ثم في وجه الأمّ:
- ولي على قامتك! غنّى للرجال وما سمعته. وأنت يا خالتي، غنّى بعرس بنتك وما سمعته. أما مجانين!
- وهزّت رأسها عدة هزّات وهي تكرر:
- مجانين، مجانين! والله مجانين!
- استاءت الأمّ لأن عليا قليلة أدب وقليلة ذوق، فكيف تقول في وجهها: "مجانين، مجانين؟" كما قالت عن أبيها "علّة وعلتين." وها هي تستهزئ

بها وبابنتها وتقول عنهما: "مجانين، مجانين." أما قلة أدب! أما قلة ذوق! البنت شامية مثل أمها، تربت في الشام، جاءت من الشام وتتباهى بلهجة الشام. تردد عبارات شامية لتذكّرهن أنّها من الشام وشامية، لكن مهما قالت ومهما تصنعت فهي بنت أبيها، أبوها اللبان؟ أبوها الفلاح ابن الفلاح من برقة. يعني مهما ترقّت بنت اللبان فهي فلاحه ابنة فلاح، وبدل أن تتفلسف علينا وتقول الذهب موضوعة قديمة، لماذا لا تكيل نصائحها لعروسة أبيها الفلاحه؟

عادت تلح على ابنتها:

- بهذا الشعر إذا حدا شافك، شو يقولوا الناس؟

هزّت وداد كتفيها بجرأة غريبة، وقالت بحقد:

- ينفلقوا الناس.

وقبل أن ترد عليها وتسكتها فقعت في الفضاء صلية زغاريد كدوي الرصاص وتبعتها ضربات الطبلية والنقرزان وجوقة مزاهر تهدر كالرعد، فصاحت عليا:

- وصلوا الجنّاكي من حيفا. يا الله يا وداد، يا الله يا خالة. يا الله بسرعة. الزفة هناك.

39

تجلّت العروس في أعلى نقطة على المصطبة محاطة بأغصان النخيل
وباقات الورد تحت أضواء القناديل ومئات الشموع. وعلى وجه البركة
تناثرت أوراق الورد وزهر الليمون. وتهادت النساء حول البركة يرفلن
بالجرجيت والحرير بفتحات واسعة وبلا أكمام، وقد زينّ أعناقهن
وصدورهن بعقود الألماس واللؤلؤ، وفاحت منهن رائحة عطور قوية
مختلطة برائحة البخور.

كان منظرا مبهرا ذكّر وداد بعرسها في مزرعة الخال، لكن الأصوات
هنا أضخم ولها رهبة. في فضاء الحمام وارتجاج الأضواء وارتعاش الماء
في البركة بفعل ضربات المزهري والنقرزان، بدت الأشياء أكثر تأثيرا
وضراوة. أحست بدموعها تنفر فجأة، وشعرها يقف في فروتها تحت
الكوكو، ومسامها تحز مثل الدبابيس. تذكّرت ما مر بها. قبل سنة فقط
كانت هناك في ذاك المرتفع، في لوج العروس وبجانها رشاد ورشا
وأخوها وحيد. كانت تحسّ أن العروس ليست هي، بل واحدة غريبة لا
تعرفها. كانت تنظر لتلك العروس وما يدور حوالها بصمت وجهود.
لم تكن تحسّ أو تسمع، ترى الأشياء من خلف ضباب. نساء، أضواء،
ذهبا، وورودا وجرسونات يحملون العصير والحلويات في أوان فضية
وذهبية، وأفواه تنفتح وتتحرك وألسنة تلوب بين الشفاه تطلق صيحات
وزغاريد، لكن بلا صوت، وهي بلا وعي ولا إحساس.

كيف مرّ العام بلمح البصر! كانوا يقولون إن الأيام التعيسة تزحف
زحفا. لكنها الآن تكتشف أن الأيام مرت ركضا كقطار سريع. بالأمس

كانت عروسا، بالأمس كانت في حيفا، بالأمس كانت عند ليزا ودخلت مع النساء عند الحاكم وشاركت في مظاهرة القدس ورأت النساء يخلعن المناديل ويطيرن فوق رؤوسهن كجوقة غربان. بالأمس كانت لا تعرف من دنياها إلا الخياطة ورقع القنايز. لكن الآن باتت تعرف. بدأت تحسّ، بدأت تفهم. كبرت جدا في هذا العام. عرفت أن في الدنيا ما يسمى الحب وما يسمى العيب والسياسة، وليزا ونساء يتظاهرن. وهي أيضا خلعت المنديل واستبدلته بإشارب صغير. لكن هنا، هنا في نابلس، عادت للغطوة والمنديل ومع ذلك ما رحموها، وقالوا أشياء أخافتها وأغضبت الأمّ. وها هي العيون تراقبها.

نابلس، حيفا، أجواء القدس، ثم نابلس. كل ذلك في عام، فقط في عام؟ كل الأجواء، وكل جو يختلف عن الآخر. نابلس فيها دار العيلة وحمام البلد وكلام الناس. والقدس ليزا والحاكم ونساء يتظاهرن بلا منديل. وحيفا والبحر والسينما وأغاني الحب. باتت تعرف كل الأجواء. نادتها الأمّ:

- تعالي يا وداد، سلمى على خالتك سميحة.
التفت وداد ورأت امرأة في عمر أمّها أو أصغر بيضع سنوات. كانت المرأة مزوقة بشكل صارخ، شكلة على الرأس تحت الكوكو وكردان ماسي وحلّق مثله، وحمرة وبودرة وكحلة ثقيلة وفتان مفتوح عن صدر أبيض بلون الجبن. كانت حلوة، ذكرتها برشا سوى أن هذه أكبر وأسمن.

همست عليها:

- هذي مرت أبوي. قومي سلمى. خذي بخاطرها المسكينة، يمكن تنجن.

فهمت وداد أن هذه هي الزوجة الثانية بعد أم عليا وقبل العروس. وأنها مزوقة بهذا الشكل كي تبدو غير آبهة ولا حزينة حتى لا تقل قيمتها وتشمت النسوان بمصيباتها.

همست عليا بلووم ساخر:

- عاملة حالها زي الملكة. لكن على مين؟!

ودغرت وداد في كتفها كي تتجاوب مع سخريتها وشامتتها، لكن وداد ظلت تنظر إلى وجه المرأة كي ترى آثار الحزن، ولم تر إلا امرأة تنظر إلى النساء بعظمة وجلال وكأنها فعلا ملكة.

همست عليا، وهي تنظر إلى الراقصات حول البركة:

- خليها تذوق الي ذقناه! اليوم يومها.

40

اندلعت عاصفة أخرى من الزغاريد، ودخلت صبايا بصواني القمح والحناء، تتبعهن أخريات بأطباق واسعة عرضن عليها جهاز العروس وحليها. كن بملابس قروية بعضها بتطريز فلاحى، وأخرى بصدور مزهرة من قضاء نابلس، تتقدمهن الراقصات اليهوديات شبه عاريات، بملابس رقص شرقية. دارت المجموعة حول البركة يعرضن على النساء جهاز العروس وقطع الحلي فهمست عليا:

- ذهب بذهب، شايفه يا وداد؟ مش قلت لك إن الذهب للفلاحات؟ خبأت وداد معصمها في حضنها وصممت على خلع أساورها في أسرع وقت. لكن الطبله ودوي الدفوف وزغاريد النساء، عادوا ليقفوا

الشعر في رأسها ويدفعوا بطبقة رقيقة من الدموع إلى عينيها.

عادت الأم تنادياها:

- تعالي يا وداد، تعالي سلمي.

دغرتها عليا، وهمست لها:

- قومي سلمي، وقولي لها البقية بحياتك.

زحفت وداد على المصطبة عدة أشبار حتى وصلت. سلمت على المرأة وابتسمت، فشدها المرأة إلى صدرها لتقبلها، وحين التصقت بها، أحسّت بالعرق البارد يبلل صدغيها وخديها، فشعرت بالنفور ثم الدهشة. العرق البارد ولفح الأنفاس نبهوها لما يدور تحت الزواق الكثيف وفي الصدر العاري ونظرات الجلال. عادت تراقبها فالتفتت، والتقت نظراتها لثوان، ورأت عن قرب بياض العينين معكورا، لونه أحمر، لكن بلا دمع. ابتسمت المرأة في وجهها بسمة صغيرة، بسمة مصطنعة باردة تخفي المكبوت، فوقف الشعر في رأسها ثانية، وقفزت الدموع إلى عينيها، وهذه المرة سالت وانسابت على خديها، فالتفتت بعيدا لتخفيها. لكن المرأة شدتها وحدقت في وجهها بنظرة غريبة، وهمست في أذنها:

- شدي حيلك، هيك قِسمتنا.

اندلعت عاصفة جديدة من الزغاريد، ودخل العريس مع أربعة رجال من أقاربه، فاختبأت النساء خلف شالات خفيفة لم تستر إلا ما ندر. غصّ الرجال بأبصارهم وادعوا الرصانة والعفة، وعيونهم تسترق النظر من تحت لتحت. اجتهدت الراقصات وازداد نشاطهن، فتوهج لمعان البرّوق في الأحزمة حول أردافهن وصدورهن وانهمر النقوط فوق رؤوسهن. اخترقت عليا جموع النساء وسيقان الراقصات، ووقفت

تحت اللوج وأطلقت زغرودة مجلجلة، فابتسم أبوها وافترت شفتاه عن أسنان أنهكتها عوامل الزمن والطبيعة، ودبغها التنباك، فشهب سمير، وقال لأمه: يَمَّه شوفي العريس شو كبير! نهرت برصانة، وقالت له وهي تدغره: طيب اسكت. سكت على مضض، لكنه التفت إلى أخته، وقال بأسف: العروس صغيرة وهو كبير! فهزّت رأسها وهي تسترق النظر إلى سميحة، وقالت همسا: طيب اسكت.

نزلت العروس لتتخدر فانسحبت الراقصات، وتراجعت النسوة حتى يفسحن لها مكانا تتهادى فيه بفستانها الطويل والذيل الممتد. أسرعت البرقاويات يساعدها في للممة الفستان وذبوله، وبدأن سحجة وأهازيج مختلفة عن أغاني الجنكيات والنايلسيات. لبضع دقائق اختلطت الأنغام وتنافرت الإيقاعات وعمت فوضى فارتبك الجو. ارتبكت العروس وأخذت تتلفت حولها، وهي لا تعرف على أي النغمين تتخدر. الجنكيات مصحوبات بكورس النابلسيات يغنين "اتخدي اسم الله يا زينة" والبرقاويات يصفقن ويغنين بحماس منقطع النظر:

لمن زفوك يا صبيحة لأبو البارودة عبد الله

حين طال وقوف العروس حائرة مرتبكة بين النغمين، عادت أدراجها باتجاه المصطبة ولم تتخدر. بدأ اللغط، النابلسيات مصحوبات بدفوف ونقرزان الجنكيات يحاولن فرض أنغامهن، والبرقاويات يدافعن عن أحقيتهن بزف ابنتهن. وحتى يخرج العريس من الإرباك قبل أن ينقلب جو الفرح إلى زعل، وقف على المصطبة وأخذ ينثر العشرات فوق رأس العروس ورؤوس الراقصات والجنكيات. فاندلعت الصيحات والضحكات واستعاد الجو فرحه ومرحه. ناولته عليا وعاء مليئا بالقطع النقدية والملبس، فأخذ يغرف منه ويرشق النساء بالشللات

والحلويات. انشغلت المحتفلات بتلقف ما يصل إليهن وما يصلن إليه، فاغتتم العريس فرصة انشغالهن وسحب عروسه من يدها وخرج مهرولا وخلفه الرجال يتلفتون حولهم، حتى لا يفوتهم مشهد النسوة المنشغلات بلم القطع النقدية والحلويات.

.....

في حبس الرجم

جاء وحید علی غیر موعد. دخل غرفة أمه ووجدها علی سجادة الصلاة. انتظر حتی سلمت علی الملائكة من حولها، وبادرها بقوله: يَمَّه أنا ملاحق، خبيني.

ظلت صامئة تتأمله. كان وجهه مخطوفا تحت لحية كثة، وشعر مخلوق، وعينين غائرتين، وصوت مبحوح. كم تغير الولد، أصبح رجلا. ما عاد لها، ولا لزوجته وأشغاله. صار لله وملائكته، عاد لأهله، من نسل الرسول. وتذكَّرتَه وهو يخلق، وتذكَّرتَه وهو يغني، وتذكَّرتَه وهو يحمل أكياس القمح علی ظهره. كان رجلها من بعد أبيه. حمل عنها وهو ولد صغير، وها هو الولد يصبح رجلا.

قال بلهفة:

- يَمَّه الانجليز في كل مكان. أنا ملاحق.

سألته بشرود وهي تفكر أين تحبُّه:

- أنت تظاهرت؟

ابتسم بحزن واستدار برأسه ولم يعلق، فانتبهت. تذكَّرت أن التظاهرات اندلعت هناك، في يافا، ولم تصل بعد إلى نابلس. سألته بتوجس لتستدرجه:

- من حيفا لنابلس وما لقطوك؟!

هزَّ رأسه. لم يرد أن يدخلها في تفاصيل حياته. لا داعي الآن لأن تعرف. قامت ببطء، وطوت السجادة عدة طيات وهي ما زالت باليانس والتنورة. حملت قنديلا مليئا بالكاز فاهتز الضوء وترجرج وصار شبحها بطول الحائط. اقتربت منه لتأمله، وشمّت رائحة التراب والعرق والخوف وشيئا غريبا مثل الكبريت، فسقط قلبها وأحست بالرعب. المسألة أكثر من مظاهرة وخروج مع المصلين من الجامع. كل

ما فيه يثير الريبة. مجيئه هنا، صوته، رائحته ولحيته وبعده عنها، بعده عنهم، وشكاوى زوجته ثم خاله. اختلف الولد، صار غريبا. لكنه مهما ابتعد يظل قريبا. هو أقرب الأولاد إلى قلبها. هو سندها.
قالت بوجوم:

- تعال معي، في حبس الدم.
- هز رأسه بحيرة وقلق، لأن حبس الدم مظلم وكئيب ومليء بالعفن والרטوبة. قال بقلق:
- يَمّه حبس الدم بارد وكئيب.
- قالت باقتضاب:
- أحسن من الدار.



مرّ المساء وطلع الصبح وما جاءوا. غلت القهوة ونزلت الدرج فصدمتها عفونة الجو والרטوبة. وجدته مستلقيا على فرشاة قديمة عفنة، ومغطى بلحاف قديم كان لجده، جدّ جدّه، ثم لحراسه من بعده. كان القبو مليئا بأغراض متوارثة من الزمن القديم، زمن الوالي الشيخ قحطان: لوازم خيل، صناديق حديد، سرير من مخلفات الجيش التركي، عفش مهترئ استغنت عنه واستبدلته بجديد حين تزوجا وخرجا من الدار.
لم تكن قد صلت صلاة الصبح ولا نامت. لم تغمض لها عين ولم تتوقف عن بث الأدعية والآيات. سورة ياسين وآية الكرسي و"من شر حاسد إذا حسد" كررتها مئتي مرة. كانت ما زالت مقتنعة أن ما يمرون به من أزمات سببها العين وحسد الناس. وكم استخارت ولم تفلح في فك العقد ودرء العين. حتى القمر لم يستجب لها مذ هربت وداد. ما عادت

تجد من يقرأ لها سورة ياسين. كان وحيد هو من يقرأ وهي تفتح، أو هي تقرأ وهو يفتح. لا يفتح القمر إلا لوجهه.

قالت بهدوء كي تطمئننه:

- الليلة نفتح بالقمر، الليلة بدر.

ظل جالسا على الفرشة مستغرقا في أفكاره. كان يفكر أن الأوان قد آن لأن يصارحها بأسرارها، لأن الأمور ازدادت عن الحد، ولأن قلبه ما عاد يتسع لكل ذاك الكبت. الناس لا يعون ما هو مقبل.

صبت القهوة وناولته فنجانا، وقالت بتفاؤل لتستدرجه:

- خوفك يا وحيد من غير أساس. لا الانجليز ولا حتى عرب. أنت من خوفك تتخيل.

لم يجبها. ظل صامتا يفكر كيف يبدأ الحديث ويصارحها.

قالت بأسف:

- عين طرقتنا. أنت بلا أولاد ووداد بالهم. ابن خالك رشاد ما سأل عنها. لو تحكي معه. وأنت يا وحيد اسمع مني خذ رشا لليهود يمكن تحبل.

ابتسم بصفرة ولم ينطق. قالت بسرعة لتوضح له:

- عندهم دكاترة زي الألمان ويمكن أخطر. فيه واحد اسمه .. نسيت اسمه، قالوا شاطر. اليهود شاطرين.

هز رأسه وتمتم بوجوم:

- طبعاً شاطرين.

- طيب، إذن، يا الله توكل.

لم يجبها فعادت تلح:

- خذها يمكن الله يحن.

انفجر الكبت بدون مقدمات، وبدأ ينحف:

- لا بدى يهود ولا بدى قروء. أنا حالى كرب. البلد تضيع. يَمَّه اليهود أخذوا الدنيا.

استوقفته:

- مالنا وماهم؟!

قال بغضب:

- مالنا وماهم؟ أرضنا، بلدنا، دورنا، رزقنا. يَمَّه اليهود أخذوا الدنيا، سمسرة الأرض لازم يموتوا.

توقف فجأة ليفكر. تذكر أنها لا تعرف شيئاً مما يحدث ولا تفهم لماذا انقلب الحال.

رأته واجما يفكر واليأس باد على قسماته. حزنه جدا، لكن ما الحل؟ هو غير سعيد فى حياته. رشا البلهاء تثير الأعصاب. وهى بالإضافة إلى هبلها تبدو عقيما لا تحبل. لو حبلت منه لانشغل بالحبل ومجيء ولد يحمل اسمه ويملاً دنياه. لا شيء يملأ الحياة ويعمرها إلا الأولاد. امرأة عاقر بلا أولاد مثل الشجرة من غير ثمر. ورجل بلا ولد يملأ دنياه مثل الجامع بدون مصلين. لو يسمع منها ويتزوج.

قالت بلهجة من وزن الأمور وتحكى بالعقل:

- اسمع يا وحيد. كل الدكاترة قالوا لك أتمها عاقر. أنا كنت امبارح بفرح واحد أكبر منك، أكبر بكثير. تزوج على مرته وهى قاعدة زى الملكة، ما نزلت من عينها ولا دمعة. ليش تدمع؟ الله حلل. ما دام بالحلال، خير وبركة. وأنا من رأيي أنك يا وحيد تصلى على النبي وتخليني ألاقى لك واحدة مليحة تحبل وتولد. خالك مسكين، أنا أحكى معه. أنا قلت له: لو أن وحيد على أيده ولد ما كانوا الشيوخ لعبوا بعقله وربى لحية وصار

مسطّل زي الدرویش .

رفع رأسه وحملق في وجهها وهمس بغیظ: أنا مسطّل زي الدرویش؟!
ثم تماسك وتجلّد وأخذ يفكر أن وضعه وشكله ولحيته وصلواته ربها
تكون في عیون الناس مثل الدراویش .

قالت بفضول:

- أنت تظاهرت؟

ردّ بوجوم:

- لأ، ما تظاهرت .

- إذن مالك؟

لم يجیبها. أحس أنّها لن تستوعب، وأنّه لو صارحها فستزید همومه
بمخاوفها وستظلّ تزنّ كالنحلة طنینا لحوحا لا يتوقف كما كانت تزنّ
لأفكار أمين وشعارات أمين وفلسفات أمين: أنا ربیتکم بدموع العین .
أنا الی شقیة حتی کبرت . إذا واحد منکم عملها وحرّق قلبي أشکوه
للرب وأغضب علیه لیوم القيامة . سامع یا أمين؟ إحنا ناقصنا؟

41

جلس الثلاثة على مائدة الإفطار وكل سابح في أفكاره. الأم تسعى جاهدة لربط الأحداث حتى تكتشف أسرارها. وهو يتساءل عن سبب عدم مجيء الانجليز لاعتقاله وكيفية الخروج من الدار دون لفت الأنظار إلى وجوده. ووداد تسترق النظر إلى الاثنين وتضرب أخماسا بأسداس. هل جاء ليأخذها إلى حيفا؟ هل يتآمران ضدها لإرضاء الخال؟ أم جاء هربا من زوجته ومشاكلها. ثم ما هذه اللحية وما هذا الشكل؟ هي لم تره باللحية والشعر المحلوق شبه الأقرع قبل هذا اليوم. قبل هربها كان ما زال يقلد عبد الوهاب. يقلب شعره المضمخ بالبريل كريم ويحلق شاربه ويتعطر. ماذا حدث؟ يبدو غريبا!

قالت بحذر:

- كيف حال رشا؟

هزّ رأسه وهو يمزغ وكأنّه يقول: بخير أو لا بأس، أو ربما لا يريد الإجابة حتى لا تشجع ويستمر الكلام. ربما لا يريد أن يحدثها لأنّه ما زال غاضبا بسبب هربها.

قالت الأم:

- حال رشا على حاله ما تغير. كيف يتغير، وهي مسدودة من فوق وتحت؟

قال بأسى:

- بس يا أمي، حرام عليك.

نفخت الأمّ بغضب مكبوت لإحساسها بأنّه يجبئ عنها أسرارها وأنّه يعاملها كغريبة. هي غاضبة ولا تعرف كيف تنفس عن غضبها، فكانت رشا هي كبش الفداء.

- أنا أقول إنّ العاقر مثل الشجرة من غير ثمر حلال نقطعها.
رمى اللقمة من يده وقد فاض به الكيل من نقّها وإلحاحها المستمر
واستدار بوجهه، وهو يتمتم:

- أستغفر الله العظيم. لا حول ولا قوة إلا بالله.

قالت الأمّ مستفزة:

- هي السبب. قل لي المضبوط. هي السبب، صح والآ لا؟
همست وداد بفضول حذر:

- السبب بشو؟

لم يجيبها، لكن وحيد نظر إليها مباشرة لأول مرة ورأى الكوكو متربعا فوق رأسها وآثار الزواق ما زالت بادية على وجهها فحملك مستغربا، وقال بدهشة:

- ليش هيك شعرك؟ ليش هيك شكلك؟

قالت الأمّ مدافعة عن نفسها وكأَنَّها هي السبب بهذا الشكل:

- أنا قلت لها عشرين مرة شعرك يا وداد مش مناسب. لكن شو أعمل
بينات اليوم؟!

وحتى لا يفلت منها زمام الموضوع ويذهب الحديث باتجاه آخر عادت تلح وتستفزه حتى تعرف سر مجيئه وسر لجوئه وقوله، بالأمس "خبيني".
- أنا لازم أفهم شو السيرة؟ قلت الانجليز في كل مكان وأنت ملاحق.
خلينا نفهم ونتفاهم. أنت تظاهرت أو ما تظاهرت؟ اشتبكت مع
اليهود؟ لو اشتبكت لكنت انجرحت أو تخربشت. لكن شكلك كان

- طبيعي، بس ريحة قميصك غريبة، زي الكبريت!
 ابتسم بصفرة وحزن غريب:
 - وشميت قميصي يا أمي؟
 قالت بغیظ وألم واضح:
 - طبعا أشمه. طول عمري أشمه وأشمك. مين غير الأم تشم أولادها
 وتدافع عنهم بأسنانها مثل القطعة؟
 قال باسم ليغير الموضوع ويضحكها:
 - القطعة تاكل أولادها.
 هتفت بغیظ:
 - لو تعرف يا وحيد كيف قلب الأم! أنا لما وداد غابت عنا كنت رح
 أنجن، ما أنام الليل، ما نشف الدمع من عيوني. وأنت يا وحيد، أنت
 الغالي، طول عمرك غالي يا نور العين. أنت الكبير، أنت سندنا. ساعات
 أقول أنا كنت السبب، لكن النصيب...
 قال بإيمان:
 - هذا قدرنا.
 أصابتها هبة مفاجئة من تأنيب الضمير، فلطمت صدرها:
 - أنا كنت السبب. أنا مجنونة. عيلة خالك كلها مهابيل. لو أخذوا
 شوية من أمهم.
 قال محتدًا:
 - مالِك وماهم؟ هذا نصيبهم.
 - لو أخذوا من أمهم الذكا والفهم.
 قالت وداد بسخرية حاقدة:
 - أخذوا مالها، مش كافيكُم؟!

صاحت الأم:

- اسكت أنت. الكل يتكلم ويتفلسف إلا أنت.

استدارت وداد بوجهها وتوقفت عن الأكل تماماً، وقالت بغیظ:

- خلص، سكتنا.

عادت الأم تندب وتنوح لتستدر عطفه فيلين لها:

- أنا كنت السبب، أنا مجنونة. أنا يا وحيد قلبي تعبان. قلبي عليكم.

برضاي عليك تصارحني. أنت تظاهرت؟ قل لي شو عملت؟

رفع عينيه ورأى الاثنتين تحدقان في وجهه بانتظار اعتراف منه، لكنه لن

يعترف. ماذا يقول؟ يقول تهريب سلاح وصناعة ألغام وخراطيش؟

قالت بإلحاح:

- بدنا نفهم.

بدأ قلبه يخفق وارتفع الدم إلى رأسه.

عادت تزن كعادتها فأفلت زمامه، وصاح فجأة بدون مقدمات:

- مشان النبي حليّ عني. مالك ومالي؟ خلص أنا زهقت، حليّ عني.

همست الأم، وقد شحب وجهها وایبضت شفتاها، وأصبحت مثل

الأموات:

- أحلّ عنك؟!

دمدمت وداد بدهشة وعجب:

- تحلّ عنك؟!

التفت إليها وقد انهار ووجد أنها أسهل نيلاً وأوطأ حيطاً، فصاح بحقد

وشراسة:

- وأنتِ كمان سدي بوزك. لك عين تحكي بعد اللي كان وصار بسببك؟

وين كنت دايرة على حلّ شعرك؟ ما لك رجال يربوك؟ إذا زوجك داير

ومش سائل يعني خلص انقطعوا الرجال؟ إذا كان أمين أعمى وأطرش أنا مش أعمى. شوفي شكلك! حمرة وبودرة وكحلة ثقيلة زي النور والرقاصات. وشعرك هذا زي اللي طالعه من السنيما. استحي وذوقي. بيطنك هذا دايرة وداشرة على حل شعرك. قومي انقلعي. مش قادر أشوفك بهالمنظر.

هتفت الأم وقد صعقت لأنها المرة الأولى التي تراه وتسمعه بهذا الشكل:
- مالك يا وحيد؟!

لم يجبها، بل استمر ينفث حممه ويوجهها نحو الأضعف:
- أنا أكسر راسك وأطبّشك. أشرب دمك. الناس فضحونا وهتكونا وكلّ بسببك. أختك يا وحيد هربت عند مين؟ أختك يا وحيد راحت مع مين؟ أختك شافوها بلا منديل. أختك دايره بحارات القدس. وين كنت دايره يا حيوانة؟
صاحت الأم:

- مالك يا وحيد؟
ضرب المائدة، ودفعها فاندلق الشاي، وسال الزيت على الزعتر، وتدحرج الزيتون، ووصل العتبة. هب واقفا مثل المجنون، وهو يصرخ:
- مش قادر أشوفكم وأسمعكم. مش قادر أتحمّل عيشتكم. خافوا الله. إذا الله سخطنا نستاهل. خافوا ربكم.
وصفق الباب ونزل ليختبئ في حبس الدم.

42

تدلّت عليا من الشباك المطل على حضير آل قحطان، ونادت وداد، لكن وداد لم تجبها، كانت تبكي. مذفرّ وحيد وهي تبكي وأمّها تبكي. هي تبكي من الإحساس بالظلم والحق والمهانة، وأمّها تبكي لأنها اكتشفت سر انقلاب وحيد. اختار اللحاق بشيخ الجليل ينشد نورا يشبع روحه. اختار الشهادة على المادة وطريق الجهاد على الدنيا ومتاع الأرض. تفهم دوافعه وأشواقه. هذا الطريق، طريق الأبرار، جزء منها، نواة تكمن في داخلها، بذرة ورثتها من الأجداد والماضي السحيق. جلال لا يعدله أي جلال مهما ابتعدت عن وجه القمر وصفاء الروح. لا تعتب عليه ولا تلومه. هو الوحيد من شاركها رحلات الكشف والبحث البعيد. لكن الفراق صعب جدا، والخوف عليه من العسكر وجنون القتال. وإن قتل هناك ماذا تفعل؟ ستبكيه حتى القيامة وحساب الرب.

رأت ابنتها تحدّث عليا بنت الجيران. لم يكن الصوت مسموعا. كانت تجلس في غرفتها خلف النافذة وترى الاثنتين من خلف الزجاج وورق الخشخاش. رأت عليا تحرك يديها وتؤشر. تفتح فمها ثم تغلقه ثم تفتحها ثم تغلقه ووجهها يتلوى ويتلون. ماذا تقول؟ ماذا تهرف؟ والانفعال يبدو واضحا من إشارات اليدين وحركات الوجه. هل أخبرتها وداد عما حدث وما قال وحيد؟ هل تحرّضها عليا وتشحنها؟ بنت الجيران اللعينة هي السبب في كل ما حدث. لولاها لما تزوقت وداد ولما غضب وحيد.

قالت عليا:

- إذا تطلّقتِ وماتت أمك مين يلمك؟ مين يستر عليك يا مجنونة؟
وتعيشي خدامة للأخوة؟ أو تظلي قاعدة منسية بدار العيلة! تعالي معي
نفتح صالون. بكرة النسوان ييجوا عندنا بدل ما يروحوا عند اليهود.
نزوق نسوان، ونقصّ الشعر ونغرق بالذهب لشوشتنا. وبدل الذهب
تشتري أساور لولو والماس.

نظرت وداد إلى أساورها بشك وقلق. بنت الجيران تحاول إقناعها
بيع أساورها وفتح صالون للتجميل. وحين قالت لها أئها لا تعرف
كيف تقصّ الشعر ولا تحيد تزويق النساء، قالت لها: نأخذ دورات في
الجمعية. هذا ما قالته ليزا في القدس وما رفضته واستكبرته في ذاك
الوقت. لكن الآن، وبعد أن قال وحيد ما قاله، بدأت الفكرة تروق
لها، على الأقل لا تستكبرها. لكن، ماذا لو ضحكت عليها بنت الجيران
وأخذت أساورها كما ضحكت سارة على رشا في كيبوتس عخشاف؟
ذاك الحادث كان السبب في جنون وحيد، وسيكون السبب في جنونها
إن حدث لها. لكن إذن ماذا تفعل؟ تقعد مهجورة منسية بدار العيلة؟
قالت مفكّرة مختبرة:

- نأخذ دورات في الجمعية وبعدين نفكر بالصالون.
وافقت عليا بدون تردد، وتحمست حماسا منقطع النظير، وقالت لها أئها
ستلبس غطوتها وتنزل إليها، لتذهبا معا للجمعية، حالا، فوراً، وبلا
تأخير.

تلفتت حولها للتأكد من أن أمها لم تسمعها. اتخذت قرارا لن ترجع عنه. حتى لو رأتها الأم وحاولت منعها من الخروج فلن ترضخ. ستخرج وحدها. ستلتحق بالجمعية. ستأخذ دورات في قص الشعر والتجميل. لكن قبل فتح الصالون ستسأل وتمحص جدوى المشروع ثم تقرر. هي تعرف تماما ألا وجود لأي صالون في نابلس. هناك بعض المزيّنات والحممجات ممن احترفن تلك المهنة، لكن بطريقة بلدية. يدرن على الأفراح بشنط صغيرة فيها معدات بدائية، مقصات وأمشاط ومحابس وملاقط حواجب وسكر معقود يسلخن به جلود النسوة. تدخل المزيّنة من باب المطبخ كالخادومات وتعامل أيضا كالخادومات. تمدّها لها العروس رجليها لتخلع لها الشعر الزائد وتضع الحنة والمناكير على قدميها. أهذا ما سيكون حالها في الصالون؟

قالت عليا بشهقة سريعة:

- أبدا، أبدا، نلبس مرايل بيضا نظيفة، وناخذ كشفية زي الدكتور. مهنة محترمة ولذيذة وفيها مصاري.

فعلا، فعلا، مهنة لذيدة. مهنة محترمة وشريفة. لكن أمها لن توافق. هي تعرفها. مذ انفتحت على أجواء العزّ واستبدلت ستائر الشاش بالأورجنزا ومقاعد الخشب بالإسفنج صارت تحسّ أنّها أرقى من كل الناس. حتى النساء في الحارة ما عدن يزرنها ولا هي تزورهن. يقلن عنها منقوشة مثل ديك حبش، وهي تقول عنهن بترفع: بلدي وشلق ونوريات، مع أتهن لسن شلق ولا نوريات، بل من عائلات مستورة يلبسن الرخيص، ويحكين بلهجة بلدية، ويتدلّين من الشبابيك ينادين على أولادهن والبياعين في الشارع. أمها لم تفعل ما يفعله حتى بالفقر. ظلت ملابسها أبعد ما تكون عن البهذلة والذوق السقيم، وظلّت

تتحدث بلهجة تتميز بها العائلات العريقة في نابلس بتفخيم القاف ولفظ الكلمات بلا تشويه. يقلن عن الفجل "فز" والجزر "ززل" والسمسم "شمسم" فتضحك بسخرية وتعلق. أما هن فكن يقلن عنها بإعجاب مشوب بالغيرة: أم وحيد تحكي وتخط بالنحوي. هذا مع العلم أنّها مثلهن أميّة. لكن حفظها للقرآن وما اكتسبته من دروس الصغر عبر أخيها وقصص شهرزاد وعلاء الدين وقصص الأنبياء والمرسلين، كل ذلك الموروث جعلها تبدو متعلمة مثقفة ومن كبار القوم، فهل ترضى عن قص الشعر والتجميل؟ ألن تقل: شو يقولوا الناس؟

43

حين عادت من الجمعية فوجئت بوجود رشا. لم تنظر الأم ناحيتها بل ظلت مطرقة ذاهلة وبلا تعبير.

هجمت رشا عليها واحتضنتها، وهي تبكي وتشهق بصوت مرتفع كالأطفال. توقعت أن يكون سبب الزيارة اختفاء وحيد، إلا أن رشا قالت باندفاع كما لو كانت تدافع عن ذنب ارتكبته:

– أنا انجنيت وأبوي انجنّ وطرده من الدار ومن الشركة. هذا الزواج لا يمكن يدوم.

فهمت وداد فأصيبت بالذهول. لم تكن تتوقع أن يتزوج. كانت تتوقع أن يدور حتى يشبع ثم يعود إليها نادما صاغرا يطلب الصفح والغفران – كما كانت أمّها تقول وتكرر. حتى أبوه قال ذلك، قال إنّ سيعود إليها نادما خاضعا متوسلا من أجل الولد ومن أجلها هي، لأنّها ابنة عمته وهو ابن خالها ولأنّه اكتشف بعد كل اللف والدوران أنّها هي الشريفة

النظيفة بنت العيلة وأم الأولاد. كانت تتوقع، أو تحلم، أن تبغدد عليه وأن تلوعه وأن تذيقه العذاب بضعة أيام وأسابيع قبل أن تعود إليه وترضى عنه.

كانت تتوقع، أو تحلم، أن يجيء إليها بعد الولادة ويركع أمام سرير الطفل ويبكي ندمًا ثم يحمل الطفل ويأوله لها، ويقول لها بذل وخضوع: عشان الولد، وعشاني، فتستدير بوجهها، وتقول "لا" عدة مرات حتى تدميه وتحرق قلبه قبل أن تقول "نعم" وتعود إليه.

كانت تتوقع، أو تحلم، أن يكون هذا هو الحلّ، لأن لا بديل عن الواقع إلا القبول بالواقع والاندماج فيه. وما كان خروجها للجمعية إلا الرغبة في تحدي الأم وتحدي وحيد. حتى أثناء وجودها في الجمعية كانت تتأمل قص الشعر وحماس الفتيات ببسمة ساخرة خجولة. كانت خجلة في أن تكون بين بضعة فتيات فقيرات يحاولن الحصول على مهنة يدرن بها من دار لدار كالدائيات والحممجات، يسرحن النساء في بيوتهن ويأخذن أجرا كالخادومات. طوال الدرس وهي تنظر إلى المعلمة والفتيات بعين فاحصة مستاءة وتحسّ أنّها أرقى بكثير من ذاك الجو. حتى أنّها لكزت عليها وهمست بأنفة: شلق ونور، مستوى واطي!! فضحكت عليها، وقالت همسا: طب الجرة على فمها... وضحكت بلا صوت.

قالت رشا، وهي تنظر في وجهها محاولة استرضاءها:

- بكرة يرجع. أكيد يرجع.

نظرت إلى الأم ورأتها كتلة عظمية بلا شخصية وبلا هالات. كانت متكورة على نفسها فبدت صغيرة الحجم وضعيفة. أين الكبرياء والقوة؟ أين الاعتزاز باسم العيلة وأصل العيلة والعزّ والجاه وشو يقولوا الناس؟ كل ذاك ذهب بذهاب الزوج، زوج ابنتها!

ظلت الأم جامدة لا تتحرك. لم ترفع عينيها ولم تبك. كانت مصدومة ومذهولة وتشعر بالعار. انضمام وحيد لشيخ الجليل وثوار الجبل ملأ روحها بشعاع نظيف، بالكرامة. أمّا هذا، زواج الزوج على ابنتها ففيه إذلال ومهانة وقلة قيمة.

سألت وهي مذهولة مشدوهة:

- يتزوج عليها وهي حبل؟ لو كانت عاقر لفهمنا، وقلنا السبب قلة الأولاد!

جمدت الدموع في عيني رشا، وسألت بخوف ورعب واضح:

- قلة الأولاد؟!

لم تجبها الأم واستدارت بوجهها نحو ابنتها، وقالت بشرود:

- بكرة يرجع.

وحين رأت ابنتها جامدة ذاهلة بلا حراك ولا تجاوب، قالت بغضب:

- بكرة يندم. ولما يندم أنا أداويه.

لكن وداد لم تجبها. دخلت غرفتها وأغلقت الباب.

44

ارتمت على الفراش بكامل ملابسها وسحبت اللحاف على رأسها وحاولت النوم، لكن النوم لم يسعفها. كانت تحسّ بألم حارق وإحساس بالضيق والمهانة. ألم في الصدر، ألم في القلب، ألم في الرأس، وارتخاء عام في كل عضو من أعضائها ابتداء من الركبتين حتى الرقبة. كانت مذهولة مما أصابها ومن ذاك الألم. هي لم تحبه على الإطلاق وحاولت

الهرب منه ومن ذله. لم تحسّ بالقرب منه والانتماء إليه، فلماذا إذن كل هذا الألم؟ لماذا الغيرة والحرقه؟ لماذا الإحساس بالوحدة والضياح والتلاشي؟ أما كانت تتوقع أن يطلقها ويحلّ عنها؟! أما كانت تتمنى الطلاق والبدء بحياة جديدة بعيدا عنه؟ ألم تهرب إلى القدس ولجأت لليزا لتخلصها من ذاك الزواج ومن ذله؟ ألم تذهب مع عليا للجمعية لتتعلم مهنة تساعد على نسيانه ونسيان الأهل ودار العيلة وتبدأ حياة جديدة دون الاعتماد على الأخوة أو مال الزوج؟ ألم تكن تعرف أنّه خائن؟ ألم تكرهه وتتمنى له الموت أو الفالج؟ ألم تفكر بالموت بسبب ظلمه؟ فلماذا تحسّ بالغيرة والألم الفظيع؟ ولومضة خاطفة تذكّرت نومه معها. بضع مرات نام معها وأذاقها طعم الرعشة. وفي ليلة ما، وكان سكرانا وبلا وعيه، قبلها قبلات محمومة فشعرت بالحب. أذاب فيها جمود الإحساس ودغدغها في عمق العمق. أحست بلهيب الأنوثة يخرج منها كنهر جارف، كهاء جريشة، ومغارة غامضة كالدهليز مليئة بالعسل وماء الورد. طارت، هبطت، نزلت لتحت، دخلت في الأرض ثم ارتفعت وأطلقت الصرخة كزغردة وانشق الصدر فخرجت وردة. ذاك هو الحب، قالت لرشا، أعرف ما الحب، أنا ذقت الحب. كانت سعيدة كعصفورة. وظلّت طوال اليوم تنتظره حتى يعود ويقبلها ويدخلها مغارة العسل وذاك الإحساس. لكنه غاب ولم يرجع. غاب طويلا فاشتاقت له. بكّت من الشوق ومن الحسرة. نظرت طويلا في المرأة حتى تعرف سر جفائه. ألاّتها شاحبة ونحيلة؟ ألاّتها مهذبة وخجولة؟ ألاّتها لا تعرف كيف تتغنج وتلبس ملابس فاضحة كالراقصات وملابس رشا؟ ألاّتها لا تعرف كيف تغريه وتثيره؟ سألت رشا، فقالت رشا إن الرجل يحب المرأة أن تفعل كذا وتقول كذا

وتلبس ملابس نوم كالبطالات. البطالات؟ طبعاً، طبعاً، البطالات. هذا هو الرجل، قالت رشا. الرجل يحب البطالات ويجب الوقاحة ويجب كذا... وسمت الأشياء بأساميهها.

قرفت جداً من ذاك الكلام، لكنها رغم ذلك، لبست الشيفون والشرائط وصداري مزوقة بالدانتيل وضُمَّخت فراشها بعطر الورد وانتظرت. وحين عاد نظر إليها وابتسم وهو يناولها ورقة العشرة جنيهاً، ويقول لها: امسحي وجهك وروحي للسينما بيوم النسوان. وخرج من الدار ولم يعد تلك الليلة وثاني ليلة وثالث ليلة حتى كرهته ودعت عليه وتمنّت له الموت أو الفالج.

لكنها الآن تبكي من الشوق. تبكي من القهر. تبكي من الغيرة والوحشة. فماذا دهاها؟ لماذا انقلبت؟ وهذا الإحساس، أهو طبيعي؟ أم أنّها مريضة ومخبولة؟ أم أن المسألة، باختصار، حظ سيء.

45

جاء أمين من القدس وفوجئ بخبر اختباء أخيه في حبس الدم. أمه نقلت الخبر على جرعات خوفاً من أن يتهمها بالتحيز والمحاباة لكل ما يقوم به وحيد. هي ما زالت تذكر كم مرة اتهمته بالعقوق لمجرد ذكره المتظاهرين والحزبيين كما لو كان يؤيدهم. وتذكر كم مرة أقامت الدنيا ولم تقعدّها حين سمعت عن مشاركته في تظاهرة سياسية أو مهرجان خطابي. ولا تستطيع الآن أن تفسر لماذا تشعر بالرضا والسكينة، لأن أخاه اختار طريقاً أخطر بكثير من المشاركة في تظاهرة أو مهرجان سياسي. هي لا تستطيع أن تفهم سر رضاها وكيف حدث، فكيف تفسره؟ هل لأن

وحيد أمّها وصلّى معها وذكرها بأحاديث الرسول والصحابة والطريق القويم؟ أم لأنّه حدّثها بأحاديث شيخ الجبل وجعلها تحسّ أنّها جزء من ذاك الجو؟ أم لأنّه أعادها لرؤى القمر وذكرها بطريق الروح؟ مهما كانت الأسباب، تفهمها أو لا تفهمها، فهي تحسّ أنّ ما اختار وحيد له عذره، بل حتميته لأنّه قدره. هذا ما اختار له ربه. ولولا ما اختار له ربه هل كانت رأت في وجه القمر صورة وحيد وهو يمشي في طريق طويل وبيده شعلة عظيمة أضاءت الكون بنور باهر؟ تلك الليلة، ليلة رأت تلك الرؤيا أحست بالشعلة تدخلها، تضيء جوانحها وتطربها فتبكي خشوعا وسكينة.

بمجرد سماعه الخبر انقلب أمين. أصبح هو المهاجم، وهي المدافعة عن سلوك وحيد. كان قد بدأ يتأثر بأفكار البلشفيكي ابن الجيران، ولهذا صدم بخبر اختباء وحيد في حبس الدم. فما هذا الاختباء سوى نتيجة لفعل مخيف لا يؤمن به. هل قتل أحدا؟ فجّر عبوة؟ ألقى قنبلة؟ أم داهم مستوطنة يسارية؟ بعض القادمين يساريون، بعضهم اشتراكيون، بعضهم يؤمنون أن السلام حتمية، وأن التعايش حتمية، وأن العمال هم القادة بدليل كذا وكذا وكذا. ساقوا إليه أمثلة فاستوعبها: عمال المحاجر من الطرفين فعلوا كذا في يوم كذا. سائقو الشاحنات من الطرفين أضربوا معا في يوم كذا. وعمال الميناء بدون تمييز فعلوا كذا في يوم كذا.⁹ فسروا ذلك أن العمال لا دين لهم ولا قومية إلا الإنتاج وعدالة الأجر والتوزيع. قالوا له: ما القومية؟ ما الدين، ما اللون، ما الجنسية؟ حواجز صنعوها ليقسموا خير العالم ويستأثروا بثروات الأرض. من

⁹See: "Encountering Nationalism: The Urge for Cohabitation," in A History of Modern Palestine by Ilan Pappé.

صَنَعَ الحرب؟ من صَنَعَ السلم؟ ومن كسب الغنائم واحتكرها سواء في الحرب أو في السلم؟ أهم الفقراء أم السادة؟ في كل دولة وحضارة كان السادة هم المستأثرون بالغنائم، أما الفقراء فلهم القتال في سبيل الغير والتغني بأمجاد الدين والقومية. إيمان الناس ليس حقيقياً، بل هو مصنوع ومعبأ في شعارات معلبة ككل بضاعة، هو للتسويق. هل تؤمن أنت أن الأديان جاءت لتفرق بين الناس؟ هل تؤمن أنت أن لوناك يمنحك المبرر لقتلني وتستعلي علي؟ أو أن لغتي أو ديني يمنحني الحق لأن أسرقك وأنهب رزقك؟ هل أنت قابيل وأنا هابيل؟ هل أنت جولياث وأنا داوود؟ قصص أساطير ورثناها من الماضي السحيق والخرافة وخيال الناس. نحن في الأرض سواسية نؤمن بالحق. دين العمال هو دين الحق والعدالة وحقوق الناس. هذا هو الدين، هذا الإيمان، هذا المبدأ.

في البداية، استمع لكل تلك الأقوال بتحفظ وفضول شديد ثم ناقش، وهو ما زال يتأرجح بين البينين. قال بشك: هذا جميل، هذا رائع، لكن القرار والأرضية ثم التطبيق، أين التطبيق؟ كيف نطبق؟ في جو يقتات على الفرقة والشعارات وإيمان يحلل هدر الدم، كيف نعمل في هذا الجو؟ كيف ننفذ؟ أنت محدود ومحاصر، أنت أقلية محصورة بين الطرفين. فكيف إذن تصنع سلماً وأنت في الوسط بين الطرفين بلا رصيد ولا أرضية، لا ترضي هذا ولا ترضي ذاك؟ بلا أرضية! قالوا فكر، قالوا تأمل، قالوا ناقش. وأعطوه نشرات ومقالات ونهاذج حتى يقرأ، حتى يفكر. وما زال يناقش ويتأرجح بين البينين.

46

دخل القبو وهو مستغرق في أفكاره، فكاد يتعثر بالعتبة وأدراج القبو. أدراج مقلقلة مهترئه بعضها مشروخ ومكسر وبعضها مخلوع. أقدام كثيرة مرت هنا ومرور الزمن. لم يدخل القبو مذ كان طفلا صغيرا. كان يلعب مع ووداد ويختبئان فيه من عقاب الأم حين تغضب. تلك الأيام كانت صعبة. كانت أمه سريعة الغضب حادة الطبع كثيرة البكاء والتذمر. كانت ما زالت نائمة على الدنيا لفقدان الزوج وضياح المجيديات وما اقترفه كبير العيلة. ووحيد الكبير كان يعمل. هو ووداد أكثر قربا لتقاربهما في السن والحساسية والبكاء السريع. أما أخوه فكان بعيدا لأنه أكبر، ولأنه مسئول عن العيلة وبديل الأب. وظلّ يحتفظ بهيته ويخاف منه. فكيف يناقشه بما فعل؟ كيف يحاسبه؟

وجده على سجادة صلاة وكان يسبح، وكانت لحيته طويلة وشعره منبوش في حلقات. سلّم بارتباك وتهيب وجلس أمامه على صندوق حديدي من مخلفات الجيش العثماني والشيخ قحطان. ظل صامتا يبحث عما يبدأ به الكلام بحيث لا يصطدم أو يجرح، لكن الكبير دخل الموضوع مباشرة بدون تلوّ. قال بهدوء:

- أنا في ورطة ولا أعرف كيف أتصرف. أنا هنا منذ أيام ولا أعرف إن كنت اتخذت القرار السليم بمجيئي. وجودي هنا فيه مخاطر. مخاطر لكم، مخاطر للدار وللحارة. لكنني كنت في وضع غريب. كنت مرتبكا مهموما ولا أعرف كيف أتصرف. كنت كمن يسير وهو نائم. حين أفقت، وجدتنني في هذا القبو.

ظل أمين صامتا بدون حركة. حدجه وحيد بنظرة سريعة، وقال بحيرة:
- لا أعرف كيف أتصرف. أنا في ورطة. لا أستطيع أن أبقى هنا في هذا القبو ولا أستطيع أن أخرج منه. أنا محبوس في هذا القبر. انظر حولك، شمّ الرائحة وتأمل.

رفع أمين عينيه لأعلى ورأى الحجارة المرصوفة على شكل قوس فيه فجوات وطحالب وكلابات تنزل من السقف وحلقات معدنية وسلاسل كان يتعلق بها وهو صغير ولا تثير انتباهه أو شكوكه. كانت هناك، شيء موجود منذ القدم، يصلح للعب. لكنه الآن ينظر ويتأمل ويفكر. قال معلقا كي يشعر أخاه أنّه يسمع:

- في هذا القبو كنا نلعب، أنا ووداد كنا نلعب.

ابتسم وحيد:

- في هذا القبو كنت تلعب! انظر أعلى، أترى الحلقات والسلاسل؟ قال لي الناس إن جذك كان يعلق ضحاياهم في هذا السقف. لو كان يعرف أن النزلاء في يوم ما سيكونون أحفاده، سأكون أنا وتكون أنت. قاطعه أمين:

- أنا لن أكون في هذا القبو.

ابتسم بسخرية ومرارة:

- لكنك معي في هذا القبو؟

لم يجبه وظلّ يفكر بها سيقول، كيف يفاتحه، وأبعاد الكلام. سأل بفضول:

- هل لي أن أعرف ماذا فعلت؟

هزّ وحيد رأسه عدة هزّات:

- ما فعلت انتهى أمره. ما قصده هو كيفية الخروج من هذا القبو.

أعوان الانجليز في كل مكان. في الليل دوريات وفي النهار عملاء

- وجواسيس. كيف أخرج؟
- لم يجبه أمين وظلّ يفكر. عاد يلح بصوت أعلى وقد بدأ يُستثار، ربما بفعل ما يراه من جهود أخيه، وربما بفعل السؤال عما فعل، وربما بسبب ضيقه من هذا القبو.
- أُمي تقول أن أخرج في وضح النهار مختبئًا في لباس امرأة، يعني غطوة.
- قال أمين متأملًا:
- فكرة جيدة، معقولة.
- احتدّ وحيد:
- كيف معقولة؟ أنا أتغطّي بغطوة نسوان؟
- وماذا فيها؟
- أنا أتغطّي مثل النسوان؟!
- لم يجبه أمين. نظر إلى يديه وكانتا ترتجفان بغضب وانفعال. بداية انهيّار؟ الوحدة والخوف والترقب نخرُوا قلبه.
- أنا أتغطّي مثل النسوان؟ بلحيتي هذه وطولي هذا وعرضي هذا وهذا الشارب. طوال الليل وأنا أحلم. طوال الليل وأنا أفكر بما فعلت وماذا أفعل.
- سأل بإلحاح أقرب للرجاء:
- وماذا فعلت؟
- رفع يده مستوقفًا:
- لا تسألني.
- تُحبّي عني؟ أنا أخوك، لن أغدر بك. أنت تعرف.
- لكنك لا تريد أن تعرف.

- بلى أريد أن أعرف لأني أعرف.
- تعرف ماذا؟
- أعرف عن السلاح وتهريبه. أعرف عن الشيخ وتعاليمه. أعرف عن الزبيق والأعبيه. أعرف، أعرف، ماذا اختلف؟ وجودك هنا يخفي شيئاً أكثر من ذاك، أكثر وأكبر، ماذا فعلت، قل لي ماذا؟
- لم يجبه وظلّ ينظر بعيداً في عمق القبو. فعاد يلحّ:
- قتلت؟ سرقته؟ نسفت؟ شاركت بجرم وجريمة؟
- أتسمي القتل في سبيل الله ارتكاب جرم وجريمة؟
- هتف أمين:
- في سبيل الله؟ أي إله يأمر بالقتل؟ إذن قتلت!
- طبعاً قتلت وسأقتل. هذا قتال في سبيل الله وليس جريمة. هذه ثورة.
- هم بدأوا بالنهب. هم قتلونا. فماذا نفعل؟ نسكت، ننخ، نكتب عرائض واسترحامات؟ هم بدأوا بالقتل، ماذا نفعل؟
- تتم أمين بمראה:
- كلمات الشيخ!
- احتدّ وحيد:
- وماذا عن الشيخ؟ ألا يعجبك؟ هي كلماته. أهنالك عيب في ذلك؟
- أهنالك خطأ فيما يقول وما يفعل؟ هو يقول العين بالعين، لأن هؤلاء لا يفهمون إلا لغة واحدة، لغة القوة. أهنالك لغة تنفعنا إلا هذه؟
- إذن ندور في دوامة، هم يقتلون ونحن نقتل، متى نتوقف؟
- حتى يمنّ الله ونغلبهم.
- وماذا لو كانوا هم الأقوى؟
- نظل نحاول.

- حتى متى؟
- حتى نموت وهم معنا.
- ومن يبقى هنا؟
- يبقى الغالب.
- ومن الغالب؟
- صاحب الحق هو الغالب لأن الله هو الغالب.
- وصل إلى طريق مسدود؟ طرفا نقيض. هو في الوسط. لكن الوسط بلا أرضية.

التروتسكية

بدأ أمين بنشر مقالات صغيرة في جريدة الحزب. ابن الجيران أقنعه أن ما يفكر فيه وما يعبر عنه له وزنه، فبدأ ينشر. كان ما زال يتأرجح، لكن اجتماعه برئيس تحرير الجريدة، وهو يهودي شيوعي من روسيا، جعله يظن أن التعايش بين الشعبين ممكن، بل أكيد.

قال له بلثغة في الرء وإيمان مهيب:

- نحن الكتّاب والصحفيون مبدأنا الحق والعدالة وتحقيق الإخاء، وعلى الكتّاب أن يتحدثوا مثل العمال من أجل الخروج من هذا الهراء. سأله عما يعنيه بذاك الهراء، فأعطاه كتباً ومنشورات وقال له: اقرأ، فقرأ، ثم أجبني. ولم يعرف ما المقصود بكلمة "أجبني" لكنه قدّر أن تكون تلك بداية محاولة استقطابه لعضوية الحزب، فتلعثم. وهذا ما كان، إذ بعد أيام طالبه برصد مشروع جديد له صبغة موازية لمقولات الحزب. قال له إن الأعوان داخل الحاكمية العسكرية أبلغوهم أن يهودية تروتسكية من كالفورنيا واسمها روزا ماير، وريثة السينمائي الثري آرون ماير مؤسس شركة مترو جوبلن ماير، تبرعت بملايين الدولارات لإقامة كلية تمريض تحمل اسمها واسم أبيها كتعويض وتكفير عما اقترفاه بتقديم الدعم غير المشروط للوكالة اليهودية والهستدروت. وأنّ ما دفع روزا لفعل ذلك هو ما سمعته عن مشروع اليهودي العراقي الراحل خضوري الذي كان قد نذر مبلغاً ضخماً لإقامة كلية زراعية للطرفين، يقيم فيها الطلاب العرب واليهود بدون فصل أو تمييز، يتعلمون فيها أحدث أساليب الزراعة وأنجعها لتصبح فلسطين مثل اللجنة فيكون المشروع قدوة للجميع. لكن المشروع فشل فوراً لأن الوكالة اليهودية أصرت على الفصل، فوزّع المبلغ على كليتين واحدة في طولكرم للعرب، والأخرى لليهود في مستعمرة كفار طابور، وبذلك تم تكريس الفصل

بدل التعايش وتعميق الجفاء بدل الإخاء، وفشل المشروع.¹⁰ وأضاف
رئيس التحرير بحماسة:

- لكن روزا ماير تصر على إقامة مشروع يحقق ما عجز عن تحقيقه
مشروع خضوري الزراعي بإنشاء كلية تمرّض مختلطة تضم بنات
العرب وبنات اليهود، وأنت تعلم أن البنات أقرب للسلم لأنهنّ أطف
وأرق.

ابتسم أمين وهو يتذكر ما حدث بجريشة، فقال بسخرية واضحة:
- حقا؟!

وأضاف مستبقا الأحداث:

- وماذا لو فشل المشروع؟

قال الآخر بأمل واندفاع:

- تعاد الملايين إلى روزا لتنتج به فيلما ضخما يدور حول كاتين عربي
ويهودي مرا بتجربة رائعة تصلح نموذجا للتعاون والتسامح بين
الشعبين.

سأله أمين مستبعدا:

- تقصد خليل السكاكيني؟!¹¹

صاح الآخر:

- هو بعينه.

وحين رأى نظرات الشك، قال مشجعا:

- اذهب هناك لترى بعينك ثم أجبنني. اذهب لترى.

ذهب أمين إلى الاجتماع ليرى بعينه، وفوجئ بما زاد حيرته وربما قلقه،

10See Kisch diary, 2 January, 1924.

11. إشارة إلى تجربة خليل السكاكيني في يومياته: كذا أنا يا دنيا

فبالإضافة إلى روزا ماير التي بدت شبه مجنونة بشعرها الهائج وصوتها المدوي كالمدفع، وجد ليزا اندراوس وسط مجموعة من الصحفيين والمصورين، ووجد الحاكم.

47

دخل الحاكم ورأى ليزا، فشعَّ وجهه بابتسامة عريضة، وقال "هالو" بنغمة فسيحة وهو يشد على يدها بحميمية كما لو كان يعرفها منذ عشر سنين. كانت قد تركت في نفسه أثرا بليغا مذ رآها في مظاهرة النساء وأثارت قريحته وخياله. امرأة مثقفة جميلة، ذكية، لطيفة بدون تشنج، تجيد الانجليزية بطلاقة، وتلبس ملابس أوروبية بما في ذلك برنيطة. أثارت اهتمامه فأعاد قراءة ملفها عدة مرات وسأل عنها وجمع فيضا من المعلومات: من أين أتت؟ ماذا فعلت؟ أين درست؟ ماذا تعمل؟ أين تذهب؟ هل لها صديق؟ هل لها علاقات عاطفية أو جنسية؟ هل هي سهلة؟

قال له مرافقه واصف محذرا:

- هذي يا سيدي أرثوذكسية.

ابتسم الحاكم، وقال بثقة:

- أعرف، أعرف.

وسرح خياله في اتجاه بعيد وأخذ يحلم. كان وحيدا، في الستينات ويعاني بوادر بروساتاتا وسن المينوبوز أي سن اليأس، أي اختلال الهرمونات والتوازن. كما أن العمل في هذا البلد المعقد ونغر اليهود يجعل الإنسان بلا توازن حتى لو كان في ريعان شبابه. وضغوط التاج والحكومة

وزوجة كاللوح مقددة صارت بلا روح، بلا حياة ولا دموية لأنها هي أيضا سبقتة إلى المينوبوز بخطوات سريعة منتظمة، كل ذلك جعل من الرجل حالة ضعيفة، لأن الجنرال هو أيضا رجل، وهو إنسان، وهو وإن كان في الرmq الأخير، ففيه شوبية تتلكأ ودم ما زال شبه أحر وشهية مفتوحة للعنلنا بحاجة لما هو أكثر من مدام ريتا وبار خريستو. هو بني آدم، وهو قرفان مما يجري، وهو يائس مما حقق. إذ بعد العمر، والتجارب، وأهوال الحرب، والإخفاقات، والتفجع على مرور العمر كلمحة سريعة، كشهاب سريع، بلا أمل في المستقبل، لأن المستقبل لا يحمل إلا الأمراض والتقاعد، أصبح يحس أن الحاضر هو أرجوحة، أكلة سريعة، سكرة سريعة، نومة سريعة في القيلولة قبل أن ينام نومة أخيرة بعد تقاعد في حضن يشيخ.

قال "هالو" ثانية وربت على ظهرها بحميمية. كانت قد جاءت بمصور ومراسل بالإضافة لعدد كبير من الصحفيين من كل اتجاه وخلفية. ولم يجد الحاكم في ذلك ضيرا ما دام الشباب قد أخذوا الإذن من الشرطة وما دامت ملفاتهم بلا شائبة وبلا نشاط سياسي يذكر. كما أن وجود الصحافة في هذا الوضع أمر نافع، لأن المشروع بحاجة لتصوير ودعاية حتى ينجح فيما فشل مشروع خضوري بتحقيقه. كما أن زيارة امرأة شهيرة كروزا ماير يجب ألا تمر مرور الكرام، ولا بد أن تذاع وأن تنشر في كل الصحف والإذاعة وتتصدر أخبار النشرة الأسبوعية التي تصدر عن مكتبه فتدعو الأطراف، كل الأطراف، إلى التوافق.

نظر إليها يتأملها وتغاضى عن روزا والصحفيين واقرب كثيرا وهو يقدم سيجارة مذهبة الطرف أخذتها بدون تردد ومال عليها ليسعلها. شم رائحة رقيقة، عطر بنفسج، واحتك خده بخصلة سارحة تتأرجح

أثارت خيالاته وهزّت بدنه. كان شعرها يغطي الرقبة، فيه موجات طبيعية، لونه فاتح إلى حد ما، بين البني والأشقر، وعيناها واسعتان بلون عسلي على أخضر، وحواجب وأهداب كثيفة. كانت مكشوفة الرأس، بلا برنيطة، وملابس متقشفة بسيطة، أبسط بكثير مما كانت عليه حين جاءت مع الست رفيعة - أم احمد في مظاهرة النساء. وقدّر أن يكون ذلك تكتيكا من جانبها لتنال رضا وتأييد التروتسكية. ابتسم بإعجاب لمظهرها وللذهن الحصيف المتمرس، والدبلوماسية، ورأى أن هذه الفتاة تصلح كمديرة للمشروع.

لم يدم انشراح الحاكم واستمتاعه بعبير البنفسج والأنثى، لأن من جاء من الوكالة اليهودية كان العسكري المسرح من الجيش البريطاني الكولونيل كيش. الكولونيل كيش رجل ساخط، لأن ماضيه كان بغضيا فأصبح أبغض. خدم في المستعمرات البريطانية بشكلٍ مرضٍ وأصيب في إحدى مهماته فنحي جانبا ومُنح منصبا سياسيا كترضية له، لكنه ظل مكانه فلم يترفع، ولم ينل علاوة ترضي غروره، فأصيب بإحباط مضاعف: الأول جسدي، والثاني معنوي، فأصبح مجروحا موتورا وبحاجة لمن يعرف قدره. في تلك الأثناء التقطه وايزمان وقال عنه "حالة ممتازة تنفعنا." وسلّمه منصبا خطيرا في الوكالة اليهودية أعادت إليه اعتباره إذ أحسّ هنا بين الأضعف، أي بين العرب، أنّه قوي متميز، لأنّه أبيض ولد في المستعمرات البريطانية وخدم فيها وعاش هناك بين الملونين مثل السيد، ثم جاء هنا ليكمل دوره، فاشتغل بالعرب يرشي هذا ويفسد ذاك بأموال روتشيلد وأمثاله، ونجح جدا مع الفقراء ومع الوجهاء وبات يظن، بل يؤمن، أن العرب، كل العرب، هم شعب حمير بلا أخلاق ولا رادع، وأن فلسطين لا تستحق إلا الأقوى.

يعرف الحاكم كل هذا وذاك عن كولونيل كيش، ليس فقط من ملفه القديم وتاريخه، بل لأنه عمل تحت إمرته في الهند وفيجي وسيراليون وكان الرجل mediocre - أي بلا مزايا تدعمه وترفع قدره، فظل في الظل بلا أضواء، وكثير من الظلمة في قلبه، فأخذ يقتص من الأضعف حين استقوى بأموال روتشيلد والحاخامات، وكان المسؤول عن فشل مشروع خضوري الزراعي إذ أصر على الفصل واستقتل عليه وبعث برسائل ملغومة لبلفور ولويد وهربرت صموئيل وصلت للحاكم في حينه يقول فيها: إن الحاكم يصر على أن يعامل اليهود كما كانوا يعاملون الملونين في الهند وفيجي وسيراليون مع أن اليهود ليسوا ملونين ولا محليين، لأن معظمهم أشد بياضا من الأوروبيين وبدم بارد مثل الانجليز وربما أبرد، ولأن التعامل مع العرب واليهود كما لو كانوا متساوين في القدر والبياض والأهمية هو أمر مرفوض، بل شائن، إذ كيف يستوي الأبيض مع غير الأبيض والأوروبي بال native والمتعلم بالجاهل؟ وهل يستوي كولونيل بريطاني بفلاح هجين يركب دابة، وخلفه امرأة كالدابة على رأسها قنطار حطب، تمشي مشيا، وهو راكب فوق الدابة، يجلس بوقار وتميز، لأن الطبيعة غلظت فيه حين جعلته في هيئة رجل! هذا الرجل، رجل الدابة فوق الدابة أمام الدابة، هل يستوي مع كولونيل أبيض جاء من الهند وفيجي وسيراليون والآن هو الدينامو المحرك في الوكالة اليهودية وينعم بدعم روتشيلد والحاخامات ومجلس اللوردات والحكومة؟!

الحاكم يعرف كل هذا وذاك من ملف الرجل، ويعرف أيضا أن هذا الرجل هو المسؤول عن فشل مشروع خضوري الزراعي، لأنه قسم المشروع إلى قسمين، وقسم الأموال إلى جزئين، وقسم الكلية إلى

كليتين، وحتى خضوري بعد مماته صار خضورين. فهل ترضى روزا أن تنفصم مثل خضوري وتصبح روزتين؟ هذا بالطبع غير وارد، لأن روزا صرحت بوضوح أنها لن تقبل بتجزئة المشروع، وإذا حصل، فستأخذ مبلغها وتعود به إلى كاليفورنيا وتنتج فيلماً عن السكاكيني والشاعر اليهودي ألتر ليفين وما حدث أيام الأتراك في فلسطين. وهذا بالطبع غير مقبول، بل فضيحة. ماذا ستقول في ذاك الفيلم؟ أن الانجليز بعكس الأتراك شجعوا الطائفية والفتنة وأن اليهود سبب الفتنة؟ حينذاك ماذا سيقول بلفور وروتشيلد عن الموضوع؟ ماذا سيقول مجلس اللوردات وجمالة الملك؟ ماذا ستقول الصحافة؟ أمر كهذا لن يحدث، خط أحمر، حتى لو أدى إلى معركة طاحنة مع الكولونيل، لأن سمعة التاج والحكومة وسمعته هو، فوق الكولونيل والوكالة، فوق الانتداب وأرض فلسطين. هذا المشروع هو مشروعه، آخر مشروع قبل تقاعده، فهل يفشل؟ لا، لن يفشل وسيترك في البلد سمعة طيبة ومشروعاً يمسح به فشل خضوري بمشروع تمريض.

48

جلست روزا، وهي امرأة مربوعة بشعر هائج تركته كما هو بدون تسريح على كفه، وبحاجيين بدون تشذيب ووبر كثيف تحت الأنف مثل الشارب. لكن عينيها مثل نجوم ترسل شذرات فضية، ولسان سليل كالمطر، وفكاهة سريعة لماحة، وضحكة من القلب تضيء الأحشاء وتسعدها وتسعد من يسمع فيتجاوب ويضحك معها بصوت عال لسيل القفشات. وهذا ما أثلج صدر الحاكم وأسعده لأنها ستكون حليفة قوية ضد سيء الذكر الكولونيل كيش.

لكن فرحة الحاكم لم تدم طويلا، لأن المرأة نوهت ببعض القفشات ذات المعنى ضد الانتداب والحكومة بما في ذلك الوكالة اليهودية. وهذا يعني أن المرأة لا تعباً ولا تحترم من في السلطة، أية سلطة، بل ربما هي معقدة من أيها السلطوي الذي قمع طفولتها، لأنه ككل يهودي كبير في السن ومحافظ كان يتمنى ولدا فجاءته بنت. وكان يتمنى لو كانت البنت جميلة كأُمِّها ونساء بيفرلي هيلز فجاءت على العكس، فلا هي بنت ولا هي ولد، ولا هي جميلة مثل أمِّها ونساء بيفرلي هيلز. كما أنَّها - من يوم يومها - صعبة وسليطة، وفيها قابل للتحدي وعدم الانضباط والشراسة. وألعن من ذلك كله أنَّها انضمت وهي بعد مراهقة غضة إلى عصابة مجانين يسمون أنفسهم بالثوريين التروتسكيين، وأين؟ في بيفرلي هيلز!

هذه هي روزا ماير، فُكر الحاكم بتهكم. هذا ما كان ينقصه من جانبهم، أي جانب وايزمان وبن غوريون والكولونيل كيش! لكن المرأة إنسانة،

وذات نوايا طيبة وقلب واسع. ومهما كانت صفاتها غريبة وعجيبة، إلا أنها أفضل بكثير من المذكورين، هي إنسانة.

49

افتتح الحاكم الجلسة بكلمة تليق بمقامه كرجل مسئول متفدّ والممثل الرسمي للانداب وجلالة الملك وبريطانيا، فكان موفقا في اختيار ديباجته وكلماته. بدأ بالترحيب بالمرأة العظيمة الإنسانية، ذات التاريخ، لأن أباهما هو ماير العظيم، الذي أثرى العالم بأفلام الحب والعواطف وقصص الشعوب المختلفة من الرومان إلى الإسبان إلى الألمان إلى الأفغان، بغض النظر عن الدين واللون والجنسية، وبذلك ثار على التقليد والتحيز وقدم ثورة في الفكر الإنساني المترفع عن التمييز والتعصب. وهذه روزا الإنسانية النبيلة تسير على درب أبيها، وتقدم لنا في هذا المكان الذي يعجّ بالكراهية والعصية مشروعا نبيلًا يصلح لأن يكون نموذجا للحب والتسامح، لأن لا شيء في الدنيا أرقى وأسمى من مهنة التمريض الجليلة التي تجسد روح المرأة وحنان الأم وتذكرنا بملائكة الرحمة، من فلورنس نايتنجيل إلى هداसा إلى القديسة تريزا إلى أم الأمّهات سيدة الناصرة، أم يسوع المسيح.

فجأة، بدون مقدمات، بدون توقع، قاطعته روزا بصوت عريض مدوي وهي تدور بعينيها وتحقق بالصحفيين:

- من هذا الشاب؟

وحدقت في وجه أمين الذي بدا لها غريبا عن الجو، فطأطأ وانحنى وخبا وجهه في أوراقه وتمنى لو كانت الطاولة أوسع وكرسیه أبعد، حتى لا

يراه أحد وتحسّ به تلك المرأة التي لم يكن يتوقع أن يكون مثلها موجودا على سطح الأرض، لكن المرأة رأته وابتسمت، فابتسم بخجل وخباً وجهه.

الكولونيل كيش وجدها فرصة مناسبة للخروج عن السياق، لأن التفاصيل سوف تؤذيه. فماذا سيقول؟ أيقول إن الوكالة اليهودية لن ترضى بمشروع مختلط مع العرب، وأن الفصل هو ما يرغبون؟ هذا ما فعله بمشروع خضوري ووفق كثيرا في حينه، ففصل المشروع وجزّاه وكانت النتيجة كليتين زراعتين، واحدة للعرب في طولكرم، وأخرى لليهود في كفار طابور.¹² لكن الآن الوضع خطير، فإن قال لا نريد مشروعا مشتركا مع العرب ستأخذ روزا مشروعها وتذهب به إلى كاليفورنيا لتنفذ به مشروع الفيلم. وذاك المبلغ ليس لعبة، ليس مزحة، عشرة ملايين، عشرين مليون، ثلاثين، أربعين وربما أكثر! تلك الملايين تهرب منهم؟ تحجب عنهم؟ والمرأة مصرة ومجنونة. شكلها مجنون، شعرها مجنون، عقلها مجنون، لكن الأجن منها جابوتنسكي.¹³ جابوتنسكي قال: إذا أصرت المجنونة أن تعملها وأنتجت الفيلم عن السكاكيني وألتر ليفين سنقتلها. واشتد الخلاف في الوكالة. جابوتنسكي يقول سنقتلها، وبن غوريون يقول لا نقتلها. جابوتنسكي يقول هي مجنونة، وبن غوريون يقول أنت المجنون. جابوتنسكي يقول ستفضحنا، وبن غوريون يقول فضيحة أكبر أن نقتلها. وأخيرا أفتاها حاييم وايزمان، وقال لكيش: أنت تصرّف. اخرج من المأزق بلباقة. هات الملايين.

12 See "Negotiations with Friends," in One Palestine, complete.

13 قائد الجناح الأكثر تطرفا ودموية في الحركة الصهيونية.

وها هو الآن بعمق المأزق، يحاول أن يتصرف بلباقة، حتى يقضي على فكرة فيلم السكاكيني وألتر ليفين، وحتى يجيء للوكالة بكل الملايين. قالت ليزا بصوت ناعم:

- هذا أمين، هذا معنا. مراسل للاتحاد، لأن المشروع بحاجة لإعلام. التفتت روزا إلى كولونيل كيش وخاطبته بلا لقبه:

- وأنت يا كيش، أين مراسلك وإعلامك؟

تفاجأ بالسؤال، لأنه ما جاء كي يوافق على المشروع ويروج له، بل المهم، كما قال وايزمان، أن يظل يراوغ ويناور وأن يبعد الإعلام والصحافة حتى يتجنب الوضوح والتفاصيل. وفيما بعد، حين ينفرط المشروع، يقولون للغرب وللعالم إن العرب هم من رفضوا. هذا المطلوب. هذا دوره.

قال الكولونيل ببطء وشرود كأنه نائم:

- نحن أعددنا للمشروع مؤتمرا صحفيا في الجامعة العبرية. سيكون في استقبالك بروفيسور وايزمان والسيد بن غوريون وأعضاء الوكالة اليهودية والهستدروت والصحافة. سيكون أيضا ممثلون عن الشيوعيين وجريدة الاتحاد وكل الآخرين. جريدة الاتحاد شيوعية، هل تعرفين؟

قالت روزا:

- أعرف، أعرف.

أضاف بلؤم:

- وليزا مسيحية أورثوذكسية.

نهرته روزا بنفاذ صبر:

- لا يعني إن كانت مسيحية أو بوذية. ولا يعنيني حتى لو كانت

تروتسكية. ما يعنيني هو موقفكم. ما موقفكم من مشروع، مشروع
تمريض للعرب واليهود أم ستفعلون ما فعلتموه بمشروع خضوري
الزراعي؟ ماذا لديك؟ هيا قل لي.

قال مداورا:

- لم نقرر بعد. نريد أن نعرف موقف العرب حتى نقرر. هم في العادة
لا يرغبون الاختلاط بنا وخصوصا اختلاط البنات.

صاحت بدوي:

- يعني ماذا؟

خفض صوته، وابتسم بحرج:

- ماذا أقول؟ يعني والله إني أخجل من هذا القول، لكن نساءهم
محجبات محافظات وبناتنا كما تعرفين منفتحات. هم يهتمون بناتنا
بالفحش والخلاعة ويصفونهن بكل الأوصاف الغريبة. هل يقبلون أن
تختلط بناتهم ببناتنا، فيصيب بناتهم ما أصاب بناتنا من جرأة وانفتاح
وتطور؟ أنا أشك. أنا أؤكد أن العرب لن يوافقوا على مشروعك، لأن
بناتنا وبناتهم مختلفات، كل في واد.

هدرت روزا:

- يعني ماذا؟

- يعني نفهم ما موقفهم ثم نقرر.

قالت ليزا فجأة بوضوح:

- نحن نوافق.

قاطعها كيش:

- أنت مسيحية ولا تعرفين.

تدخل الحاكم لأول مرة مدافعا عن ليزا، ليكسبها:

- أنا رأيت المسلمات يخلعن المناديل ويقذفنها في الهواء بشكل رائع.
أنا رأيت هذا بعيني هذه. المسيحيات قذفن البرانيط، والمسلمات قذفن
المناديل. شيء رائع. المهم الآن ما موقفكم؟
أحس الكولونيل بكل العيون مصوبة نحوه، فالتفت إلى الشاب المنزوي
في أبعد مكان على الطاولة:

- وأنت يا شاب، أنت مسلم؟
هزّ أمين رأسه وأجاب بصوت خفيض:
- نعم، مسلم.

- وتقبل أن تكون أختك بين مجموعة يهودية؟
ارتبك أمين، وهو يتخيل أخته المقيمة، ذات العقد والإشكالات،
بين البنات اليهوديات الأوروبيات والأميركيات والكيوتسيات. أخته
وداد بين هؤلاء حتما ستضيع. فظل صامتا يفكر بتوتر.

رأته ليزا مرتبكا ففهمت بوضوح معنى صمته، وسارعت لتسند موقفه:
- هذه فرصة للتعلّم. نحن نعرف أن بنات الشرق مختلفات عن
بنات الغرب. هذا طبيعي، هذا واضح، ولا مجال للأخذ والرد حول
الموضوع. لكن السؤال هو هذا: هل تظل بنات العرب الشرقيات
على حالهن، وبنات اليهود الغربيات على حالهن؟ إذا كنا نرغب بإقامة
دولة ديمقراطية تضم الطرفين، إذن لا بد أن نتقارب. نأخذ من بعض
ونتعلم. بنات العرب يتعلمن من اليهوديات أساليب الغرب المفيدة،
وبنات اليهود الغربيات يتعلمن من بنات العرب كيف ينصهرن في جو
الشرق.

انفعل الكولونيل:

- نحن ننصهر في جو الشرق؟ نحن من الغرب وسنبقى من الغرب.

جئنا من الغرب، نحكي ونتخاطب بلغة الغرب، عشنا في الغرب طوال قرون، أسسنا فيه، خدمنا فيه، أعطينا الغرب ألفة العلماء والفنانين والحرفيين. نحن أسسنا المدنية في دول الغرب.

احمرّ الحاكم وارتفع الضغط في رأسه لأنّه يعود ليستمتع لنفس النعمة ولا يجروء على القول: طيب، اسكت، سئنا الغرور وسئمناكم. صاحت روزا:

- طيب، خلص، فهمنا الموضوع. هذا الموضوع أنا لا أهضمه. يا كولونيل كيش، كنت في الهند وكنت تعرف أن الهنود كانوا حضارة غنية، أغنى بكثير مما كنا. فلماذا التبجح والتذكير؟ وإذا كان لا بد من التذكير فلتذكر أنك كنت هناك كمستعمر. لكن هنا ماذا ستفعل؟ تريد الهند كنموذج؟ ماذا تريد؟ اختر، حدد.

والتفتت إلى ليزا وحشرتها:

- هل يرضى رئيس تحرير الاتحاد عن مشروعى؟
قالت ليزا بسرعة وثقة:

- الكل راض ومتحمس.

قال أمين بصوت خفيض شبيه بالهمس:

- هو أرسلني.

- وأختك أنت ما موقفها؟

حدقت في وجه أمين وهي تطلق على الطاولة بقلم رصاص بعصبية فلم يجيبها. عادت تلح بصوت عال:

- هل تقبل أختك أن تتعلم فنون التمرىض في مشروعى؟
ارتبك أمين:

- أختي لم تنه الابتدائية. أختي حامل!

صاحت ثانية بعصبية:
 - ولولم تكن أختك حاملاً، ولو كانت بشهادة ابتدائية أو ثانوية، هل تقبل أن تتعلم فن التمريض في مشروعي؟
 لم يجيبها وظلّ يحدّق في وجه ليزا لتسعه كما أسعفته أول مرة. فقالت ليزا:

- تقبل، تقبل. اسأليني أنا. أنا على استعداد لأن أملأ كلية التمريض بعشرات المسلمات والمسيحيات. أنا أتكفل بالموضوع، أنا أضمن لك.
 قال الحاكم باسمها:

- ليزا تتكفل بالموضوع وهي أهل له. ليزا مثقفة ونشيطة، معها شهادات، ولديها معارف من كل الأوساط. أبوها كان أشهر تاجر، وأمها كانت ابنة راهبات تعرف انجليزي وفرنسي وكانت تعزف الأرغون في الكنيسة. وربما ليزا تعزف أيضا.
 والتفت إليها مداعبا:

- هل تعزفين مثل أمك؟
 التقطت روزا نظرتة ولهجته فصاحت بسخرية مرحة:

Oh my goodness! -

احمرّ الحاكم وتراجع، وقال بلهجة جدية:
 - يقولون دولة ديمقراطية، يعني كالغرب، ماذا نريد أفضل من ذاك؟
 تجهمت ليزا، وقالت بسخرية وعصبية:

- لا يا سيدي، نموذج الغرب لا ينفعنا. يعني استعمار؟ يعني استغلال؟
 يعني انتداب مثل هذا؟ هذا الانتداب أبشع غلطة. ماذا تفعلون هنا في القدس؟ تناكفون هذا وتناكفون ذاك؟ لا ترضون هذا ولا ترضون ذاك، فتتخذون هيئة الضحية والمظلومين، فمن الظالم؟ قل يا جنرال من

الظالم؟ وبالنسبة لليهود، إن ذهب الانجليز من يحميهم؟

واجهها الكولونيل محتدا:

- لسنا بحاجة لمن يحمينا.

صاحت بجنون:

- اسكت أنت. من وكلك؟ من وكلكم؟ انتم لا تمثلون يهود العالم.

من وكلكم؟¹⁴

استفزته وأخرجته وأخرجته عن طوره ونسي كل ما قيل حول المداورة

والمناورة وعدم الوضوح فصاح بها:

- وأنت لا تمثلين يهود العالم.

- ولا أنت.

- ولا أنت.

وانتهى الاجتماع وهما يتبادلان الاتهامات، وكل واحد يصيح " لا أنت

ولا أنت. " فتم الاتفاق على أن يؤجلا الاجتماع ليوم الغد حتى تهدأ

النفوس ويسود العقل. وحتى الغد، يستطيع الكولونيل أن يستشير

القادة على أن يعود لهم بالجواب الأكيد: هل تقبل الوكالة اليهودية

بمشروع روزا للتمريض؟

14. 4% فقط من يهود العالم كانوا مقتنعين بمشاريع الحركة الصهيونية.

50

قال الحاكم:

- خذهم يا واصف إلى المعرض في البلدية. ضيفتنا هذه لا تعرف القدس. خذها وفرّجها وسليها، يعني سليها وسليهم.
سأله واصف همسا:

- يعني هاكوب والا خريستو؟
همس الحاكم:

- أقول البلدية يا واصف، البلدية. وبعد المعرض خذها للمبكي والأقصى خليها تشوف. فاهم يا واصف ما أقصد؟
هزّ واصف رأسه:

- فاهم، فاهم.

وأخذ الثلاثة وأركبهم عربة بحصان مزركش فصاحت روزا كما يصيح كل السواح: This is amazing wonderful! وركبت بجوار الحوذي لترى الأشياء المدهشة بشكل أفضل. بينما ركب واصف مع ليزا وأمين في الخلفية.

كانت زيارة كالنزهة. روزا قالت عنها: "Picnic" وليزا قالت عنها: "فولكلور" وواصف قال عنها: "شطحة". أما أمين، فكتب في كراسته كمراسل ما أعلنت عنه البلدية: معرض المنتجات الوطنية.

وهذا ما كان، إذ أن المنتجات الوطنية كانت كما وصفتها ليزا بدقة، يعني فولكلور، يعني تراث، يعني قرية، إذ أن كل المعروضات، أو معظمها، كان مصدرها القرية. زيت الزيتون من القرية، والجبن

البلدي من القرية، والسمن والعسل والمخلل، وصواني القش وجرار الفخار، وكل التطريز الفلاحي بكافة أشكاله وألوانه كان مشغولا في القرية. حتى الصابون النابلسي، وهو فخر الصناعة الوطنية وأكثرها أناقة وحادثة، كان مصدره من القرية. وهذا ما أكد لروزا ماير أن هذا الشعب، أو معظمه، جاء هو الآخر من القرية.

لكن رئيس البلدية، وهو رجل في الخمسينات، جميل الهيئة، حليق الذقن، وبشارب شبيه بكلارك جيبيل وبلكنة انجليزية أكسفوردية، حيث درس وتهدب وتفرنح وأحضر معه أول رولز رويس في المدينة، فسّر لروزا بأنفة وثقة أن ملاحظتها ليست دقيقة ومطلعة، لأن الشعب الفلسطيني هو شعب مدينة ومتعلّم. فقالت ليزا مصححة:

- الشعب الفلسطيني شعب فلاح. ٧٠٪ من القرية. ٧٠٪ يعانون الفقر و٧٠٪ أميون. نحن نعمل لاختصار الفقر والأمية، لكن الانتداب لا يتعاون. ضرائب وسجون ونقص مدارس ودعم المخاطر لإبقاء الوضع على حاله.

التفت رئيس البلدية لفته صغيرة، صغيرة جدا، ثم أهملها كليا لأنه يعرف من هي ليزا، يعرف ماضيها وحاضرها، ويعرف ما تفعل مع الاتحاد ومع النساء المبردعات بالبونية والغطوة والمنديل. هو يقرف من الغطوة والمنديل، ويسخر من البونية والسفور وركن المرأة، ويخجل بالمرأة العربية. لهذا أهمل زوجته أم الأولاد وصاحب يهودية فرنسية تزوجها بعد سنتين أو ثلاثة وأجلسها بجواره في الرولز رويس، وأسكنها في بيت جميل في القطمون. وكان يحب قبل المنصب في البلدية أن يقضي أوقات الفراغ - وهي كثيرة - في بار هاكوب أو خريستو، حيث التقى واصف والحاكم وأتباعه وأيضا بالحلوة الفرنسية، فالتزم

بمواعيد دقيقة لحضور الأنس عند خريستو حتى شُيِّعَ أنَّه نال الخطوة عند اليهودية والحاكم، فأسس حزبا يعترض فيه على القوميين، لأنَّه لا يؤمن بالقومية ولا الفلاحين ولا الأميين، فهو متعلم ومثقف وابن عائلة معروفة، دخلت صراعات ومعارك زمن الأتراك وزمن الانتداب على حد سواء، حتى تظل في قمة الهرم فوق جرف عميق شبيه بالقبو وحس الدم. وحتى يثبت للقوميين أنَّه منهم، اقترح إقامة أنشطة ترضي المختير والفلاحين، وترضي الحاكم، لأن المعرض يعرض ما أنتج من انجازات تشيد بمزايا الانتداب وكفاءة الأتباع والحاكم.

ليزا تعرف كل هذا وذاك، لذا أهملته وأهملها وركزت اهتمامها على روزا ماير وكلية التمريض الموعودة - إذا نجحت، أو فيلم السكاكيني وألتر ليفين - إذا فشلت. المهم في الأمر ألا تخفق فتعود روزا إلى كاليفورنيا بخفي حنين وكل الملايين.

أما رئيس البلدية، فقد اعتذر عن مرافقة المجموعة في جولتها بين الخيام والمظلات، لأنَّه موعود بوفود وزيارات هامة جدا. لكنه أصرَّ على دعوتهم لعشاء المساء في البلدية بعد الجولة وشراء ما يرغبون من منتجات وطنية.

قادة الأحزاب جاءوا للمعرض ليعترضوا على أنشطة يقيمها رئيس البلدية المقرب من الانتداب والحاكم، ولكي يشعروا المشاركين في المعرض أنهم غير بعيدين عن القرية، لأن القرية والفلاحين هم العزوة وعظم الرقبة، ولكي يقنعوا الناس أن الأوضاع الحالية تحتم على الجميع أن يتحدوا، وأن ينسجموا لتزول الفوارق والامتيازات، وتقترب القرية من المدينة، وأن على القادة والوجهاء أن يجتذبوا القاعدة الشعبية بها فيها من فقراء وفلاحين وأمينين حتى يتمكنوا من توحيد الصف لمواجهة اليهود المنسجمين لأن اليهود - كما يبدو - بلا فقراء ولا وجهاء ولا حمولات وعشائر ولا فلاحين ولا أميين. إذن فالعمل على الوحدة تحتمها الضرورة الوطنية. وهذا المعرض هو معرضهم وليس معرض رئيس البلدية والانتداب والحاكم.

وهكذا، انتقى كل زعيم من الستة، خيمة كبيره أو صغيرة، حسب امتداد العشيرة، وبدأ يخطب في القرويين وبعض الزوار أن الانتداب هو أصل البلاء، وأن على الجميع أن يتحدوا وينسوا الفوارق والامتيازات، وينسوا التحزب للعائلات والحمولات والعشائر، وينضموا بدلا من ذلك إلى حزبه.

رئيس البلدية المتأجلز، حتى يستقطب زوار المعرض ويحيرهم، قام بتخصيص سرادقين ملونين جيء بهما خصيصا من مصر لهذا الغرض، أوكل أحدهما لشيخ جليل من الأزهر، وآخر لفرقة فنون شعبية فيها مواويل ورقص وغناء ومدائح وتوزيع كنافه وتمرية.

فالتّم الفقراء والمؤمنون في السرادين حول المقرئ والمداحين فخلت خيام المعروضات من الزوار والمستمعين. غضب الزعماء وأصحاب البسطات، لأن المعروض من الجانيين خرب وكسد ولم يتسوق، وهذا ما جعل القرويين يتساءلون بغیظ وإحباط: جئنا المعرض حتى نسمع شيخ الأزهر ونأكل كنافه وتمرية؟! ورغم ذلك انضموا لحشد الكنافه والتمرية، لأن ما يؤكل أفضل بكثير مما يسمع، والأفضل من ذلك كله، رقص وغناء ومدائح.

52

استمتعت روزا في ذاك الجو أيما استمتاع، واندجحت فيه، فأكلت كنافه وتمرية ودارت على الخيام ورأت الزعماء يخطبون كل في اتجاه، والناس يصفقون بعدم انفعال، فقالت بحماس: هذه للحق ديمقراطية. وحين حاولت ليزا أن تفهمها أن هذا الوضع لن يخدمنا نفضت يدها، وقالت بسخرية واستهزاء: أنتم البلشفيك مثل الخشبة. أنتم متزمتون بلا خفة دم ولا حيوية. أنتم تعبدون القوالب. لماذا تريدون أن ينضبوا؟ يحبون الرقص، يحبون الغناء، يحبون الأكل المجاني، ولا يأبهون بخطب الزعماء، وهذا جيد، جيد جدا. كما أن الزعماء بلا قيود ولا ضوابط، وهذا جيد، جيد جدا. أم تريدون نظاما خشبيا يمنع الناس من الرقص والصلاة والتجلي؟ هذه يا ليزا حيوية، خلق، إبداع، فوضى خلاقة وحرية. فليصلوا. من يريد الصلاة فليصل، ومن يريد الرقص فليرقص، ومن يريد السياسة فليخطب، من يمنعهم؟ أم أن على الجميع أن ينخرطوا في حزب واحد مقدس يعبدون أصناما بشرية ويلبسون الكاكي

والأحمر؟ على كل حال، أنا أرى بين الألوان لونا أحمر وآخر أسود وآخر أخضر. فما الداعي لكل هذا النكد؟ تعالي نرقص، تعالي. وحين رفضت ليزا أن ترقص التفتت إلى أمين ومدت يدها: وأنت يا شاب، تعال نرقص؟ فاحمرّ واصفرّ وأشاح بوجهه وتمتم كلمات لم تفهمها لأنها كلمات عربية، ولأن الأصوات وضرب الطبله والفقاشات واندماج الجمهور وتصفيقه حرمها من سماع شيئا آخر غير ما قالت ليزا وأمين ثم لواصف: وأنت يا شاب، تعال نرقص. فاندفع واصف كالصاروخ وسحب يدها وانطلق بها نحو المغنين وأخذ يدبك، وهي تقلده والناس يصفقون ويضحكون ويصفرون. وحتى الزعماء جاءوا سرا ليكتشفوا ما يدور في سرادقي البلدية، فرأوا ما أذهل منطقتهم، لأن الأمور تمشي بلا حساب ولا منطق، فهل هذا الشعب هو من يرزح تحت الانتداب ويواجه اليهود ويعاني من الفقر والسجون والضرائب؟ أم أن الحرمان ما يجمعهم، رقص وأكل مجاني ومقرئ وكنافة وتمرية؟!

.....

على المشرق

فرحت وداد بخروج وحيد. جاءه شيخ من الجامع بجبة وقفطان ولفة

ضخمة حجبت رأسه والقسم الأعلى من وجهه، وخرج الاثنان في جنازة في وضح النهار. قبروا الميت ورشوا التراب على كفنه، وقرأوا الفاتحة عن روحه، وبعد ذلك انسلاً من المقبرة الغربية إلى جبل الطور ثم قرية روبين أعلى جرزيم، حيث تلقتهم المجموعة وذهبوا به إلى شيخ الجليل.

في الصباح، جاء شيخ الجامع وطرق الباب. من خلف الباب حيا وقال إن الأمانة وصلت بسلام، اطمئنوا. فبكت الأم وارتاحت وداد وعادت إلى غرفتها تفكر بالصالون وبيع الصيغة.

ترددت قبل بيع الصيغة طويلاً. كانت خائفة من اتخاذ أي قرار. لكن زواج رشاد وذهاب وحيد منحها الشجاعة والجرأة وباعت الصيغة كما لو كانت تقذف بآخر قيد يربطها. ثم اكتشفت أن العائق ليس الصيغة ولا قلة المال ولا وجود وحيد. العائق كان نقص الجرأة وعدم القدرة على تحديد هدف ما. ماذا تريد؟ تريد الصالون؟ أحياناً تريد وأحياناً لا تريد. أمّا سألتها بعد أيام عما تريد أن تفعل. سألتها بحرج شبه ذليل إن كانت تريد البقاء على ذمته رغم زواجه أم تريد الطلاق والبدء بحياة جديدة؟ وحين سمعت ابنتها تهمس بمرارة: حياة جديدة! قالت مشجعة بدون اقتناع: بعدك صغيرة وحلوة. بكرة تاخدي أحسن منه. فدخلت غرفتها وأغلقت الباب وجلست على سريرها تعد الجنيهات، عشرة، عشرين، خمسين، خمسمائة. خمسمائة جنيه ليست قليلة. مبلغ ضخّم يفتح بيتاً، يفتح مخيطة محترمة، يفتح صالوناً بأجهزته، يشتري سيارة تشغلها على خط القدس بواسطة سائق مثل وحيد قبل زواجه، تشغله كموظف لديها وتصبح ملاكة لسيارة، ثم لسيارتين ثم ثلاث فكراج ضخّم للسفريات. ضحكت باستخفاف من فكرة الكراج،

فعادت تفكر بالصالون والمخيلة والسيارة من غير كراج. أمها قالت إن البقاء على ذمة رشاد يكفل لها عيشة مريحة من حيث المال وحضانة الطفل، أما الزواج فيفقرها. قالت بحقد: أو يفقركم. بلعت الأم الإهانة وهزت رأسها بذل وحسرة. لكنها، كمحاربة قديمة انتصرت على الرملة والفقر فيما مضى، عادت تشجع ابنتها، وقالت بعناد: أنت صغيرة، وأنا لسه قوية وعندي نفس. نرجع أنا وأنت للخياطة؟ لم تجبها وعادت تفكر بالموضوع: خيطة، صالون أو سيارة؟ ثم جاء أمين وحكى عن مشروع روزا ماير للتمريض، فأضافت إلى قائمتها مهنة جديدة: تمريض أم مخيطة أم صالون أم سيارة؟ استشارت أمين حول التمريض، فأجاب معتذرا أن التمريض بحاجة لشهادة. سألت باهتمام: ابتدائية؟ قال بأسف وهو يعرف ما ترمي إليه: على الأقل ابتدائية! فقالت بنزق: أرجع للمدرسة وأتعلم. حذق في بطنها وسأل بإشفاق: مدرسة يا و داد؟ قالت بعناد: الجمعية. لم يناقشها. أخذ يحكي عن كتاباته وعن ليزا حتى يطمئنها على عمله، لأن وظيفته تغنيها عن التفكير بالعمل والكد والخروج من البيت وكأنه بات مقتنعا أنها لا تصلح إلا للبيت. فأحست بالغيرة من عمله وكتاباته واهتماماته واهتمام أمها بوظيفته وسؤالها المتجدد عن ليزا. عادت تتذكر ليزا وما كانت تقول عن العمل والجمعية ودورات التأهيل والسكرتاريا. وتفاجأت كيف باتت تفكر بتلك الاقتراحات بدون امتعاض ودون استهجان. الآن وقد باتت مهجورة، بدون دخل، بدون رجل، بدون مهنة تعيشها، وبطفل يعيق حركتها، وعدم القدرة على تحديد هدف تسعى من أجله لتحسّ بأنها ذات قيمة، ما عادت تحسّ بكرامتها. أية كرامة لامرأة مطلقة مهجورة؟ أية كرامة لامرأة

بدون علم، بدون شهادة؟ أية كرامة لامرأة بدون عمل، بدون دخل، بدون وظيفة، بدون القدرة على اتخاذ قرار؟ وفوق ذلك كله، بطن يعيق حركتها ويلبدها ويبلدها، ويجعلها تحس أن الزمن توقف عند حدود الولادة والرضاعة ورعاية الطفل والأمومة. هي لا أكثر من ولادة، هي لا أكثر من مرضعة، هي لا أكثر من خادمة للطفل وطبيعتها المحدودة بالولادة وحدود البطن. البطن حبس، الطفل حبس، الأنوثة حبس. لو لم تكن أنثى ضعيفة هل كانوا يفعلون ما فعلوا بها؟

ما زالت تحس أنها غُدرت، أمها ووحيد والعيلة، كل العيلة، بمن فيهم أمين، غدروا بها. هي تكرههم، تغلي بالحقد والغيرة. تغار من أمين، تغار من عليا بنت الجيران، تغار من كل فتاة في المدرسة ومن لم تمر بتجربة الزواج والحمل والطلاق وما زالت تحلم بالمستقبل. لكن ما نفع كل هذا الحقد والتخبط؟ هذا لن يخفف أزمته أو يجد الحل.

عادت تفكر بالصالون والحيطة والسيارة ثم التمريض. وفي كل مرة تعتقد أنها وصلت لقرار تعود لتضطرم بولادتها. متى ستلد؟ ولداً أم بنتاً؟ كيف تربيته؟ من يصرف عليه؟ هل ترميه لأبيه وتتحرق منه كما نصحتها عليا أم تبقيه وتتقيد به؟ أحياناً تحن وتتحمس لمجيء الطفل، وأحياناً تكرهه وتحقد عليه وتتمنى موته والخلاص منه. أحياناً تحلم بالطفلة ذات العينين الخضراوين وفم الياقوت وشعر الذهب، وأحياناً تغضب وتتمنى لو أنها ماتت وارتاحت من الحياة وما فيها.

أمها ما عادت تسألها ماذا ستفعل. يئست منها، خافت منها، خافت عليها وعذرتها. إحساسها بالذنب أسكتها، كسر شوكتها وأضعفها. اختفاء وحيد هز ثقتها. مع كل اعتقال أو عملية شنق تسمع عنها تحس بالدنيا تدور بها. فقدان وحيد كان الضربة القاصمة فهدها. ما عاد شيء

يعزيها. حتى زيارات أخيها المنتظمة ما عادت تهدئها وتطمئننها. أخوها ما زال مقتنعا أن ابنه وابنها يمران بنزوات شبابية، وأنها سيعودان بعد انقضاء لفح النزوة، فتتظر إليه كما لو كان طفلا صغيرا لا يفهم أمور الدنيا وأسرار الناس. ما زال غبيا سطحيا محدود الذكاء والفراصة، أما هي فتفهم وتعرف وتتوقع. حدسها يقول إن ما كان انتهى وقته، وإن الزمان لن يرجع بهم وإن ما انكسر ما عاد ينفع أو ينصلح، وأن الدنيا ستعود بها إلى دنيا الفقر والخيطة. لكن أمينا يذكرّها أنّه بات شابا، لديه وظيفة، وظيفة صغيرة، وغدا يتخرج ويرقّي ويصبح بوظيفة كاملة ودخل معقول. يقول لها إن الدنيا ما زالت بخير، ووحيد بخير، وسمير بخير، ووداد بخير، وإن الوقت سيساعدها لتجد حلوًا عملية، فتسكت وتقول: يسمع منك، اسمع مني، احكِ مع اختك واهدها. فيهزّ رأسه ويعدّها ثم ينسل من باب الدار، ويعود ليكتب عن الأحزاب والبلدية ومعرض المتوجات الوطنية، وكلية روزا للتمريض.

53

جاءت عليا وزفت الخبر. قالت ستخطب وتتزوج في أسرع وقت. ابن خالتها جاء من الشام وخطبها وهي سعيدة لأنها تعرفه وتعرف أمه وتعرف بيته وتحب الشام. الشام هناك خضرة ومياه وبردوني وحياة مفتوحة وشمة هوا. الشام هناك أرقى وأحسن. الشام هناك مثل الجنة. أسواق الشام، نزعات الشام، سينات الشام، مشاوير الشام. والتفتت إلى وداد، وسألته: تيجي للشام تحضري عرسي؟

لم تجبها وداد. كانت مذهولة من الصدمة. أحست أن عليا تغدر بها كما فعل الجميع. غدر جديد، خيانة جديدة، رفيقة كانت تضحكها وتؤانسها وتحلم معها وتشجعها. وها هي الآن تغدر بها وتغادرها. عليا كانت من شجعها على أن تحلم. عليا كانت من شجعها على أن تسخر من إخوتها، من تشنج وحيد، من وعود أمين المبتورة، من قيم الأم وقيمتها. فما معنى العيب؟ ما معنى الطلاق؟ ما معنى الموضة ولبس الذهب وفتح الصالون؟ معنى الصالون هو أن تعمل بمهنة مفيدة وتجنّي من المال ما يكفيها بدل أن تقعد بدار العيلة بانتظار القرش من جيب الأخ. وهذا الأخ إذا مات أو تزوج أو نسيها فمن أين تعيش؟ وها هي الآن تفعل ما فعلوا وتنساها. بعد كل ما قالته ووعدت به ستغادرها. إذا ذهبت عليا وذهب الصالون فمن يبقى معها يشجعها ويحلم معها ويسليها؟ لولا عليا هل كانت تحلم بالصالون؟ هل كانت تحلم بالمخيلة والسيارة؟ لولا عليا وتشجيع عليا لما أخذت القرار ببيع الصيغة لفتح الصالون أو المخيلة والسيارة. والآن وعليا تزف الخبر

أحسّت فجأة بأهمية الصالون وبات كما لو كان حلم الأحلام والخلاص
الوحيد من واقعها، فصاحت بغضب:

- طب والصالون؟

حملت الأمّ، وسألت بفضول:

- أي صالون؟

في تلك اللحظة، وقد باتت تحسّ أنّها فقدت آخر نافذة تنظر منها خارج
عالمها الضيق، وأسوار المكان ما عادت تأبه بكتّم السر، صاحت بصوت
متهدج:

- أنا بعث الصيغة يا عليا، بعث الصيغة عشان الصالون. صار الصالون
حلم حياتي.

سألته الأمّ ثانية، وهي تتلفت بين الشابتين بدهشة ووجوم:

- أي صالون؟ أية صيغة؟!

وتأملت معصمي ابتتها، وسألت بذهول:

- بعث الصيغة؟

قالت عليا وكأنّها تدفع عن نفسها تهمة خطيرة:

- كنا نفكر. كانت فكرة. وداد ما كانت متحمسة. كل يوم أقول يا الله
نبدأ تقول لي بعدين، تقول لي بطني، تقول لي ظهري، تقول لي الصالون
والحلاقة قلة قيمة. فجأة الصالون صار له قيمة؟! أمّا غريبة!

بدأت وداد تبكي وتشج كما لو كان الصالون هو الأمل الوحيد الذي
اعتمدت عليه ليخلصها مما هي فيه، ونسيت تماما أن الصالون كان
واحدا من عدة مشاريع أو أحلام أو أوهام تراودها. كما أن سعادة عليا
نخزتها وفجّرت الجرح. فها هي عليا ستخرج من هنا وتذهب هناك،
حيث الأفراح والحب والحنان والزواج السعيد وجمال الشام واتساع

الشام ونزهات الشام، وهي هنا بدار العيلة وأسوار نابلس.

قالت عليا بحرج وارتباك:

- والله يا خاله ما كنت أقصد.

هزّت الأمّ رأسها، وقالت بوجوم:

- أعرف، أعرف.

وأضافت كلمات لطيفة لتهدئة الجو وإشعار الفتاة أن الموضوع ليس

مهما، وأن المهم هو أن تجد ما يسعدها، وأن الصالون فكرة سخيفة،

لأن الصالون هنا في نابلس يعني حلاقة، يعني تزويق، يعني موضة.

والتفتت إلى وداد وحدجتها:

- نسييت يا وداد شو قالك وحيد؟

فارتفع صوت وداد بالنيشيج، ودخلت غرفتها وأغلقت الباب ورفضت

أن تخرج لتودع صاحبته أو أن تقول كلمة "مبروك" لأن الإحساس

بالوحدة وانسداد الطريق جعلها تحس أن الخيبة لن تتركها، وأن سوء

الحظ سيلاحقها، وأن الحياة باتت لا تطاق ولا خلاص إلا بالموت.

في ذاك المساء، والناس نيام، والدنيا سكون، تسلمت نحو المطبخ

وشربت علبة أسبرين بكاملها وعادت لتستلقي على السرير بانتظار

الموت.

54

لم تمت. قال الطبيب إن الأسبرين مَيَّع دمها لكن النزيف سيتوقف، لأن الأسبرين لم يستفحل.

حدّقت في السقف، في الستائر، لون الجدران، رأس الطبيب وقبة الممرضة من خلفه. كلّ أبيض. همست بضعف:

- أنا لازم أموت.

اقترب الطبيب من وجهها، وهمس برقة:

- صغيرة على الموت. واحدة صغيرة وحلوة مثلك صغيرة على الموت. رنت كلمة "حلوة" في أذنها وأخذت تدور كدوامة. حلوة، حلوة، وكررت الممرضة من خلفه: صغيرة وحلوة! سألها الطبيب باسمًا:

- عمرك ستّ عشرة؟

لم تجبه واستدارت بوجهها نحو الشباك. علّق مازحا:

- عمرك ستّ عشرة يا نِيَالِك! خذي عشر سنين من عمري وخذي كل شهاداتي.

ضحكت الممرضة للنكتة لكنها لم تتجاوب، ظلت تنظر عبر الشباك وترى السماء من خلف الزجاج وورق الكينا وعصفوراً يقفز وحمامة، ثم سرب حمام.

قال الطبيب:

- واحده صغيرة وحلوة مثلك لازم تكون زي العصفور. شايفة العصفور؟ شايفة الحمام؟ لو أنا عصفور!

لم تجبه وظلّت تنظر عبر الشباك وتراقب العصفور مع سرب الحمام فوق الكينا. سماء زرقاء، ورق الكينا، لون العصفور، ذنب العصفور، ذيله يهتزّ وسرب الحمام.
قال الطبيب:

- لو أنا عصفور!
التفتت إليه ورأت رأسه، أبيض كالثلج، ورأت الممرضة من خلفه. وقفت الممرضة في النافذة فبدت قبعتها كحمامة، حمامة ضخمة، حمامة بيضاء وتتضاعف. امتلأ العالم بالأبيض. خرج الطبيب وهو يردد:
- لو أنا عصفور!

جاءت الممرضة وقالت بمرح:
- النزيف انقطع، بكرة تقومي زي الحصان.
رأتها في الضوء كغلالة، رأسها أبيض، شعرها أبيض، جسمها أبيض، وفوق رأسها قبعة بيضاء كحمامة. سألتها بضعف: أنت سعيدة؟ حققتها بالإبرة وابتسمت. همست بأمل: يا نيّالك!

55

ولدتني وداد، لكن أُمي الفعلية كانت ستي. أُمي كانت شبه طفلة، وكانت تحسّ أني امتداد لماضيها وقيود الزواج، فنبذتني. لم يكن النبذ كليا، لأن الأمومة ترغمها أن ترضعني، وبعد الرضاعة تلقي بي في حجر الأمّ، وتهرع لتعود للمستشفى ودرس التمريض. كان المستشفى هو الملجأ من واقعها وجو العيلة. ظروف البلد وظروفها هي وظروف الطبيب خلّقوا الفرصة فاقتنصتها. كانت الفكرة تراودها مذ سمعت عن التمريض من أخيها أمين. أمين لم يشجعها، لأن التمريض، كما قال لها بحاجة للعلم والتفرغ، وهي لا تملك أيا من ذلك. لكن الطبيب همس لها أن المشروع مشروعه هو، لا يتطلب سوى الالتزام بالسرية وعدم البوح بأهدافه. مشروعه كان إقامة مستشفى للتوليد، وتحت التوليد تتم معالجة المصابين والمطلوبين، لأن المستشفى الحكومي حيث ولدت، وهو الوحيد في المدينة، عرضة للاقتحامات والاعتقالات وسحب المصابين من الأسرة وحتى من غرف العمليات ونقلهم للسجون والمعتقلات. لكن مشروعه كي يُنفَّذ بحاجة للدعم، فمن أين يأتون بذاك الدعم؟ قال الطبيب حالمًا: لو أن كل واحد في المدينة تبرع بقرش واحد لجمعنا قروشا كثيرة ونجح المشروع. قالت بحماس: بل عشرة قروش. وحين رأت الطبيب صامتا لا يوافق، قالت بخجل: طيب شلن. ظل صامتا فأردفت: عن كل شهر. فأسموا المشروع مشروع الشلن.

انتشر الخبر في المدينة، وفهم الناس دون تفسير، أن المستشفى لهم هم، للمدينة، وأن الممرضات والأطباء لن يتلقوا أجورهم وأوامرهم من

الانتداب والحكومة، وأن خدمات المستشفى تبدأ بالتوليد وأمور أخرى معروفة سكتوا عنها. هذا إذن مشروع الشلن، مشروع وداد. بدأت تعد نفسها لمشروع الشلن. بدأت من الصفر. عادت تدرس، تعمل وتدرس. قال الطبيب إن العمل سيعلمها، وكذلك دروس الانجليزية والعربية وكيمياء وأحياء وتضميد الجروح وحقن الإبر. كانت تخرج مع شق الفجر، بدون فطور، ولا تعود إلا في الليل. وحين تعود تلقي علي نظرة سريعة وتقبلني وتسأل عني ماذا فعلت وماذا أكلت ومن غير لي وتتفقد رأسي وأسناني ولون عيني، كما لو كنت أحد المصابين. تفتح فمي ثم أذني وتقول بجدية ورصانة، صحتها عال، وتهرع لتعود للمستشفى.

بدأوا التحضير لمشروع الشلن فاستأجروا دارا قديمة تظللها شجرة كينيا. بضعة غرف مع بهو كبير وساحة مبلطة أمام الدار تطل على المدينة والشارع المؤدي لقمة عيال وعصيرة. عصيرة الشمالية هي القرية المطلة على نابلس، ومنها تحيء القرويات محملات باللبن والتين والعنب والصبر وأخبار الشباب، وأحيانا يكون تحت العنب والتين رسائل مشفرة ومنشورات، وأصابع ديناميت.

أصبح المشروع مشروع وداد. بات الملتقى، حيث يجتمع المثقفون ليناقدوا أمور الدنيا والانتداب وتقييم الوضع، ويحيي السياسيون والقادة لإثبات الوجود، وتحيء القرويات بأخبار الشباب. وفي المستشفى تحضر وداد عملية لأحد المصابين أو تغير جرحا لأحد الثوار قبل أن تعود إلى البيت لترضعني. وأثناء الرضاعة تصف للأُم ما شاهدته وما سمعته وما قامت به وما سيكون عليه مشروع الشلن. في البداية، كانت ستي تعتب عليها وتلومها بصوت خافت. لم تكن

تريد المستشفى ولا مشروع الشلن، ولا أي شيء يتعلق بالتمريض. مهنة التمريض مهنة حقيرة، كانت تقول: للخدمات، لأن التمريض يعني خدمة وقلة قيمة وفيه انكشاف على المرضى وعلى العمال. ماذا تلبسين في المستشفى؟ ماذا تعملين في المستشفى؟ مع من تتعاملين في المستشفى؟ ماذا يقولون في المستشفى؟ كانت تسأل ووداد تحجب بصبر وهدوء دون أن ترفع صوتها أو تتأفف. كانت تعرف أنها بحاجة لدعم الأم، على الأقل لتربيتي. وكانت تعرف مما سمعته من النقاشات أن الجيل القديم سيتغير إذا غيرناه، وأن التقليد سيتغير إذا كسرناه، وأن الثورة تعني التغيير، وأن التغيير يبدأ بالنفس، فواظبت على تغيير تلك النفس، نفسها هي، ولم تشملني. كانت مشغولة بما تحلم وبما تعمل وتكسر القيود. تلك القيود، أنا أولها.

بدأت ووداد تحكي نحوي، يعني ثقافة، يعني سياسة، يعني أفكار من تسمعهم. بدأت تلتقط تلك الكلمات ذات الأبعاد وتردها. صارت تعتمد أن تجلس خلف الطبيب أثناء النقاش. تسمعه يقول، الأمية. تسمعه يقول، الرجعية. تسمعه يقول، تغيير النظام. سأل أحدهم، عن أي نظام نتكلم، هل لدينا نظام أو دولة؟ قال الطبيب: نظام العيلة، نظام التعليم، نظام الأخلاق والسياسة. تبدأ الأخلاق من العيلة، العيلة أساس. والسياسة؟ سألوه بشك. السياسة نظام يبدأ من تحت. ماذا تقصد؟ أقصد الأم، أقصد التربية في العيلة. الأم أساس. أصل الإنسان في مدرسته، وقبل المدرسة في أمه. نبدأ من تحت.

قالوا أشياء حفظتها. بعضها فهمته، وبعضها ردّته كالبلغاء، ثم مع الوقت صارت تفهم.

كبرت ووداد، وكبرت أنا، وكبرت ستي. كبرت ووداد بعيدا عنا، وأنا

كبرت بعيدا عنها. صارت وداد أختي الكبرى، أو بالأحرى صارت وداد أم ستي، وستي أمي، وأنا نشأت على الفوضى بين جيلين، جيل يتغنى بالتغيير، وجيل يتشبث بالماضي وفتح القمر وعلاء الدين. لهذا أصبحت مثل خالي أمين، بين البينين، يعني الوسط، بلا أرضية.

56

قبل المؤتمر الصحفي أخذوها إلى مستعمرات ومختبرات ومزارع، وزودوها بكافة المعلومات واقترحوا عليها، بل أصروا، أن مكانها هنا في قلب القدس، لأن اليهود، كل اليهود، أبناء الأرض وورثتها، وعليهم، بل واجبهم، أن يعودوا إليها ليكونوا قاعدة النور والحضارة في هذا الشرق. لم يتركوها لحظة واحدة تنعم بالسلام، لأن الحفلات والاحتفالات وكل الولائم والتوجيهات كانت تحاصرهما من كل جانب وتجعلها تحسّ كما لو كانت طفلة قاصرة في طور النمو وبحاجة لوصاية العارفين والأولياء. وهذا ما ذكرّها بوالدها الذي أرادها أن تكون حلوة ومهذبة وأنيقة مثل أمّها وبقية النساء في بفرلي هيلز. هناك أخطأ والدها، كما أخطأ هنا أرباب الحفل.

تلفّنت حواليتها فرأت القاعة تغص بالمدعوين. كل القادة وكل الزعماء ورجال الحكومة الانجليز وقناصل الدول الغربية مع زوجاتهم الأنيقات بأحدث البرانيط والتسريحات، وعدد لا يستهان به من الصحفيين. كان الهدوء والصمت يسيطران على الحضور ولا شيء يسمع في القاعة إلا صوت وايزمان الأثوي، وهو يفسر بطريقته الدبلوماسية أسباب رفض أي مشروع مشترك مع العرب، لأن اليهود جاءوا من بيئة مختلفة

وفكر مختلف وحضارة أبعد ما تكون عن جو العرب وقدرتهم على الاستيعاب.

قال بتآن وتأمل:

- نحن هنا كأوروبيين. على الرغم من أن جذورنا شرقية، إلا أننا نعود محملين بحضارة الغرب. فلسطين ستكون الدرع الواقى لأوروبا. سنفعل هنا ما فعلته بريطانيا في الهند. سنضيء الشرق.

التفتت روزا للحاكم، وكان ملاصقا لها، وقالت همسا:

- أهذا ما جئت من أجله؟

لم يعلق، بل ابتسم ابتسامة محايدة حاول من خلالها أن يبدو وودودا لروزا، وودودا لأرباب الحفل وكاميرات الصحفيين. لكنه كان مثل روزا يشعر بالامتعاض، وربما باليأس، لأن مشروع روزا للتمريض لن يتحقق في هذا الجو. كما أن روزا العصائية، على كل ما فيها من طيبة ومثالية، غير مؤهلة للعب دور دبلوماسي قادر على ردم الفجوات ومد الجسور. وربما كان السبب أصلا مثالياتها. في هذا الجو، هل بالإمكان أن يكون الوضع أفضل مما كان في كلية خضوري والهستدروت؟ والمشكلة كما يراها ويستوعبها أن روزا ليست الوحيدة في التحليق بلا أرضية. ليزا أيضا، وبعض الكتاب والصحفيين، مثاليون حاملون، بلا أرضية. وهو أيضا، ألم يصبه ما أصابهم حين فكر، مجرد تفكير، أنه قادر على إحداث تغيير في هذا الجو؟ حين يقارن بين الجانبين ينتابه إحساس مدرب خيول يحاول ركوب حصانين في نفس الوقت، حصان أبطأ مما يجب، وحصان أسرع مما يجب، وهو المشدود بين حصانين. حين يقارن بين بطء العرب وجروح اليهود، قلبه ينحاز لإيقاع البطء. لماذا؟ لأنه ما عاد شابا مندفعاً قلوي المزاج؟ أم لأن المرأة الجميلة خطفت قلبه وجعلته يهيم؟ صحيح

أنّه في البداية كان يحس أن العرب شعب قاصر، جاهل، قبيح، متخلف، لكن الآن، وبعد أن انغمس معهم وعاشرهم، دخل فيهم، عاش بينهم، أكل وشرب ودرس الأوضاع، بات ميّالاً إلى جانبهم. هذا الإحساس المتصدع أليس غريباً؟ بل طبيعياً، طبعياً جداً. قال له رئيس إحدى اللجان الملكية: أنا أعذرُك. نحن غلطنا. ظلم فادح. حتى المحكمة في لندن أدانت بلفور. ظلم رهيب، ضرائب وتهجير وإفقار الناس. خيانة حلفاء وقفوا معنا. من أجل من؟ ذاك المستعصي على الإرضاء؟ ذاك النمرود المتمرّد؟ وتذكّر قولاً للجنرال: "احذر من عبد يتسيّد."

57

قال وايزمان وهو يفرد كفيه بدعة واستسلام:
 - وها نحن نمد أيدينا ونقول نعم لهذا المشروع. كلية روزا للتمريض. هذا جميل، هذا رائع. اسمك سيكون يا سيدي، كاسم هداसा. سيكون لنا صرحاً آخر مثل هداसा، مؤسسة تعنى بالأجساد وبالأرواح على حد سواء. أيد بيضاء تداوينا وتلملم جراح اليهود في هذا الشرق. وصفق بيديه فعلاً التصفيق. فاحمّر وجه روزا وتكهرب وتوقفت عن النش وبدأت تلهث. كان هذا آخر ما توقعته. كانت تتوقع أن يقول "لا" وينتهي الأمر عند هذا الحد فتصرف. كانت تتوقع أن يكون واضحاً كما كانت واضحة في شروطها ونواياها. منذ البداية قالت لهم إن المشروع هو للطرفين، وإذا تخلى أحد الطرفين فإن المشروع لن ينفذ. لكنه هنا، في هذا الحفل، أمام الناس، أمام الشهود، والقناصل، والصحفيين، ورجال الحكم والحكومة يضعها في موقف لا تستطيع التراجع عنه.

يقول اليهود ثم اليهود ثم اليهود ولا يجيء بذكر العرب. وهذا ما كانت قد حذّرت منه، لكنه تغاضى كلياً عما اشترطته. أمام القناصل والصحفيين وهذا الحفل هل بالإمكان أن تقف وتقول: أنت مخطئ؟ نظرت حولها، فالتقت عيناها بعيني زوجة قنصل. امرأة شقراء ببرنيطة وسترة أنيقة كانت تبتسم بلباقة. هزّت المرأة رأسها وهي تصفق وتشد شفيتها المسحوبتين باستحسان كما لو كانت تقول: برافو، برافو. فاستدارت ليزا وخبّأت وجهها في مروحتها وغمغمت كلمات غير مفهومة فسألها الحاكم متجهها، وهو يصفق: ماذا قلت؟ هزّت رأسها، وقالت: لا شيء.

انتهى التصفيق فواصل وايزمان مخططه وأكمل شرحه:
- هيأنا للمشروع كل التدابير. وفرنا الأرض ووفرنا الإدارة والكادر، ولم يبق إلا أن نضع حجر الأساس ونباشر. الأرض طبعاً هي ما نحتاج، والأرض هنا والخرائط مع السيد كالفاريسكي. السيد كالفاريسكي رجل معروف في هذا المجال. السيد كالفاريسكي، من خلال عمله في رابطة المستعمرات اليهودية تمكن من شراء ألوف الدونمات، وكان له الفضل في تأسيس العديد من المستعمرات. السيد كالفاريسكي سيشرح لنا أين سيقام المشروع، على أية أرض، ومزايا الأرض، وماذا نحتاج. سيد كالفاريسكي تفضل هنا، الساحة لك.¹⁵
نزل وايزمان عن المنصة، وجلس بين القناصل في أول صف، فاعتلى المنصة رجل شائب في الستينات.

السيد كالفاريسكي خبير زراعي من بولندا. هاجر قبل أكثر من أربعين

15See "Between Mohammed and Mr. Cohen, in "One Palestine, Complete.

سنة، ومنذ قدومه إلى فلسطين وهو يعمل في شراء الأراضي وإخلائها من الفلاحين، وعن طريق الأرض كانت له علاقات واسعة مع الملاكين والفلاحين على حد سواء. أكل معهم، شرب معهم، واطلع على دخائلهم وعرف نقاط ضعفهم. وبفضل ذاك الاحتكاك تولد لديه إحساسان متناقضان تجاه العرب. الأول، أن الملاك العربي على استعداد لبيع بني جلدته فوق أرضه مقابل الكسب والمال الوفير. والثاني، أن الفلاح العربي مضطهد من قبل الملاك كما هو مضطهد من قبل الانجليز ومن خلفهم اليهود. فكان يحاول، كما قال مرارا وتكرارا، أن ينصف الفلاحين بأن يتأكد من أنهم أخذوا تعويضاتهم من الملاكين. ورغم احتقاره لمواقف الملاكين واشمئزازه من وسخ وجهل الفلاحين، إلا أنه كان مقتنعا أن العرب ليسوا سيئين ولا شريرين، وأن بالإمكان التوصل معهم لاتفاق معقول يرضي الطرفين. وهذا ما جعل جماعة جابوتنسكي وغيرهم من المتشددین يتهمون الرجل بالعمالة والخيانة، لأنه يقول إن العرب ليسوا حميرا ولا شياطين، بل آدميين، أو شبه آدميين.

بمجرد اقتراب كالفاريسكي ووقوفه خلف الميكروفون ارتفع صوت من القاعة، وصاح بحدة: دودة حقيرة. وصاح آخر: خائن وعميل. ارتد كالفاريسكي خطوة للوراء ثم عاد وتقدم وبدأ يدافع عن نفسه ويقول لمن يشتمونه ويتهمونه بأقبح الأوصاف إنهم لا يقدرون انجازاته ولا يعرفون كم يتحمل من أعباء تقصم ظهره. الأرض التي اشتراها للمشروع كلفته الكثير من المتاعب، لأنها مثل أراض كثيرة غامر واشتراها من ماله الخاص على أمل أن تقوم الوكالة اليهودية بتعويضه، لكن الوكالة لم تعوضه ولم تسد الدين. هذا بالإضافة إلى ما يؤلمه ويثقل ضميره، ففي كل مرة يضطر لإخلاء الأراضي من الفلاحين يشعر

بالذنب، لأن هؤلاء الفقراء، بشر، مساكين، لديهم أرواح ومشاعر. كل هذا يتحمله في سبيل إسكان الأخوة من المهجر، فلولا هو لما توسعت المستعمرات ولما أقيمت الكيوتسات.

صاح متشدد: اخرس، اسكت. فأصيب كالفاريسيكي بالإحباط، فوضع الخريطة جانبا وأخذ يلوح بيده، ويقول بصوت متهدج:

- لا تعرفون كم هو صعب على رجل في مثل سني عاش في هذه الأرض بين هؤلاء الناس طوال عقود أن يقوم بما قمت به. أعترف أنني في كثير من الأحيان أتمزق ألما على هؤلاء الفقراء، لأنهم أمام الله وأمامي هم آدميون. سأحكي لكم هذا الموقف: في قرية شمسين، وبينما كنت أجلس في خيمة صاحب الأرض أوقع العقد، تحلّق الفلاحون حول الخيمة وأخذوا يغنون أغان جنائزية حزينة اخترقت قلبي مثل السكين. كان المساكين يعدّون لنا القهوة وهم يُنوّحون ويندبون. تلك الأغاني ظلت ترن في أذني وتؤرقني طوال سنين. ورغم ذلك، لم أتوقف عن القيام بواجبي. لكنني، في كل مرة أمر بموقف مشابه أتساءل: لماذا نستمر في إنكار وجودهم؟ لماذا لا نعاملهم كآدميين؟ ليسوا جميعا قدرين ونصابين، صدقوني.

صاح صوت كالهدير زلزل أركان القاعة:

- وأنت مثلهم وأوسخ منهم. أنت عميل للعرب. أنت خائن حقير. لكن كالفاريسيكي وقد فاض به الكيل من كل ما كيل له من اتهامات وإهانات في السابق واللاحق، صاح بصوت متهدج:

- لماذا لا نجرب؟ روزا تقول بأنّها تريد مشروعا مشتركا، كلية تمريض، فقط تمريض. قبل الانتداب كنا نعيش مثل الأخوة. دعونا نجرب؟ أنا جربت مشروعا في طبريا، افتتحت مدرسة لأطفال العرب واليهود،

وصدقوني، نجح المشروع.

تعالّت الأصوات من كل جانب: خائن، ملعون، عميل. وبدا وكأنّ الحفل سينقلب إلى مأتم. إلا أنّ وايزمان وقف مكانه، في أول صف، واستدار بجذعه لمواجهة الجمهور ورفع يديه وصوته مهدئا:

- يا جماعة، يا جماعة، دعوه يقول ما يريد. ألسنا ديمقراطيين؟ ألا تؤمنون بحرية القول والكلمة؟ أم أنكم تريدون أن تكونوا مثل العرب؟ دعوه يقول. دعوه يكمل.

وقف رجل وسط القاعة محاط بقبضات مسلحين بالعصي والهرارات، وقال بحدة:

- قال ما فيه الكفاية وأنت المسؤول عما قاله. أسكته وإلا أسكتناه بالقوة.

همست روزا في أذن الحاكم، وهي ترتجف من الانفعال:

- من هذا؟

همس الحاكم وهو ينظر أمامه ولا يلتفت إليها:

- فلا ديمير جابوتنسكي.

قالت برجاء:

- لم لا توقفه عند حده؟

التفت إليها، وهمس بإحباط:

- أنا أوقفه؟! أنا؟ من أنا؟

التفت إليه لترى وجهه، لكنه التفت بعيدا وغرق بآسه. كانت أفكاره تتقاذفه، أخذ يقارن: أرض سبخة، والكل يعوم.

لكرت كتفه، وسألته بغيط:

- ستورز أوقفه، لم لا توقفه؟

التفت إليها، وابتسم بصفراوية:

- ستورز أنزله في زنزانة خمس نجوم، أكل ونبذ وموسيقى وعمر الخيام.

تساءلت بدهشة:

- عمر الخيام، ماذا تعني!!

سمعها وايزمان فحدجها كما لو كان يؤنبها، وقال ملاطفا:

- العزيزة روزا جاءت بأفكار مختلفة مثل تروتسكي، مثل شومبسكي واينشتين وآحاد هاعام، كل هؤلاء لهم أفكار واجتهادات، هل نمنعهم؟ وكالفاريسكي هو الآخر له آراء واجتهادات، هل نمنعه؟ نحن هنا ديمقراطية. المهم في الأمر هو ما نفعل. وما يفعله هذا الرجل هام جدا، وما عدا ذلك مجرد أقوال وفقاقيع. مجرد فقاقيع.

هتفت روزا بصوت مبحوح:

- يعني أنا مجرد فقاعة من الفقاقيع؟

لم يسمعها وايزمان، أو ربما سمعها وتجاهلها، لأن همه الأساسي كان أن يوقف جابوتنسكي منافسه ذا المزاج العنيف عند حده، فقال بليوننة وصبر بالغ:

- أنت يا عزيزي زئيف تبالغ جدا وهذا لا يفيد، ضار جدا. تذكر أنك أمام الضيوف والأجانب.

صاح جابوتنسكي:

- ولهذا عليه أن يسكت. أنزله الآن وإلا أنزلته بالقوة. اليوم يقول مدرسة أطفال وغدا يقول فيدرالية. هذا ما يقول، ألم تسمع؟ سمعنا هذا الكلام أيام ناقشنا مشروع خضوري المبجل، وقلنا وقتذاك ما نقوله الآن بلا تغيير. لا مدارس ولا كليات ولا شركات. جدار حديدي

يفصلنا. الفصل والعزل بشكل قاطع. أنزله الآن. دعه يسكت.
قفزت روزا من مقعدها وهرعت إلى المنصة ووقفت بجوار كالفاريسكي
وخطفت الميكروفون:

- هو لن يسكت، وأنا لن اسكت.

وما كادت تنهي عبارتها حتى طارت حبة خضار فوق رأسها واخترقت
شعرها الهائج كالقذيفة، فسحبها كالفاريسكي وأنزلها خلف المنصة
ونزل معها. لكن القذائف لم تتوقف، خضار وحجارة وبيض فاسد.
ثم اندفعت مجموعة شبان وبأيديهم عصي وهرارات تشق طريقها نحو
المسرح. أصيب وايزمان بالذعر، فخبأ وجهه في كتف الحاكم، وهمس
بضعف:

- نادي الحراس!

نهاية وبداية في يحب

كان الفجر ما زال نيليا والنور يتسلل عبر الظلمة وأحراش الكرمل والميناء. أنوار البواخر وثكنات الجيش تلقي بظلال تتلأأ فوق المياه وسواد البحر. وقف يتأمل ويراجع ما حلّ بإيمانه وحياته. ها هو على أبواب نقلة جديدة تدنيه من الله ورسوله، ورتل الشهداء. تذكّر أمه بكثير من الحنيّة والرأفة، وتذكّر رشا ووداد بكثير من الحزن والإشفاق. ما ذنب الأمّ ليفجعها؟ ما ذنب رشا؟ ما ذنب وداد؟ لكن الظلم أكبر منهن، وأكبر من كل نساء الأرض. هذا الإيثار بالرسالة هو نور الحق، وكل ما عداه وهم باطل. هو نور الله، والحرية، والجهاد في سبيل الله، اقتداء بكل من سبقوه إلى الجنة من على أعواد المشانق.

مرت شهور وهو يراوح. أحيانا يندفع كعاصفة، وأحيانا يرتد ويتراجع في حالة جزر. مدّ وجزر مثل الأمواج ومزاج البحر. مزاج عاصف، مزاج رائق، ثم الأحلام الليلية ونداء الروح. وهم زائل كفرح الدنيا ومتاع الأرض. لا شيء يبقى على حاله إلا وجهه وحساب الرب. وحين يلقاه سيقول له: إني آمنت بنور الحق. إني جاهدت ولم أجبن. إني ضحيت كما ضحوا وركبت الموج لكي نعلو وخرجت من الدنيا بلا زينة، لا مال لا ولد ولا مطامع إلا أن أدفع وأدافع وأزيل الظلم وأتحرر وأموت بأرض كتبت لي منذ الأزل في سفر الغيب. أرض البراق والصحابة ورحيل الفرس المحفوفة بهالات النور تحمل روحي فوق الصخرة عبر الصحراء، فتتألأ ويصير الرمل مرجا أخضر وتعود الأرض لصاحبها ويزول الظلم.

ونظر إلى الباخرة تتلأأ في غباش الفجر. سفينة أخرى من بلجيكا تحمل إسمتا في حاويات وبراميل، وتحت الاسمنت بنادق ورصاص وقنابل. وقبل هذه أخرى وأخرى، لكن هذه فجرت الوضع. الصحافة كتبت،

والأحزاب اجتمعت، والمفتي نادى المشايخ وعلماء الدين. وانتظر الناس النتيجة. ذهب الزعماء إلى الحاكم يطالبون بوقف التهريب وسحب السلاح وتشكيل فرق عربية لحراسة الموانئ والساحل فرفض الحاكم. طالبوا المشاركة بالتحقيق، رفض الحاكم. طالبوا بإعلان الإضراب، رفض الحاكم. وصل الأمر إلى الصحافة، فكتبت وسخرت، فهاج الشارع واحتقن الناس. عادوا يستمعون لقصص الزيق وأبو جلدة للتشفي والسخرية من الأحزاب والقادة وخطب المفتي. تفتشت السرقات والتشليح وأعمال النهب، وعمت الفوضى وما عاد الزعماء قادرين على ضبط الوضع، فخطب الشيخ في الجامع: هذا هو الوقت للثورة، هلموا للجهاد، اتبعوني.

نداء الشيخ ضاع في غمرة الانقسام والتفكك واختلاف الآراء والمصالح. ابتعاد الناس عن الزعماء، ابتعاد القرية عن المدينة، ابتعاد الوجهاء عن الشارع وتعدد الولاءات والمصالح جعل من المستحيل توحيد الصف. هذا ملاك وذاك مزارع. هذا أمي وذاك مثقف. هذا مجلسي وذاك دفاعي وثالث استقلالي ورابع شيوعي وهلم جرا. كان الولاء للعائلة وواجهة الحزب أهم بكثير من البلد وتراب الأرض. تباين الزعماء والقادة وارتقاء العضل في سواعدهم جعلهم غير قادرين على خوض التحدي واعتلاء الصراع. أرسل الشيخ من يهمس لهم:

أمدونا بالمال والسلاح ونحن نقاتل. فأُخرج البعض، واستهان آخرون،
والمفتي استرسل بالخطب وأخذ يناور.¹⁶
لجأ الشيخ إلى صحبه يستشير هذا ويقنع ذاك، لأن الوقت يسرقهم
والبلد تضيق. اجتمع بهم مع طلوع الفجر. سأل كبيرهم، وكان قد
خرج من السجن قبل أيام:
- نريد الخروج إلى الثورة، ما رأيك أنت؟
تلملم الرجل، وقال بخجل:
- نحن يا شيخ تلاميذك.
أصر الشيخ:
- أريد رأيك؟
تمتم الرجل بوجوم شديد:
- لا رأي لدي.
التفت لوحيد:
- وأنت يا وحيد، ما رأيك أنت؟
قال وحيد بانصياع تام:
- هو ما تراه يا سيدنا الشيخ.
قال بجدية وتذمر:
- أريد المشورة لا الإذعان. شورى ومشورة قبل القرار، أشيروا علي،

16 - إبراهيم طوقان عبر بقوله:

مالك بعضكم يمزق بعضا أفرغتم من العدو اللدود
كلُّ هذا استفادة بين فوضى وشقاقٍ، وذلةٌ، وهجوٌ
واشتغال بالترهات وحب الذات، عن نافع عميم مجيد
شهد الله أن تلك حياةٌ فضلت فوقها حياة العبيد

أنثروني؟

ارتفع صوت خريج السجن، وقال بحرارة وتهديج:

- بماذا نخرج يا سيدنا الشيخ؟ نخرج للثورة بأيدينا؟ لا مال، لا سلاح ولا تكاتف، وما من ظهر يحمينا. ها قد سمعت رأي الزعماء والقادة، وحتى العلماء والمشايخ نفروا منا. عملاء الانجليز يتربصون بنا، وجواسيس اليهود في كل قرية ومدينة. فإذا جهرنا بما ننوي سنكشف ويُقضى علينا قبل أن نقوم بأي هجوم أو عملية.

- إذن نسكت على الظلم وتضيع البلد؟

حشرج الرجل وكاد يبكي:

- يا سيدنا الشيخ، الثورة بحاجة للأموال: مال للسلاح، مال للأكل، ومال للأهل. كلنا فقراء كما تعلم. هذا حجار، وهذا نجار، وهذا بياع على البسطة، وبياع كاز، وأنا مثلهم بياع كاز. يعني رزقنا على الله يوما بيوم، ونطعم أهلنا يوما بيوم. أنا حين سُجنت، من قام بأهلي وعيالي؟ صحيح أنكم أطعتم أولادي، لكن من لقمة مقسومة، فأنتم فقراء مثلي وأكثر. رأيي أن نستمر كما كنا، نعمل في السر، لأن الجهر بالثورة صعب وخطير.¹⁷

التفت الشيخ إلى وحيد:

- وأنت يا حبيب، ما رأيك أنت؟ قل يا مختار؟

اهتزَّ فؤاده للكلمات، ففي كل مرة يواجه مشكلة أو محنة يناديه "بحبيب"

17 راجع عز الدين القسام لعاصم الجندي

ثورة الشيخ العالم المجاهد عز الدين القسام لرسمي علي عابد

الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشهيد عز الدين القسام 1882 -

1935 لسميح حمودة

أو "مختار" أسوة بحبيب الله ومختاره. أي أنّه يصطفيه ويختاره. ألم يقل له عدة مرات "إني وكّلتك فتوكل؟" "أنت الخليفة من بعدي؟" "أنت المختار؟" وها هو يصطفيه ويستنجد به، فماذا يقول؟ أيقول الوظيفة في الشركة؟ أيقول الزوجة والأولاد؟ أيقول الأم؟ أيقول الأخت؟ لا شركة ولا زوجة ولا أولاد ولا أم ولا أهل ولا صاحب فالكل متاع، وهم زائل. هذا اليوم هو يوم الدين، يوم يفر المرء من أبيه وصاحبه وبنيه، فماذا ينتظر لكي يخرج؟

أستعجله الشيخ:

- قل يا مختار!

قال بإيمان:

- روي الله، أنا مسلم.

هزّ الشيخ رأسه باستحسان:

- الحمد لله. أنت يميني. وماذا عن صحبتك ورجالك؟

تدخل آخر:

- هذا يا شيخ ابن عيلة وبلا عيلة، يعني ميسور وبلا أولاد.

أسكته الشيخ:

- بل هو مسكون بالإيمان.

وصمت لحظات يتأمل ويتفحص المجموعة ويراجع. بعد لحظات

التفت لوحيد، وقال باسمًا:

- حتى لا تندم أو أندم، اذهب وتأكد بنفسك.

وها هو يقف على صخرة أعلى الكرمل ليتأكد من جاهزية الحجارة

ورجاله. يجتمعون صباحًا في الكبابير ليتدربوا على بندقية اشتراها

الشيخ من مدخراته. قبل أيام باع الشيخ عفشه واحتفظ براتبه الشهري

وأرسل زوجته إلى أهلها مع أطفاله. وهذا يعني أنه اتخذ القرار مسبقاً قبل الاجتماع والشورى. وما كانت أسئلته واستشاراته إلا لجس النبض والتأكد. وسواء قالوا نعم أو قالوا لا ما كان الشيخ ليتراجع. وحتى لا يخرج أيّ منهم بدون قناعة، اجتمع بهم وناقشهم واستشارهم وترك لكل واحد أن يتصرف حسب ظروفه وقناعاته. وحين اندفع وحيد ليعلن بحماس أنه جاهز، أهاب به أن يتروى، وقال بوضوح: اذهب وتأكد بنفسك.

ها هو الآن يتأكد ولا يتأكد. يتأكد أن كل واحد من رجاله على استعداد للتضحية بكل ما لديه وبحياته، لكنه غير متأكد أن هذا كاف للثورة. خريج السجن فتح عينيه. قال الثورة بحاجة للمال والسلاح ودعم الشارع. الثورة بحاجة للوجهاء وللشارع. وهو يرى بوضوح تام، لا هذا جاهز ولا ذاك جاهز. لكن الشيخ قال لهم أن الثورة بحاجة لفتيل يشعلها، وهم سيكونون - بإذن الله - ذاك الفتيل وتلك الشعلة. قال لهم مؤكداً، بعد انطلاق الشرارة فالاشتعال حتماً حاصل. هذا مقنع. هم خير فتيل للشرارة. إن لم يكونوا هم الشعلة فمن يشعلها؟ نقص التنظيم في الشارع؟ خطب القادة؟ وجهاء القدس؟ أم ستة أحزاب ومشايخ؟

58

تم الاتفاق على الخطة. تبدأ الخطة باحتلال حيفا والميناء وثكنات الجيش. كان الهدف تحقيق مكسب مبهر يجز الزعماء والأحزاب إلى المواجهة وإقناع الشعب أن استنزاف بريطانيا غير مستحيل، بل ممكن. الاستيلاء على حيفا، وهي الأهم والأغنى، سيحفزهم. أما التنفيذ فيكون موزعاً على ثلاث مراحل. المرحلة الأولى تبدأ بالخروج إلى القرى لاستقطاب الفلاحين وتهيئة الجو لحرب عصابات. المرحلة الثانية تبدأ بالاستيلاء على باخرة للحصول على أسلحة تكفي لمهاجمة ثكنات الجيش. في المرحلة الثالثة، وحين يبدأ الهجوم المضاد بمجيء الدبابات والطائرات مدعومة بفرق اليهود، ينسحبون إلى الجبال ويندسون بين الفلاحين ويعلنون الثورة وحرب العصابات. وربما، بل الأكيد، أن العرب حين يسمعون بما أبلى المجاهدون في فلسطين، سيرسلون الإمدادات فتمتد الثورة من حيفا حتى السودان حتى المغرب.

ابتسم الشيخ وهو يستمع لأحلام الشباب، وقال مهدئاً:
 - لا تبدأ الثورة بالأحلام بل بالممكن. خطوة، خطوة، فالدرب طويل. ربما سنوات، ربما أجيال، ربما قرون قبل الوصول إلى السودان والمغرب. لكن المهم أن نبدأ. غدا صباحاً نتحرك.

59

مشوا ومشوا فوق الصخور، بين الأشواك، تحت الأشجار، في حمّ الشمس والظهيرة، واختبأوا بين الرجم كلما مروا بمستعمرة أو دورية. نفذ الماء من مطراتهم وثقلت أحماهم وأخذ التعب منهم كل مأخذ. كانت نورس هي وجهتهم فهناك رجال، وماء وغذاء. لكن الطريق إلى نورس بين الصخور والأشواك بدت أطول. الواحد يحمل ما لا يقل عن أربعين كيلو غراما من الأكل والأغطية وقطع السلاح بالإضافة إلى حراب مسنّنة كان الشيخ قد أوصى بها تيمنا بها كان يحمله الصحابة في الزمن القديم. كانوا يتوقعون أن يستمر القتال بضعة أشهر، وربما سنوات، كما يتوقعون انضمام الفقراء والفلاحين. كان تقدمهم بطيئا فالتفت الزبيق إلى وحيد، وقال متوددا:

- اطلب من شيخك أن نرتاح.

امتعض وحيد، وسأل بدهشة:

- شيخى أنا؟

همس الزبيق:

- هو يسمع منك. قل له نرتاح. ننام الليلة في مغارة ونبحث عن ماء. لم

تبق معنا إلا قطرات. فلتتوقف نبحث عن ماء. قل له نرتاح.

- ولماذا لا تقول أنت بنفسك؟

ابتسم ابتسامة ذات مغزى:

- لا يسمع منى ويسمع منك. يسميني النمروود قليل الصبر.

- وهل أنت نمرود؟
- أطلق ضحكة صيانية:
- طبعاً نمرود.
- وتتمرد عليه؟
- أحياناً.
- إذن قل له.
- وقف الزبيق مكانه ودق قدميه في الأرض كبغل حرن وصاح فجأة:
- تعبنا يا شيخ، ارحمنا. دعنا نرتاح.
- اقترب الشيخ وحدج الزبيق ثم التفت إلى وحيد، وقال باسمها:
- هذا نزيق، لا تسمع منه.
- اقترب آخر وكان محمر الوجه، وقال مستنجداً:
- تعبنا يا شيخ، دعنا نرتاح، العطش والتعب هدد قوانا. نبحت عن ماء،
- نشرب، نرتاح ثم نواصل.
- وافق الشيخ على مضض. كان يتوقع أن يصلوا نورس قبل الظهر، لكن
- الطريق طالت ووعرت واشتدّ الحر.
- اختاروا مغارة فسيحة تطل على سهل عين جالوت، حيث دارت موقعة
- رسخ ذكرها في قلوب العرب. وقف الشيخ على طرف الوادي ونظر
- من الأعلى إلى أسفل، فبدا لهم والريح تلوح أردانه كشبح أبيض سقط
- من الغيم. صاح بهم:
- نبدأ من حيث انتهى الظاهر ببيرس. قفوا للصلاة. الله أكبر.

60

ذهب وحيد وشخص آخر مع الزبيق بحثا عن ماء. أخذوا مطرات المجموعة وذهبوا في الشمس بحثا عن ماء. أخذ الزبيق وقد خفّ حملة يتطاير فوق الصخور مثل العصفور. وقف على صخرة أمام رفيقيه ومد نظره عبر المسافات، وصاح لهما: لا ماء هنا. ثم ركض وامتطي صخرة أخرى وصاح من البعد: لا ماء هنا.

قال لهما بأنه يعرف المنطقة شبرا شبرا. قال أغار على مستعمرة عين حارود عدة مرات. قال ساخرا لو أن الشيخ يسمع منه لاحتلوا المستعمرة خلال دقائق، لكن الشيخ لا يسمع منه. واصل القفز هنا وهناك وهو يضحك ويقهقه كالمجنون.

فكر وحيد أن لقب الزبيق ينطبق عليه، لأنه نزق وقليل الصبر. لو تركوا الأمر لأحكامه لما التزم بأي اتفاق أو خطة ولخرج بهم عن الهدف المطلوب وأدخلهم في متاهات تضيعهم. أراد أن يقول له شيئا بهذا الخصوص حين سمعه يصرخ فجأة: الماء، الماء، وجدت الماء.

ركض الزبيق نحو صخرة محفورة كجرن ضخمة كانت تستعمل لعصر الزيتون وكانت مملوءة بماء الشتاء. وقف لحظات يتأملها قبل أن يستلقي على بطنه ويعبّ الماء مثل حيوان بري. حين وصله كان قد ارتوى وغسل وجهه وملاً ما معه من المطرات وجلس على الصخرة يؤرجح رجليه، ويقول باعتزاز وتشفي: وجدت الماء، أنا وجدته.

عاد وحيد بما يحمله من مطرات وبقي الزبيق والآخر يبحثان بين الصخور عن بيض الحمام وأعشاب جافة لإيقاد النار. لم تمض أكثر من ساعة حتى سمعوا أزيز الطلقات ولهات الزبيق وصياحه:

- قتلت روزنفيلد. قتلت، قتلت.

ضرب الشيخ جبهته وهب واقفا، وقال للرجال:

- قوموا يا رجال. لا حول ولا قوة إلا بالله. أعمال الزبيق لا تنتهي. قوموا، قوموا.

كان الزبيق قد نزل مع الآخر إلى بستان المستعمرة خلافا لمخطط الشيخ والمجموعة. قطفا كريب فروت ونثراه على الطريق باتجاه المغارة على أمل أن يخرج المستوطنون في أثرهم فيحلّ الاشتباك وينتهي باحتلال المستعمرة والبقاء فيها عدة أيام. صدف مرور الضابط اليهودي روزنفيلد الذي كان يتعقبه منذ سنوات. قتل روزنفيلد واستولى على مئونه وسلاحه.

منذ تلك اللحظة، بدأ التعقب ونشط الجيش، واحتدمت مطاردة شرسة بين الصخور في قمم الجبال.

61

جلس بجانب الشيخ في المغارة والتصق به. أحس أنه عاد صغيرا والشيخ أبوه. تذكّر أباه بشاربه الكثيف وقفطانه. تلك الأيام كانت حلوة. أيام الصيف في نابلس وسوس وخروب. تعطيه أمه تعريفه فيملاً الإبريق بالسوس البارد مثل الثلج. ليالي رمضان والقطائف وكنافة وكلاج وليموناة. يوم الوقفة تشغل الأمّ بالمعمول، فتمتلى الدار بالروائح ونكهات المحلب والقرفة وعبير الهال للقهوة من أجل العيد. وليلة العيد ينام وطربوشه وحذاءه قرب فراشه. يصحو في الليل ويتحسّس جلد الحذاء وطربوشه، وقلبه يخفق وينتظر الصباح حتى يسمع صوت التكبير من الجامع. يقولون معا بصوت واحد "الله أكبر" مئات المرات. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ربنا لك الحمد. فيمتلى حنانا وخشوعا ويظل مكورا في فراشه بانتظار رجوع أبيه من الجامع، فيركض نحوه يُقبّل يده فيقول له: الله يرضى عليك، ويمنحه العيدية المنتظرة، عشرة قروش بالكامل، قطعة واحدة فضية تلمع في الشمس وفي عينيه، فيحس الدنيا تتلأأ ويكاد يطير. كان صغيرا والكل صغير. وداد صغيرة، وأمين صغير وسمير صغير. ثم مات الأب وأصبح كبيرا والكل صغير. كم كبر وكبر في زمن قصير!

قال له الشيخ بصوت هادئ:

- تذكّر يا بني ما أوصيتك. إذا استشهدت تقوم مقامي فتعيد تجميع الأخوة وتحاول تحييد الزبيق حتى يصبح أقل جنونا. هذا اللعين أوقعنا

في هذا الفخ. لولاه لكنا في مأمن حتى ننضج. خوفي يا بني أن تكون آخرتي في هذا الحرش.

تتم بخوف:

- لا سمح الله.

- بل قد يسمح، لهذا علينا أن نحذر. اذهب راقبه فهو كالطفل.

لم يستطع الصبر على شكوكه، فقال معاتبا:

- يا سيدنا الشيخ أنا لا أفهم! لماذا أدخلته في التنظيم؟ كنت تعرف أنه نزق وقليل الصبر. كنت تعرف أنه نمرود وقطّاع طرق. كنت تعرف أنه لا يلتزم بأية خطة. لماذا أدخلته في التنظيم؟ لماذا ألحقته بالوحدات؟ كنت تعرف أن ضبطه ليس سهلا، وها أنت ترى ما فعل بنا!

تأمله الشيخ بعينين مليئتين بالحزن، فالتقط وحيد تلك النظرة وأحس بالخجل، فقال متراجعا:

- يا سيدنا الشيخ أعذرني، أنا متأسف. لكن ما أوقعنا فيه هذا الأهوج ليس سهلا، فمند عين جالوت وهم يقتفون أثرنا مع كلاب الصيد والجواسيس. كيف أنسى أنه هو من أوقعنا؟ كيف أنسى أنه أهوج؟ كيف أنسى أنه نمرود؟

ابتسم الشيخ بمرارة:

- بل ستنسى. الثورة يا بني ليست للأتقياء فقط، فللأشقياء فيها نصيب. ستعرف هذا وتكتشفه. الظرف سيفرض ما تكره. الثورة تلم مثل الجامع. الجامع يجمع ويوحد ويساوي كالأخوة بين الناس. احرص عليه فهو طيب. اجبر خاطره فهو نادم. هذا الرجل لديه مواهب قد تنفعنا، وقد نفعتنا عدة مرات. دوّخ الانجليز، جنّ اليهود، قام بحركات لا نعرفها لا أنا ولا أنت. مثل المجنون. مثل الزبيق.

يسحل كالجن، يطير كالرمح، ويسرق الكحل من جفن العين. حتى لو أردنا أن نفعل ما يفعله لا نستطيع، لا نعرف. أما هو فقد تدرب على النشل والتسلل والاختفاء مثل الشبح في غمضة عين. وهذا مطلوب. هو ما نحتاج.

هتف بدهشة:

- نحتاج النشل والسرقة؟!

ابتسم الشيخ:

- وما نحن فيه ماذا يسمى؟ اسمع يا حبيب. في هذا الزمن، في هذا الوضع، نحن بحاجة....

قاطعته بسرعة وتأفف:

- بحاجة لماذا؟ أنا لا أفهم!

- بل ستفهم. حرب العصابات هي هذا، اضرب واهرب. أم أنك ستقف وجها لوجه لتبارزهم؟ في هذا الوضع نتعلم منه.

- نتعلم منه؟

- ولم لا؟

- لماذا إذن لا تدعه يقود؟

ضحك الشيخ برقه وتسامح:

- إلا هذا. إلا هذا. أنت الكبير. أنت الأوسع. ستكون الوعاء الكبير وتحتوي من هم أصغر، وهو أصغر. أنت الكبير المتسامح. أنت الجامع. أحس أن الشيخ يهيئه للقيادة بدلا منه، ففاض بالأسى والعواطف:

- أنا لست الكبير ولن أكبر. أنت أبونا. أنت القائد. بفضلك أنت تعلمت أن أقوى على ذاتي. منك تعلمت الرجولة؟ منك تعلمت أن أزهد ببال الدنيا ومتاع الأرض. قبل تعاليمك لم أعرف ما معنى الأرض،

ما معنى الوطن، ما معنى الحب الحقيقي للأهل والناس وأخواني، ما معنى الرأفة والرحمة. أنت معلمي، أنت المرشد. أنت الأكبر. لن أكبر عليك. سأظل الطفل في كنفك، لأنك أبي وأخي ومعلمي ونور الإيمان، أنت شفيعي.

هتف الشيخ، وقد فاجأته كلمات الشاب:

- أستغفر الله. شفيعي وشفيحك محمد. حذار يا بني. احذر هذا. احذر من عبدة الأصنام. أنا فرد فقط، أنا عبد فقير. لي دور أؤديه ورسالة. وحين ينتهي دوري ويحيي الأجل، يستلم آخر هذا الدور. أتذكر ما قال أبو بكر بعد موت الرسول؟
- طبعاً أذكر.

- هات، أسمعني.

- من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

- تذكر هذا وإلا ضعننا وضاعت حيفا.

- أهنأك حيفا من دونك؟

- سبحان الله، ماذا أسمع؟! أهذا ما تقول يا أغلى الناس. أنا فيك وضعت كل ثقتي، لأنك مؤمن، ولأنك تقوى على ذاتك. من يقوى على ذاته لا يضعف أمام العثرات ونازلات الزمن. أنا سأموت، وأنت ستموت، وكلنا سنموت. لا أحد يخلد في الدنيا. ولكن افرض، افرض أني سأموت غداً، ماذا تفعل؟

هتف والدمع يملأ عينيه:

- لا لن تموت.

- بلى سأموت.

مسح دموعه وأجهش في البكاء:

- وتيتمني؟

وانتحي في ركن المغارة وهرب إلى النوم.

62

خرج من المغارة يتفقد جنبات الحرش. أشجار البطم واللزاب والصنوبر تملأ الأجواء برائحة المسك. جذوع الأشجار تتلاصق، وأغصان البطم والعوسج تشكل دهاليز معتمة وأخرى خضراء. في هذا الحرش لن يكتشفوهم. رجم وسلاسل تفصلهم عن قعر الواد وقرية يعبد. لم يجن الليل وعليهم الاختباء حتى مجيئه. عليهم الحذر من كلاب الصيد وجيش العملاء. الفقر والجهل جيشهم. ببضعة جنيهاات يبيع الجاسوس رأس أخيه. إذا نجحت الخطة وبدأت الحرب سيعمل على اجتثاث كل العملاء. لكن الآن أين الزبيق؟

وجده على صخرة يؤرجح رجله. كان يدخن. اقترب منه فالتفت إليه ثم عاد والتفت عنه. جلس بجانبه ولم ينطق وأجال عينه بامتداد المدى حيث يعبد. لن يطول الوقت حتى يأتي الرجال من القرية. مع مجيء الليل يصلونهم بالإمدادات. بعد ذلك يواصلون السير إلى نورس ثم جنين ثم طوباس ثم نابلس. قرى الشمال تناصرهم، لهم فيها عدة خلايا نائمة وعليها الآن أن تستيقظ.

قال الزبيق وهو ما زال ملتفتا عنه:

- الشيخ زعلان؟

لم يشأ الكذب فقال بفتور:

- ليس كثيرًا، فهو كما تعلم متسامح.
نفخ دخانه:
- أعرف، أعرف. أنا أخطأت. لكني رأيته أمامي، كان يلاحقني منذ سنين. نشّف ريتي. قلت أقتله وأرتاح منه.
- وتعرض المجموعة بكاملها من أجل فرد واحد؟ لا يستحق كل هذا العناء. وها نحن ندور في دوامة وكلاب الصيد تلاحقنا وثلل الفرسان. إذا حاصرونا في هذا الحرش ماذا نفعل؟
- نهرب ونتسلل كالاشباح.
- صمت على مضض ولم يعلق، فالتفت إليه، وقال بصوت كالضحك:
- أنت لا تحبني.
- لم يشأ الكذب فظل صامتًا.
- أنت لا تحبني ولا تحترمني. والشيخ يحبك ويحترمك.
- ظل صامتًا.
- الشيخ يتسامح، أما أنت فلا تحنّ ولا تتسامح. تعرف لماذا؟ لأنك قحطان، ولأنك تظن أن قحطان أحسن وأشرف من كل الناس. وها أنا أقولها في وجهك، إنك أنت وكل عائلتك على حدائي. جدك قحطان كان مثلي، يعني حرامي. العزّ والجاه من أين لكم؟ وداركم أنا أعرفها. مررت أمامها مئات المرات. كنت أتمنى لو أدخلها. سيجيء اليوم. سيجيء اليوم. الشيخ يحبيبك لأنك منهم، لأنك قحطان ومتعلّم.
- أنا متعلّم؟!
- وتحكي بالقاف وبالنحوي وتتفلسف علينا مثل أخيك. أخوك المفلسف يكتب مقالات في الجريدة. لا أحد يصدق ما يكتب ولا حتى أنت.

- أنا لا أقرأه.
- ولا أنا أقرأ، أسمع من الناس. الناس يقولون وأنا أسمع. لدي آذان وأسمع ما يقولون عن خالك وابن خالك. ابن خالك تزوج يهودية وطلق أختك. ماذا فعلت لتنتقم من ذاك النذل؟ لم تفعل شيئاً، لأنك جبان ومخنت مثل النسوان. مع ذلك يحاييك الشيخ ويناديك يا مختار. لماذا يختارك ولا يختار أحداً غيرك؟ قل لي لماذا؟
- قال همسا وهو يبلع ريقه ويحس بقلبه يكاد يقف:
- أنا لا أعرف.
- كذاب، كذاب، بل تعرف.
- أنا لا أعرف.
- أنا أعرفك. يختارك لأنك تتلون مثل الحرباء. هو لا يرى إلا وجهك. هو لا يرى ما في قلبك. يراك تصلي، يراك تصوم، يراك تحكي بالنحوي وتلفظ القاف كالمشايع. هو لا يرى إلا شكلك. حتى شكلك أحلى منا. حتى ربك يتحيز لك.
- أستغفر الله العظيم.
- نعم، استغفر. هذا ما يسمعه الشيخ ويصدق، أما أنا، مهما استغفرت لن أصدق.
- ساحك الله.
- ومن أنت حتى تدعو الله ليسامحني؟ قل لي من أنت؟ ابن قحطان؟ على قفاي عيلة قحطان والشيخ قحطان وما خلف. خلفه كالزوان وفشك فاضي، هذا ما أنت. أتعرف لماذا؟ لأنك جبان مثل النسوان. جبان وصغير قد النملة.
- بل أنا كبير وأتسعك.

- تسعني أنا؟

- أنا أَسْعُك.

- ما هذا النحوي فسر لي؟

-

- لا تتهرب.

قام عن الصخرة وتراجع. قلبه يخفق. فاجأه الحقد، فاجأه الحسد والتشفي. كان يظن أن الثورة كما قال الشيخ. الشيخ قال إن الثورة تجمع وتلم مثل الجامع. الجامع يجمع ويوحد ويساوي كالأخوة بين الناس. أصدق ما قيل أم ما يسمع؟

في الثانية والنصف صباحاً ابتدأ الهجوم. فرسان الانجليز في الخلفية والشرطة العرب في المقدمة يجولون الطريق.

كانت المجموعة قد استعدت مع بدء الحصار. تترسوا خلف الرجم والصخور وتوقعوا مجيء الإمدادات من يعبد. لكن الحصار كان شديداً وبدأت أرتال الدبابات تحتل السفح والطيارة تحوم فوق الموقع تحدد الأهداف وتبعث إشارات باللاسلكي.

عشرات الشرطة والفرسان، ثم عشرات إثر عشرات إثر عشرات حتى أصبح الموقع كالثكنة أو ساحة حرب. مئات الجنود والخيالة والقناصة بالبندقيتين مسبوقين بالشرطة العرب. قالوا للعرب أن الحصار حول اللصوص وقطاع الطرق، فانطلقوا مدعومين بالدبابات وكلاب الصيد تسبقهم. زحفوا على البطون فوق الصخور والحجارة والسلاسل. ضربوا بالعمق وبالمليان. سقط واحد من المجموعة. سقط أفراد من الشرطة. سقط اثنان ثم ثلاثة فصاح الشيخ بالمجموعة:

- الشرطة عرب.

لكن الزريق لم يسمع ولم يعبأ وظل يضرب بالمليان ويقتل ويصيب بلا تحديد، عرب، إنجليز، عملاء، يهود، يضرب ويصوب بالمليان. اقترب أفراد القناصة بالبندقيتين. إشارة البندقيتين تعني قناص لا يخطئ فأخذت المجموعة تتناقص. هذا يموت فوق صخرة، وذاك يموت خلف الرجم، وثالث يموت وهو واقف، والشيخ يصيح:

- الشرطة عرب. لا تقتلهم.
- لكن الزبيق لم يسمع. سمع وأغفله ولم يعبأ.
- ناداه الشيخ:
- اذهب يا وحيد، قل له، أفهمه، الشرطة عرب.
- زحف وحيد، واقترب منه:
- الشرطة عرب.
- التفت إليه والعرق يسيل عن وجهه، عيناه جاحظتان، وشعره واقف:
- حلّ عن ديني.
- الشرطة عرب.
- ابعد عني.
- الشرطة عرب.
- زيح يا أهبل، إذا لم أقتلهم قتلوني.
- لا تقتلهم. الشرطة عرب.
- أخذ يشتم ويصيح بجنون:
- عرب يا جرب، إذا لم أقتلهم قتلوني.
- اقترب الشيخ على بطنه:
- احموا ظهري.
- صاح الزبيق:
- ارجع يا شيخ. ماذا تريد؟ أن تستشهد؟
- التفت إلى وحيد:
- هذا يريد أن يستشهد.
- احموا ظهري.
- ارجع يا شيخ. هذا انتحار! ارجع يا شيخ. الشرطة مثل القناصة.

- ارجع . ارجع .
اقترب وحيد، شد قميصه:
- الشرطة عرب.
رفسه بقدمه وهو يصوب على شرطي يقف خلف شجرة، كان يصوب
مثل قناص بالبندقيتين. أرداه قتيلا فتهاوى خلف الشجرة ثم سحل
ككيس فارغ.
شد قميصه:
- هذا عربي.
- ابعد قحطان وإلا نسفتك.
- احموا ظهري.
- هذا انتحار، أنا أنسحب. وأنت قحطان ابعد عني.
- ونترك الشيخ؟
- الشيخ انتهى، الشيخ مات. تعال معي.
- أنت مجنون.
- وأنت أهلك. تعال معي. لا تسحبني. أنا أنسحب. تعال معي.
- أنا أصبت. كتفي، أذني.
- ازحف معي.
- الشيخ هناك. أحم ظهره.
- الشيخ مات. خلص. استشهد. تعال معي.
- أنا مصاب.
- لن تستشهد. ازحف معي. ازحف، هناك حصان.
- لا أرى شيئاً. أنا لا أرى.
- لأنك أعمى.

-
- أنت مجنون.
 - وأنت أهبّل. تعال معي. شد بحزامي. وحين أقول اركض تركض.
 - هناك حصان.
 - أنا لا أرى.
 - هناك حصان. شد بحزامي.
 - أنا أموت.
 - شد بحزامي.
 - غاب عن الوعي، وانطلق الحصان.

64

فتح عينيه ورأى السلاسل والكلاّبات. أغمض عينيه ودخل ثانية في غيبوبة. سمع الأذان. أين هو الآن؟ حيفا أم نابلس أم يعبد؟ المؤذن يقول الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. ربنا لك الحمد. هو يوم العيد. من أين العيد. ضاعت يعبد.

سمع أمه. افتح فمك. اشرب شوربة. قالت: الزبيق ابن حلال. لماذا الزبيق؟ ما دخل الزبيق في الموضوع؟ أين ذهب الشيخ؟ قال: الفرسان، وكلاب الصيد، والشرطة عرب، لا تقتلهم. صاح الزبيق: إذا لم أقتلهم قتلوني. ركب الحصان وطار مع الريح.

قالت أمه: افتح عينيك. اشرب شوربة. الجرح ينز. نادوا الدكتور. اشرب شوربة. شوربة وقير، سوس وخروب. اليوم العيد أو الوقفة؟ صاح المؤذن: الله أكبر.



فتح عينيه ورأى الزبيق، ورأى الحلقات والسلاسل. سأل بلا وعي:
- أين أنا؟

ضحك الزبيق، ورنّت ضحكته وصداها في سقف القبو.

- أين أنا؟

- أنت معي.

- أين أنا؟
- في دار قحطان. كم تمنيت أن أدخلها!
- أين أنا؟
- اسكت، اهدأ، لا تتحرك، الجرح ينز.
- قل لي هل مت؟
- أنا وأنت مثل القطط بسبعة أرواح.
- الشيخ يقول الشرطة عرب.
- حلّ عن ديني أنت مع الشيخ. واحد أهبل.
- أنت مجنون.
- وأنت أهبل.
- احم ظهره.
- الشيخ مات.
- يعني استشهد؟
- يعني انتحر.
- أنت مجنون.
- وأنت أهبل. اسكت. اهدأ. الجرح ينز.
- قلبي ينز. آه يا قلبي. هو كان أبي. كان شفيعي.
- شفيعي وشفيحك عزرائيل.
- أنت شيطان.
- وأنت أهبل. فتّح عينيك. أترى هذه؟ هذه يدي. أترى هذه؟
- أنا لا أرى إلا حلقات.
- إذن ترى! انظر هنا. كم أصبع لدي؟
- لا أرى شيئاً.

- لأنك مغمض. فتّح عينيك. أترى يدي؟ كم أصبع لدي؟
- لا أرى شيئاً.
- لأنك مغمض. فتّح عينيك.
- إذن مات الشيخ؟ مات الوالد؟
- أبوك مات زمن الأتراك. فتّح عينيك. كم إصبع لدي؟
- أجهش بالبكاء.
- لا تبك الآن. كم أصبع لدي؟
-

صاح ينبهه حتى يصحو:

- أبوك مات، والشيخ مات، وأنا وأنت في حبس الدم. فتح عينيك.
- كم أصبع لدي؟
-
- لا تبك الآن. فتّح. فتّح. كم أصبع لدي؟
- فتّح عينيه، أغمض عينيه، همهم بقنوط:
- ولا أصبع.

.....

الإضراب الكبير

وصل أمين مع عدد كبير من المراسلين والصحفيين فوجدوا شوارع حيفا خالية والحوانيت مغلقة والمؤسسات ملتزمة بإضراب تام. قيل لهم إن الجماهير حملت جثامين الشيخ ورفاقه إلى المسجد رغم حظر السلطات، فتوجهوا إلى المكان وشقوا طريقهم بين الألوف الهائجة وفرق الكشافة والشرطة. شاركوا بصلاة الجنازة واستمعوا لأحد الخطباء وهو يؤبّن الشهداء بكلمة جعلت الناس يطلقون الهتافات وصرخات الانتقام. صوروا الخطباء وهم يلفون النعوش بأعلام عربية من السعودية والعراق وسوريا دلالة على عروبة فلسطين وأبعاد القضية، وبصعوبة خرجوا مع الموكب ونعوش الشهداء إلى الساحة الكبرى أمام المسجد. تلقف المشيعون الجثامين على الأكف المرفوعة وهم يصرخون: الله أكبر، الله أكبر، والنساء يزغردن من على الأسطح والشرفات والنوافذ، والكشافة ينشدون أناشيد تثير الحماسة والمشاعر. ارتفع صوت يصرخ وما زالت النعوش مرفوعة على الأيدي: الانتقام! الانتقام! فرددت الألوف بصوت هادر: الانتقام! الانتقام! وسار الموكب وئيذا وبجهد شاق وخلفه الوفود من مختلف المدن والقرى والجماهير تكبر بأصوات تدوي كالرعد: الله أكبر، الله أكبر.

اقتربت الجنازة من دائرة البوليس، وقد بلغ بالناس التأثير والهيّاج كل مبلغ، فأخذوا يرمون الدائرة بالطوب والحجارة وقناني الزجاج. بعض موظفي الدائرة الذين كانوا ما زالوا في مكاتبهم فوجئوا بوابل الحجارة تنهال عليهم من النوافذ، فبادروا إلى الهرب. باب الدائرة تحطّم، وزجاج النوافذ تكسّر، وهجم الجمهور على ثلاث سيارات للبوليس تقف أمام الدائرة فحطّمها، وما زالت النعوش مرفوعة على الأكف والناس يواصلون الهتاف وصرخات الانتقام والله أكبر.

استأنف الموكب سيره حتى وصلوا آخر شارع الملوك حيث نصب التذكاري للملك فيصل، فوقفوا يقرأون الفاتحة على روحه قبل أن يلمحوا جنديا بريطانيا يحاول تنظيم السير. هجموا على الجندي بالحجارة فوُلَّى راكضا وهو يضع كفيه وراء أذنيه والجمهور يركض وراءه حتى اختفى والدم يسيل من جراحه وجراح عدد آخر من الجنود الذين جاءوا لنجدته، فلاقوا مصيره، كما جرح عدد من السائرين في الموكب.

استأنفوا السير حتى وصلوا محطة السكة الحديدية، فهاجموها بالحجارة وما زالت النعوش مرفوعة على الأكف. أقبلت كتيبة من الجنود البريطانيين المدججين بالسلاح ويعتمرون الخوذ لقمع الموكب، فوضع الجمهور النعوش على الأرض تأهبا للمعركة، ونزل الجنود من الشاحنات، واصطدم الفريقان في معركة ضارية جنونية، فوقع ضابط الكتيبة أرضا، وجندي آخر جرح، وآخر، وآخر، والحجارة تنهال على الجنود والشاحنات ونوافذ المحطة، حتى تحطمت كلياً ولم يبق فيها لوح واحد. بعد أقل من ساعة أدركت الكتيبة ألا قبل لها بمقارعة الألوف فانسحبت، ورفع الجمهور الجثامين على الأكف ثانية وهم يهتفون: الله أكبر! الانتقام! الانتقام! واستأنفوا السير وموسيقى الكشافة تعزف.

كان مقرراً أن تتوقف الجنازة عند دار الشيخ، على أن تُرسل النعوش في سيارات إلى مقبرة تبعد خمسة كيلومترات عن الموقع، فتقدم البعض لوضع النعوش في السيارات، لكن الجمهور الثائر حال دون ذلك، وأبى إلا أن يستأنف السير والنعوش على الأكتاف إلى المقبرة مشياً على الأقدام رغم بعد المسافة. حين وصلوا المقبرة واروا الجثامين في التراب بكامل ملابسها المخضبة بالدماء والجماهير تهتف وتكبر. استغرق سير

الجنائز من الجامع حتى المقبرة ثلاث ساعات ونصف الساعة. وحين عاد أمين إلى القدس كتب في الصحيفة ما أفاد به جريح من رفاق الشيخ قبل اعتقاله:

"عصابتنا تأسست منذ سنتين. خرجنا من حيفا قبل أقل من شهر. في عين جالوت قتلنا الجاويش اليهودي. كان معه شرطيان عربيان لم نقتلهما ولم نتعرض لأحد من الوطنيين. كنا نشترى غذاءنا وبنادقنا ورصاصنا من نقودنا ولا نلزم أحدا بتقديم الغذاء أو العون لنا. غايتنا كانت قتل الانجليز واليهود لأنهم محتلون. هدفنا كان نصره الدين وإنقاذ فلسطين." ١٨

65

رأى المدينة تعج بالاحتفالات والمؤتمرات والمنابر. حتى تأبين الشهداء أصبح مناسبات وطنية تعج بالخطباء والشعراء وأفواج الوفود من كل قطر ومدينة ابتداء من القدس حتى عمان حتى بيروت وربوع الشام. كان الناس ما زالوا يؤمنون أن الوطن هو سوريا، وأن الأقطار المجزوءة بفعل الانتداب لا بد وأن تعود إلى حضن الأم. لكن الحلم ليس حقيقة، لأن الواقع كان شظايا. هذا ما قال له جاره ابن أبو محمود. قال له وهما يخرجان من الاجتماع العظيم في نابلس حيث أقروا الإضراب الكبير: - خذ المثال من واقعنا. تنافس وتناحر بين الزعماء. زعماء القدس، زعماء نابلس، زعماء القرى، ثم الأحزاب، وكذا العائلات والقبائل، ثم العرب، أين العرب؟ كل في واد. هذا الإضراب أكبر غلطة، لم نحسب

18 المشهد مقتبس من يوميات أكرم زعتر

له.

قاطعه بغيط:

- أنت دائما تسخر وتشك. مقاومة الانتداب فرض وواجب.

وقف في منتصف الطريق، وشد ذراعه:

- وكيف تقاومه؟ بهذا الإضراب؟ هذا الإضراب سيجوِّعنا. سيميت الناس ويحبطهم، سيضرب الاقتصاد ومصالحنا. سنخرج منه أقل وأضعف.

- لماذا لم تقل رأيك هذا في الاجتماع؟

ابتسم بسخرية مرة:

- أنا أقول؟ أتريد أن يُقال أحمر وكافر؟ أتريد أن يُقال خرج عن الصف؟ لا يا سيدي، أنا مع الصف، أنا معكم. لكن الإضراب بلا نتيجة. سنخرج منه أقل وأضعف.

لكن الإضراب بدأ قويا. قادة الاجتماع في نابلس قالوا للناس نأخذ المثال من الوطن الأم. سوريا أضربت خمسين يوما فأذعنت فرنسا لمطالبها ومنحتها معاهدة الاستقلال. ما حدث هناك سيحدث هنا إن أضربنا. اقتنع الناس، فأضربت المدن، وأضربت القرى، وحتى الأحزاب وزعماء القدس ركبوا الموجة بعد مقاطعة فاشلة، خافوا أن يتخلَّفوا عن الركب فيسبقهم. اختفت الحركة من الشارع. توقفت الشاحنات والسيارات. أضرب العمال في الميناء والبحارة والصيادون والمهنيون والحجارة وعمال الطرق والزبالة. حاول الانجليز أن يشنَّوهم فازدادوا حماسا وتمسكا بمطالبهم. وكانت مطالبهم واضحة: إيقاف الهجرة اليهودية وبيع الأرض وتشكيل حكومة وطنية. لكن الانجليز لم يحققوا أيًا من ذلك، ونشطوا بتطبيق قانون الطوارئ ومنع التجوُّل

واعتقال الزعماء وألوف المواطنين والنسف والتدمير ونقل الميناء إلى تل أبيب بدل يافا، وبذلك ضيَّقوا الخناق على الاستيراد، فشَحَّت المواد الغذائية والمحروقات، وقامت المظاهرات ووقعت اشتباكات ومعارك بين الطرفين، بل الثلاثة، وامتلأت السجون والمعتقلات وكثر التآبين. لكن الناس كانوا ما زالوا مقتنعين أن ما حل بسوريا سيحل هنا، سيرضخ الانتداب الانجليزي كما رضح الفرنسيون في سوريا.

- لكن الانجليز غير فرنسا. الانجليز وعدوا اليهود.

رمقه أمين بغيظ وغضب، وكأنه المسؤول عن ذاك الوعد:

- ووعدوا العرب!

- هذا صحيح. وعدوا اليهود ووعدوا العرب. وفوا لليهود وحتثوا

للعرب. تعرف لماذا؟

هزَّ رأسه وهو يحدِّده بغيظ وألم.

- الانجليز مع الواقف، لمن له ظهر، ولديه المال، لمن ينفعهم.

تمتم مسلماً:

- ونحن بلا ظهر. حتى العرب تخلوا عنا.

وهذا ما كان. زعماء العرب كزعماء القدس، بدلا من أن يعملوا على دعم الثورة المسلحة التي بدأت في الظهور في قمم الجبال، جاءوا يتوسطون لفك الإضراب ففرطوا الموقف، وقد كان مفروطا أصلا، فزادوه انفراطا على انفراط، حتى بتنا كحبات العقد المفروطة كل حبة بواد. وكان الإضراب قد بدأ ينفرط هو الآخر، لأنَّه طال وامتد وتمتخ فافتقر الناس، ازدادوا فقرا، ازدادوا هُزالا، وبدأ قادة نابلس يراجعون موقفهم. هذا يقول تسرَّعنا، وآخر يقول ازددنا ضعفا، وثالث يقول

فلنتوقف^{١٩} لكن التوقف بعد امتلاء السجون والاستشهاد ونسف البيوت وتجويع الناس ليس سهلاً. ماذا يقولون لمن تبعوهم؟ ماذا يقولون لمن صدقوهم حين قالوا لهم إن ما حدث لسوريا سيحدث لهم وأن الاستقلال، وهجرة اليهود، وتشكيل حكومة وطنية أمر ممكن؟ لا الانتداب تراجع، ولا الهجرة توقفت، ولا نالوا حكومة وطنية، فلماذا إذن فقرروا وجاعوا؟ لماذا إذن احتملوا الأذى وفقدوا الأعمال والأشغال ورؤوس المال والأعناق والأرزاق وكثر سيل الشهداء؟ يقولون لهم فكُّوا الإضراب لأن الإضراب بلا نتيجة؟ لأن الإضراب سيضر بنا؟ لأن الانجليز ليسوا فرنسا؟ لأن الانجليز وعدوا اليهود وخانونا؟ عزَّ عليهم قول الواقع لمن تبعوهم، فطلبوا من العرب أن يقولوه لهم. وحين قال العرب فكُّوا الإضراب فكوه بأسرع ما يمكن وتنفسوا الصعداء كغريق انتشلوه من تحت الماء. وهذا ما أدى إلى ثورة اندلعت في رؤوس الجبال، بعيدا عن القدس والمدينة، على الانجليز، على اليهود، على الأحزاب والزعماء والقادة، وعلى إضراب جوعهم وهذَّ قواهم بدون مقابل.^{٢٠}

19 المحامي عادل زعتر وقلة آخرون نهوا الى خطورة الإضراب فلم يستمع القادة لعقلانيتهم إلا ما بعد. أكرم زعتر، المحرض الأكبر على الإضراب، اعترف في يومياته: "المشكلة التي لم نعالجها أو التي أعجزتنا الظروف وطبيعة الحركة الوطنية عن معالجتها، هي ارتباط الثورة بالإضراب ارتباطا وثيقا...فلتكن ثورتنا القادمة غير مقترنة بإضراب." يوميات أكرم زعتر، مدخل "وقف الإضراب".

20 استمر الإضراب 175 يوما. الخسائر: انهيار الاقتصاد الفلسطيني انهيارا تاما ونسف مئات البيوت بما في ذلك شوارع بأكملها بالإضافة الى استشهاد 2500 شهيد، 7000 جريح، قتل 8000 من المدنيين، واعتقال 1973.

.....

حصار

اعتاد الذهاب إلى ليزا. في دارها يجتمع المثقفون والسياسيون وزعماء الأحزاب والطوائف. ورثت الدار عن أبيها، وكذلك ورثت أحلامه في جمع الناس من كل الملل والاتجاهات رغم اختلاف المعتقدات. قبل وفاته كان نشيطا، يقيم الحفلات والولائم ويستقبل الناس كل كريسماش فيضيفهم نبذا أحمر وجبنا وكافيار وشوكولاتة. كان الحجاج يقصدونه إما للبيع وإما للشراء، فتكدس لديه زجاجات الخمر من اليونان وعسل وكافيار من البلقان. كانت القدس أم الدنيا، وأيام الحج فيها مآدب ورقص وغناء وتراتيل وشموع صلاة. وفي الأمسيات، بعد ذهاب المتزمتين، يدير أبوها الفونوغراف فيرقص الساهرون على أنغام الفالس والتانجو لمتنصف الليل، وبعد ذلك يتوجهون للقيامة لحضور القداس وعزف الأرغون. كانت أمها ابنة راهبات وتجد العزف وعدة لغات إلا العربي لأنها من أصل يوناني، وتجد صعوبة في لفظ الشين والجيم، فتقول عن الشوكة سوكة، وتنادي زوجها مسيو زبران بدل جبران فيضحك الناس، لكن بأدب.

في ذاك المساء ذهب إليها. كان كريسماش، وكان الإضراب قد تبدد وابتدأت ثورة جبلية بعيدا عن المدن وضواحي القدس. وكانت القدس ما زالت تنعم بالأنس، أو بعض الأنس، لأن الأديان رغم الفرقة، تنسى في غمرة الاحتفالات بعض الأحقاد.

كانت ليزا تقف في الوسط وحولها شلة أعيان من كل لون وخلفية، فيهم خوارنة وقناصل وقادة أحزاب وجمعيات. وكان واصف، مرافق الحاكم، يدور بصينية شوكولاتة. استقبله بضحكة عريضة، وذكره بسهرة الأنس قبل أيام ومعرض المنتجات الوطنية حين رفض الرقص مع روزا ثم أكلوا كنافة وتمرية. ابتسم أمين بتواطؤ وتناول

حبة شوكلاتة، وسأل همسا: وصلت روزا؟ قال بسرعة: وصلت، وصلت، وابتعد عنه بالصينية قبل أن يأخذ حبة أخرى، وذهب إلى الباب ليستقبل ضيفا آخر.

كانت ليزا قد قالت له أن روزا، بعد أن فشلت في إقناع اليهود مثل خضوري، قررت إنتاج الفيلم الضخم عن السكاكيني وألتر ليفين. لكن الفيلم بحاجة لباحث لينش ما وقع من الأحداث. القصة وقعت قبل سنين، زمن الأتراك، يعني قديمة. والوضع الآن تغير جدا، والسكاكيني تغير جدا، وألتر ليفين فشل كشاعر وبات يعمل موظف تأمين. يعني الواقع غير الواقع، فلو أن القصة تعاد الآن، في هذا الجو فهل كان سيقوم السكاكيني بتخبئة ليفين ويضحي بأمنه وحياته من أجل يهودي مستوطن؟ قال بفضول: لم لا، نسأل السكاكيني؟ قالت همسا: لا يهم السؤال، المهم يا أمين، نحن بحاجة لمن يروي القصة بلا تشويه. أنا لا أثق بالأمريكان. أي شيء يصل إليهم يصبح مسخا، مجرد تهريج. لماذا إذن نعمل معهم؟ سأل بجدية وبساطة. قالت بحماس: نظل نحاول. هذه فرصة. علينا استغلال أية فرصة. أفهمت الآن؟ هز رأسه وقال بحيرة: طبعا طبعا. وهكذا اتفقا على أن يكون هو الباحث وهمزة الوصل بين الأطراف. وها هو بانتظار روزا ماير ليفهم منها ما هو مطلوب وما هو دوره، وربما تحديد ذاك الدور.

هو غير مقتنع بذاك الدور، ليس تماما، وخصوصا بعد الصدام مع أخيه وحيد. وحيد، قال بغضب ونفور: تعمل معهم؟ هذا تطبيع! أنا لا أسمع. فنظر إليه من تحت لتحت، ورأى لحيته قد طالت، ورأسه مخلوق كالأقرع، والزيق خلفه لا يفارقه ويوسوس له. وانتهى الحديث بقول الزييق: نحن نعرف كيف نُؤدّب.

والحقيقة أن ما قيل على لسان أخيه والزييق لم يكن غريبا على الجو. بعد الأحداث الدامية ثم الإضراب ثم الثورة وحرب العصابات، أصبحت الأجواء أكثر تعقيدا وسخونة. اختبأ الوسط وأنهار الوسيط وعلت أصوات التزمت. ازداد التعصب بسبب الحقد والإحباط والخسائر. من فقد الابن أو فقد البيت أو فقد الرزق، صار مليئا برغبة جارفة للانتقام والتوعد. خفت أصوات المعتدلين وعلت أصوات التشدد. صار الوسط بلا أرضية، وكان أصلا بلا أرضية، ومع انسداد الأفق وتشيع الجو برائحة الدم، فقد الاتصال والتواصل. لكن الندرة مازالت رغم الأحداث، ترى الأمور بنظرة بعيدة، أبعد بكثير من واقعهم. ربما كانت إنسانية، ربما كانت رومانسية، أو ربما، كما فسر له ابن أبو محمود، نظرة بعيدة للمستقبل. يعني ماذا؟ يعني نُطأطأ في وجه الريح وننتظر اللحظة كي نضرب. نضرب ماذا؟ البرجوازية والرجعية، أفهمت الآن؟ ابتسم بشك. لا، لم يفهم. فقد القدرة على الاستيعاب. اختلط الحابل بالنابل. ما بين الأخضر والأمر صعب تحديد كل الألوان.

نادته ليزا: تعال يا أمين، تعال سلّم. خوري الأرثوذكس وسماحة الشيخ ومسيو ثيودوروس من اليونان. فاقترب منهم وسلّم بحياء وانسحب بسرعة واختبأ خلف عمود الرخام ليسترق النظر ويراقبها. شابة جميلة وذكية، مختلفة جدا عن الأخريات. تجيد اللبس تجيد الحديث تجيد اللغات، وترقص شارلستون وتغني.

سمعتها مرة تغني إفرنجي. تعزف بيانو وتغني، تنطق كلمات انجليزية بصوت رجراج مثل العصافير. معظم الكلمات لم يفهمها، لأن صوتها يعلو ويهبط مثل أسمهان حين تغني "يا طيور وليالي الأنس." وحين ترفع صوتها وتقول "هوهوهوهو" يبدأ كريستال الثريات بالاهتزاز

كالشناشل. ولا يعرف حينذاك هل يبتسم أم يغصّ خجلاً ليداري جهله وقلة ذوقه. ذوقه لا يستسيغ "الهو هو هو"، يحسه غريباً على أذنه كصر صار الصيف حين يصرصر، وتزييق الباب حين يزيّق، وخدش الطباشير على لوح صقيل. لكن الخوري قال لها، برافويا ملاك، أنكور، أنكور. والست رفيعة - أم أحمد قالت، يا سلام! ولا أسمهان. وفي عيد ما، حين عزمته للكنيسة، غنّت للصبح وإحدى الراهبات بكت من الشوق والتأثر، وعجوز نامت على المقعد ورجلها تهتز مثل البندول. هذا الغناء لا يحبّه، يفضل واصف حين يغني صبا ونهاوند. واصف يغني على العود كعبد الوهاب، يغني أمان ويا ليل ويا عين، يغني لمنيرة المهديّة وسيد درويش. أخذه مرة لليلي الأنس في بيت عريق كالسرايا. حمل له أدوات الغناء وادعى أنّه يعمل في "الكار". كار المغنى أحلى الكارات، قال واصف، لكن غنائي لا يغني ولا يسمن. لو أنا في مصر لجعلوني أمير الطرب كعبد الوهاب. لكن القدس، اسم الله على القدس. قال أمين وهو يضحك: نابلس أحسن وإلا غزّة؟! صاح واصف: سلامة تسلمك، ناس زي اللوح، لا ذوق ولا كيف ولا كاسة عرق. احمل، احمل. وحمل له أدوات الغناء للسرايا وجلس يراقب. جو غريب، جو رائع. جو ينطلق فيه القلب من عمق السجن. عرق وتسالي والمازات والخور العين زي الملبن، قال واصف: لوز وملبن. ضحك للوصف، وردد بحياء: لوز وملبن. دَغَره واصف في كتفه: عندكم في نابلس هذا الجو، لوز وملبن؟ عندكم صدور زي المرمز؟ عندكم سهرات لطلوع الصبح ويمكن أكثر؟ عندكم؟ طأطأ أمين. تذكر أخاه في حبس الدم ثم مغارة بقمة عيال محاطة بالشباب وأشواك الصبر. لحية ومسبحة وتزمت وقيام الليل، الله أكبر. قال بحسرة: مالك

ومالنا، خليك في القدس. وهو هنا يهرب من هناك ويلجأ للقدس. نابلس عجوز يقتلها الهمّ. سأله البيك في السرايا بين الوصلات: ابن القحطان؟! معقول تكون ابن القحطان؟ الشيخ قحطان كان يا ما كان، سقا الله الأيام! كان وكنا، كيف حال داركم بعد الزلزال؟ معقول تكون ابن القحطان؟ وحدجه بنظرة زاجرة وحدج واصف. يستكثر عليه صحبة واصف. واصف يغني في السهرات. واصف يغني في الحفلات. واصف معروف بالحركات، ويعمل هناك عند الحاكم. لكن واصف يسعده بأحاديثه. يحكي له عما يجري في بيوت الناس. يحكي له عما يقال عند الحاكم. يحكي له عما يدور في الجمعية. يحكي له عما يدور في جو القدس. مغرفة القدس، هذا واصف. قالت ليزا: واصف منا، وأنت منا، وخوري الكاثوليك، والست رفيعة - أم احمد، وحتى الحاكم. سأل بذهول: حتى الحاكم؟! قالت همسا، هذا الحاكم غير الحكّام، لا يجب اليهود. ويجبنا نحن؟ سأل بدهشة. لم تتراجع: هذا الحاكم غير الحكام. قال بحيرة: لكنه حاكم! ابتسمت له: الناس أجناس يا ابن الناس، لكن القدس أم الدنيا. أنت من القدس أو من نابلس؟ وضحكت منه، وهو يحمّر، فأعادت السؤال: أنت من القدس أو من نابلس؟ قال ساخرا: حطي في الخرج!

هذا الحاكم غير الحكام، هل تعني فعلا ما قالته، أم أنّه التبس عليها؟ الحاكم يحب الست ليزا. هذا ما همس به واصف، وهذا ما صاحت به روزا Oh my goodness! وحين تكررت تلك الصيحات بدأ يلاحظ، وتمنى لو يصرخ هو الآخر Oh my goodness! كيف الحاكم ابن الستين، ويمكن سبعين، يحب شابة ابنة عشرين وربما ثلاثين؟ فارق السن، على الأقل ثلاثون سنة، وربما أربعون، فارق

السن لم يمنعه، وفارق السن لم يمنعه هو الآخر من أن يحسّ بحسرة
وغيره. يحسّ بغيره وهو يرى تلك النظرات. يحسّ بغيره وهو يرى
جموع الرجال تحيط بها. يحسّ بالخوف وهو يراها تغني وترقص فيدوخ
الرجال. هذا يحدّق، وآخر يلهث، وثالث يرتقي على ركبتيه، ويقول
بصوت تعتقه السكر: أموت بربك. لماذا يحسّ بالغيظ والخوف، وهو
يرى كل هذا السخف؟! رجال يتذلّلون كالشحاذين، جوقة أيتام،
ككلاب الصيد المحرومة. وهو أيضا ألا يشبههم؟ الفرق الوحيد أنّه
يخجل. ألا يتمنى أن يقعي على الأرض كما يقعون، ويقول لها ما قال
فلان، أموت بربك؟! أليس الخجل هو ما يكبلّه، وفارق السن، وضيق
اليد، وهي الست ليزا أندراوس، ست الستات، ست البهوات، وقاسم
أمين والجمعية، ثم هذه الدار شبيهة بالقصر! لكن السن، لا بد السن
هو ما يشحنه، ثم الحرمان، وخيال محشو بالهرمون. أهو الهرمون؟ أهو
الخيال أم الواقع؟ وأين الواقع؟ أهناك ثبات في الواقع؟ أهناك ثبات في
الإنسان؟ وذاك الحاكم، أهو حقا غير الحكام؟ أهو حقا يحبنا نحن أم
هي ليزا؟ أهو الإحساس أم الحرمان عند الحاكم، أو عنده هو؟ ليتّه
يعرف. لهذا ألحّ على واصف أن يأخذه لسهرات الأنس حتى يعرف.
وكانت سهرة امتدت للصبح. ورأى النساء البيضاوات السمرات
الحمراوات، ورجال السهرة الأفاضل يسقط عنهم رداء الهيبة وأبهة
العزّ ويصبحون ككلاب الصيد، مثل الأيتام، ومع أول كأس أو ثاني
كأس يسقط الواحد على ركبتيه، ويصرخ بأنين: أموت بربك! فتقوم
الحلوة وتلّول بدلع محسوب: ابعد، ابعد. فعاد من السهرة مصعوقا.

قرف من الأنس.^{٢١}

لكن ليزا العزيزة لا هي شقراء، ولا هي حمراء، ولا دلوعة. وحين يتذلل أحدهم تبعد برفق وتصعد درجات رخامية، وهي تغني، تغني من فوق. وها هي الآن تغني من فوق، ومسيو ثيودوروس يعزف لها، فيهتز السقف ويرتجف كريستال الثريات ويطلق ألوانا كالفسفور.

66

وصلت روزا، ورآها تخرج كالبطة. صدرها منتصب كالمدفع وقفاهها يميخر كسفينة وشعرها هائج كعش دبابير. من عتبة الباب سمع صوتها تداعب واصفاً، وتقول له: ترقص معي؟ أين الكافيار؟ عندك ويسكي؟ ثم صوت الحاكم من خلفها: Good evening sirs, merry Christmas. التخم الجميع وساد سكون وانسحب الشيخ حامي الحرم ثم قنصل حامي الحرمين وامتقع وجه ليزا المشرق. كانت تتوقع أن تحضر روزا مع فريق الأميركيان من أجل الفيلم، لكن روزا بكتف الحاكم والضرب شغال بين جنوده وفرق الثوار والاحتجاجات والقمع والشنق والقنابل والطيارات، كل هذا يحدث هناك، وهو هنا لأجل كريسماس؟! أي كريسماس؟! وبدأ الزوار ينسحبون، يعني القناصل والأعيان، مع أنهم لم يتوقفوا عن زيارته والتودد إليه في أي يوم من الأيام رغم الإضراب ورغم الثورة وقتل الثوار والمدنيين ونسف البيوت واجتياح المدن. كانوا يزورونه ويعزمونه على مناسف وخراف

21 اقرأ وتأمل حياة الأعيان الداخلية كما صورها واصف جوهريّة في القدس الانتدابية في المذكرات الجوهريّة.

محشوة وفتة كرشات. كانوا يزورونه ويزورهم تحت جنح الظلام، بلا رقيب، ولا صحافة. كانوا يزورونه كل على حدة، ويفاوضونه، كل على حدة، ويساومونه ويحتفلون معه بعقد الصفقات، كل على حدة، ثم يسربون الأخبار للصحافة أن التفاوض والاجتماعات من أجل السلام وكسب مواقع لدى الانجليز لدحر اليهود.²² وكان الانجليز يضحكون عليهم ويسايرونهم ببعض الألقاب والهدايا ويرسلون رسائل رسمية يملأونها بالديباجات، فيقولون لهذا يا جلالة الملك حامي المشرقين والمغربين وعلا السموات، وآخر يا صاحب الملك والسعادة والكرم والمجد والرخاء العظيم، ولثالث يقولون يا فخامة الرئيس ذا الشأن الكبير والوجه المنير والعقل الخطير رمز الأمة. كانوا يقولون كل هذا وذاك في رسائلهم. أما في الصحف، هناك في لندن، فصور ورسوم وعناوين بالبنط العريض للحي ولفات وطرايش لجوقة بلهاء أو قتلة، إرهابيون، وفضائح من ملكت أيما به بطابور نساء، عشرين امرأة، خمسين امرأة، مئة ومائتين، ثم الأولاد، خمسمائة ولد، ولد وبنت، لدرجة أنه لا يعرف خلقتهم ولا يميز هذا من تلك. فإن كان لا يعرف أولادة، ولا يميز هذا من تلك، ولا يميز بين زوجاته، هذه من تلك، فكيف إذن يعرف شعبه ويميز بين طبقاته واحتياجاته، هذه من تلك؟ كان السفراء في لندن يخفون الصحف عن أصحاب الجلالة والفخامة حتى لا يقال فشلوا وخابوا وبالتالي تطير مناصبهم. وإذا حدث وتسرب خبر من الأخبار يقولون لأصحاب السمو والجلالة إن المقصود بلحية التيس في ذاك الرسم هو الجار الملاصق لدولتكم، والشيخ فلان البعيد القريب،

²²See "Negotiations with Friends," in One Palestine, Complete by Tom Segev

لا جناب العرش وحضرتكم، وأن الملك جورج، حفظه الله، يحفظ العهد ويحفظكم. وهكذا صلح الموقف وظلّت علاقتنا حميدة في أحسن حال، نحمد الله ونحمدكم.

لكن الحاكم، سير آرثر، مذ أحب ليزا وكره اليهود ونش آثارا عربية وكسب منها، اكتشف فيها ما يعجبه رغم أنفه. كما أن مفعول المنسف ووقاحة وايزمان وبن غوريون جعلوه يتعاطف مع العربان وقضاياهم. وربما بسبب ليزا، ليزا الحلوة، ليزا الأنيقة برنيطة، تحكي إنجليزي وفرنسي، وترقص تانجو، وتعزف وترتل في الكنيسة، كل هذا وذاك جعلوه رخوا لا يحزم بقراراته. أحيانا يضرب بوحشية، وأحيانا يهدأ ويهادن لكسب ود ليزا الحلوة، ويرد المجاملات والجمائل لمن عزموه على المنسف وفتة كرشات. لكن وايزمان وبن غوريون كشفوا سرّه، فبعثوا برسائل وإدانات يشكون فيها المظالم، وتحجّز الانجليز للعرب والمطالبة بنقل الحاكم قبل إحالته على المعاش ببضعة أشهر. وبالفعل، نشأ توتر بين اللوردات في مجلسهم. هذا يقول ننقل آرثر ونستبدله بآخر حازم، وذاك يقول لا نظلمه قبل إحالته على المعاش والتقاعد، لأن آرثر له مآثر، وله عزوة بين الوجهاء وأعيان القدس. هذا يشجب وذاك يدافع، هذا ينفي وذاك يؤكد، حتى وصل اللغط إلى سير آرثر، فبدأ يدرك حساسية الأمر، فهو لا يرغب أن يترك أجواء القدس قبل الموعد وتطبيق ليزا. فأخذ يركض من أجل الفيلم حتى ثبت أنّه لم يفشل بالتمريض مثل خضوري من أجل السلم والتعايش بين الشعبين. مشروع الفيلم هو البديل لمشروع روزا، ومن خلال السكاكيني وألتر ليفين سيثبت لهم أن فلسطين رغم القسمة وجو التقسيم ستكون الرمز والنموذج، فتصدق فيها نبوءة الإنجيل الجديد والعهد القديم وسورة مريم. وهكذا تأبط

روزا وبدأ يصاحبها لأي مكان حتى يساعدها على الانجاز رغم الأعياد وجو كريسماس. وحين سمع أنها ستجتمع بليزا من أجل البحث عن الأحداث وسيناريو الفيلم قال بجدية، بدون ابتسام: أذهب لأسلم على ليزا وأهنئها بالعيد المجيد. وحين ابتسمت، قال بجدية، بدون ابتسام: حتى أحميك من جابوتنسكي وأعوانه، نسيّت الزعران؟ نسيّت الجامعة العبرية؟ فقالت: فعلا، وابتسمت له، ووضعت ذراعها في إبطه.

67

لم يعرف أمين ماذا يفعل. هل ينسحب من السهرة، فيصبح منافقا مثل الأعيان أم يبقى مكانه حتى يعرف ما هو دوره لإعداد الفيلم؟ نادته ليزا ونادت واصفاً. قالت: لا بد أن نتصرف بذوق وحكمة. هذا الحاكم أخرجني اليوم. حضوره هنا سيصبح مضغة على كل لسان. لماذا شجعته يا واصف؟ قال واصف مدافعا عن نفسه: والله العظيم ما شجعت. أنا لم أعرف. قالت بهم: بكره الطائفة وخوري الأرثوذكس يفتحوا محضر، وكل الزعماء يلعنوني. ابتسم واصف ساخرا: خيفة منهم؟ أنا عارفهم، وأنت عارفة، زيارات وولائم طول الليل. أنت عارفة. هزّت رأسها: عارفة، عارفة. والتفتت لأمين: لكن يا أمين، أخوك عارف؟ أخوك وجماعته والثوار، أخوك يا أمين لازم يعرف. هزّ رأسه ولم يعدها بشيء لا يقدر عليه، لكنه قرر الوقوف معها والدفاع عنها وإبلاغ وحيد بالحقيقة حتى يعرف موقف ليزا ومكانة ليزا وأهمية ليزا وما تفعل. سيقول له: ليزا مهمة. سيقول له: ليزا نظيفة. سيقول له: ليزا أمينة ووطنيتها فوق الشبهات. زيارة الحاكم لا تعني رفع

الكلفة ولا الصداقة وعقد الصفقات. مشروع الفيلم كان السبب. روزا المجنونة هي من أحضرته. وحتى روزا أيضا هامة. مقصدها نبيل، إنسانية. سيقول لأخيه كل هذا حتى يفهم دوافع ليزا وأهداف روزا وموضوع الفيلم. موضوع الفيلم يدور حول رجل عربي يضحي بأمنه وحياته من أجل يهودي مستوطن. هل يفهم وحيد ويفهم أبعاد الفيلم؟ وحيد المسكين لم يتعلم، بسيط ومحدود وقلبه طيب. لكنه غير مثقف، ومحاط بالزئيق وأمثاله. حتى لو فهم وتفهم بسبب نبلة وطيبة قلبه، هل يفهم الزئيق ما المقصود من ذاك الفيلم؟

طوال السهرة وهو يفكر ماذا سيقول لأخيه وحيد؟ هل يستطيع إقناعه؟ هل يحكي له عن ذاك الفيلم؟ وما هو أفضل، أن يحكي لأخيه عن ذاك الفيلم أم يدافع فقط ويقول زيارة عابرة لن تتكرر؟ حتى وهو يستمع لروزا والأمريكان عن دوره كباحث وموثق لأحداث الفيلم لم يركّز. كان مشغولا مهموما يفكر بوحيد وما سيقول له حتى أنّه فكر للحظات أن يقوم بإهمال وحيد وعدم إبلاغه بالموضوع. لكنه عاد وتذكّر أن زيارة الحاكم مع روزا والأمريكان ستصبح غدا على كل لسان. إن لم يقال عنها، فسيسمع وحيد من الآخرين، ومن الآخرين تصبح ملحمة درامية. ستصل مفلفة مبهرة وفيها ما قيل وما لم يقل، فيها ما حدث ولم يحدث، فيها آفات وخيانات ودسائس. من الأفضل إذن إبلاغ وحيد. قالت روزا:

- مالك يا أمين؟ ركّز معنا، أنت سامعنا؟

أجاب واصف عنه بسرعة كما لو كان يدافع عنه:

- سامع، سامع.

ودغره في كتفه وهم يأكلون حول الطاولة ومال عليه، وقال همسا:

- رَكْز، رَكْز.

ففتح عينيه وفتح أذنيه وبدأ يركّز.

الحاكم كان يحكي بهدوء. لهجته ناعمة رقيقة فيها سلاسة وانسجام عميق، كما لو كان في بيته، كما لو كان بدون سلاح ولا كاكبي، كما لو كان بدون جنود ودبابات وطائرات تقاتل في الجبال وتحتاج القرى بحثا عن أخيه وأمثاله. هذا الحاكم غير الحكّام. تذكّر ما قالته ليزا الطيبة بغيط بارد، فهل تعني فعلا ما قالته؟ أم أن الحب غيرّها وأعمى عينيهما وجعلها تظن أن الحاكم غير الحكام؟ وهل هذا حب متبادل؟ فتح عينيه، وأخذ يراقب.

قالت ليزا أن القصة، قصة الفيلم، قصة رائعة كنموذج، إنسانية، فيها إحساس، فيها تجاوز لكل الحدود المصطنعة بين الأديان. القدس لنا والقدس لهم والقدس للجميع. لكن اليهود جاءوا إلينا كما جاء الغرب، للاستعمار، مثل أوروبا.

صاحت روزا: طبعاً، طبعاً، مثل بريطانيا والمستعمرات والكولونيل كيش. الكولونيل كيش؟ سأله الحاكم وهو يضحك، وأفرغ كأسه، وطلب من واصف أن يملأ له كأساً أخرى.

التفت واصف وهمس لأمين: هذا مسطول، هذا سكران، أسكره النبيذ وأسكره الحب. مالك؟ زعلان؟

طبعاً زعلان، طبعاً مغتاض، طبعاً غيران. ليزا تساير الحاكم وتحاول أن تجعله يوافق على أقوالها، والحاكم يحاول أن يقنعها أنّه موافق، موافق جداً. لكن الضرب وصوت الرصاص هناك من بعيد في رؤوس الجبال ينفي ما يقول هذا الحاكم. كما أن مسيرة ليزا للحاكم ازدادت عن الحد. تبدو معجبة بكلامه، تبدو معجبة بقوامه، تبدو معجبة بهندامه، تبدو

معجبة بزرقه عينيه وبالنياشين فوق صدره، نياشين ملونة كقطع الكرتون والفسيفساء والطوايع. شعره أبيض، ليس كثيرا، وصلع واضح، ليس كثيرا، وغلبيون ضخمة رائحته تسكر من كانت مثل ليزا درست هناك، ورقصت هناك، وتعلمت الشارلستون والهوهوهو. وهو أنيق في كلامه وأكله وغلبيونه وشرب الكأس. رجل يتصرف كاللوردات، كالجتلمان، لأنه لورد، لأنه جنرال. كبير في السن، لكن جنرال.

وأحس بغيرة لا توصف. وحين قالت روزا للأمريكان، رجل وامرأة ومصور، نقوم لنكمل في الصالون؟ لم يقم هو وحاول أن يبقى على الطاولة ليمنع الجنرال من التهادي، ويمنع ليزا من الانسجام، وليمنع ما يمكن أن يحصل. فها هو يرى الجنرال يحدها، يحرق فيها، يرميها بنظرات تجعلها تغضي خجلا. لماذا الخجل؟ لو لم تكن تحس بإحساسه وإشارات هل كانت تخجل أو تحمر؟ لماذا تحمر؟ لماذا تبتعد بعينيها وتنظر إليه ثم لو اصف كما لو كانت تتأكد أن أحدا لا يراقبها أو يلحظ ما بها، وبماذا تحس؟

نادته روزا صارخة: تعال يا أمين. فقام متثاقلا، وقام واصل. واصل قال: أغلي القهوة، وروزا سحبت من أذنه، وقالت زاجرة بتحب: ركز معنا، اقعد معنا، ركز، اسمع، اسمع ما يقول هذا المخرج.

قال المخرج:

- اسمع يا أمين. القصة حدثت زمن الأتراك. أريد تفاصيل عن ذاك الجو. الحرب والجيش والضابط عارف والبوليس ومن قبضوا عليه. أريد صوراً لعارف وجمال باشا. صوراً للدار من الداخل. السكاكيني

رفض التصوير ورفض التمثيل.

علقت روزا بشبه احتجاج:

- هذا كاتب، مربي وكاتب!

أهملها المخرج، وواصل بجدية مهنية:

- علينا أن ندرس التفاصيل، كل التفاصيل. علاقة السكاكيني ألتر ليفين، أهى صداقة؟ أهى زمالة؟ أهى إعجاب؟ نريد التفاصيل. وكذلك نريد أن نعرف لماذا لجأ ألتر ليفين إلى السكاكيني ولم يلجأ لليهود بني قومه؟ نريد تفاصيل. وتلك العجوز اليهودية من دلت عليه وقادت الأتراك إلى مخبئه، نريد تفاصيل، من هي؟ كم عمرها وقت الحادث؟ أهى حقا حماته؟ نريد تفاصيل. وإذا استطعت الحصول على فصول من مذكرات السكاكيني فهذا عظيم، سيحسب لك. حاول، إقنعه، أو ادفع له.

امتعض أمين:

- تقصد المال!

نظر المخرج إلى روزا، فعصّت شفتها، وقالت بسرعة:

- انسي الموضوع.

واصل المخرج طلباته، ونريد كذا ونريد مذا، وأمين يدعي أنه يسمع وهو لا يسمع. كان يراقب ليزا والحاكم على الطاولة وقلبه يخفق. ماذا يقول لها الحاكم؟ ماذا تقول له ليزا؟ هل ينجح معها ويقنعها؟ هو متزوج، لكن الزواج ليس عبرة. كل من رآهم في سرايا الأانس كانوا متزوجين جدا جدا. كل واحد منهم بزوجة واحدة أو اثنتين وعلى الأقل عشرة أولاد، لكن الزواج لم يمنعهم. فماذا يمنعه هو الآخر؟ سنه؟ لا بأس، قال واصف: لما الرجل يكبر ويشيخ يصغر عقله ويصير يركض زي

المصروع ورا الكتاكيت. كتاكيت صغار زي الملبن، لوز وملبن. أحس بالقرف، لوز وملبن؟ ليزا الأنيقة المحترمة لوز وملبن؟! قال واصف: مسكين معذور، مرته جوكر وشايفه حالها. صاح بغضب: وإذا كانت جوكر وشايفه حالها يعني يركض ورا حريمنا؟ ضحك واصف، وقال ساخرا: ليزا حريمك؟ ليزا أرجل مني ومنك. هزّ رأسه: فعلا أرجل. وتذكّرها وهي تخطب بجموع الناس. كانت تخطب بالانجليزي والست رفيعة - أم احمد تلقي بياناها بالعربي، العربي الصرف، العربي الفصيح مثل الخوري وسماحة الشيخ، لكن ليزا تلفظ القاف وكأّتها كاف، ابنة راهبات مثل أمّها. قال واصف: على الأقل تقول جبران وليس زبران. وضحك الاثنان، لكنه الآن لا يضحك، يحس بالغیظ، الخوف والغیظ.

قال الحاكم:

- لو تعرفين معنى الوحدة!
غضّت بنظرها وادعت أنها لا تفهم ما يقصد، فغيّر الموضوع بسرعة وذكاء ومهارة. نظر بعيدا عبر الصالون وأعمدة الرخام، وقال معلقا وهو يتطلع من بعيد نحو روزا:
- لو كانوا كلّهم مثل روزا!
هزّت رأسها هزة خفيفة. قال بحسرة:
- هم لا يعرفون أني خلص.
ونظر إليها نظرة طويلة ومشحونة. فاستمرت تعبت بالتطريز على المفرش وكأن التطريز بحاجة لتحديد. عاد يواصل نفث الأشجان:

- أنا مخلص للجميع، لهم ولكم. لكني أحيانا أحس بالغيظ، لأنني لا أعرف كيف أرضيهم ولا أرضيكم. أنتم على حق وهم على حق. حدجته بصمت فأردف بذكاء:
- أنت لا تعرفين كم أنا مخلص.
- وانتظر منها ردة فعل، لكنها لم تتحرك وظلّت تتابع نقش التطريز بأصبعها. حاول أن يثيرها، فقال بصوت عميق كما لو كان يتأمل:
- هم على حق، يريدون مكانا يؤويهم.
- قالت ببرود:
- أعطوهم قطعة من بريطانيا.
- ابتسم لها وكأَنَّها قالت نكتة ظريفة وحاول أن يضع يده فوق يدها فسحبت يدها. انتظر لحظة ثم واصل وكأَنَّه يشكوهم لمن تفهمه وتشعر معه:
- بعثوا عني رسائل شكوى.
- سألت بفضول:
- رسائل شكوى؟ ماذا يشكون؟ ألا يشبعون؟
- لوى رأسه وحدث لبعيد:
- لو أن العرب ...
- وانتظر أن تسأله أن يكمل، فلم تفعل:
- لو أن العرب ... لو يعملون بجدية.
- لم تعلق فواصل بلهجة تدل على الأسف:
- أحيانا أدخل على الموظفين في الحاكمية، فأراهم يغنون ويرقصون ويطلبون على مكاتبهم مثل الأطفال.
- ابتسمت بدهشة وعدم تصديق:

- معقول؟! -
- معقول جدا، أسألني واصف. قبل يومين سمعت لغطا، طبل وزمر وتصفيق ويا ليل، ويا عين. دخلتُ عليهم فوجدت واصفاً في الوسط يدبك وينطّ، ويغني: شكشوكة يا شكشوكة، يا أم اللحية المدكوكة. ٢٣
- صاحت ليزا وهي تضحك بغیظ وعدم تصديق:
- لا مش ممكن!
- وضربت على الطاولة بيدها علامة الغیظ والاستهجان، فمد يده ليمسك يدها، فسحبها بسرعة ووضعها فوق فمها. واصل شكواه من الجانبين:
- العرب، العرب، أنا لا أفهم! وهؤلاء اليهود بعثوا يشكون. أنا بين المطرقة والسندان. أنا متضايق. لا أحد يشعر بما أشعر به. لا أحد يحس بي أو يشفق علي. أحيانا أحس أني سأهرب من هذا الجحيم إلى جمايكا، إلى استراليا، إلى أمريكا أو حتى هاواي. هل زرت هاواي؟
- هزّت رأسها نفيا.
- كنت في أمريكا ولم تزوري هاواي؟! -
- لا زرت هاواي ولا المكسيك.
- صاح بدهشة كما لو كانت ارتكبت جرما فادحا، أو ربما ليسايرها على قد عقلها حتى يشعرها أنه صغير واهتماماته لا تقل صخبا ومجونا عن اهتمامات الشباب:
- ولا المكسيك؟! آه المكسيك! قبعات كبيرة من القش، وبرانس ملونة قوس قزح، وتكيلا وتورتिला، وجيتارات ورقص وموسيقى
-
- 23 القدس الانتدابية في المذكرات الجهرية، مدخل: "حياتنا المرححة في دائرة حاكم القدس العسكري."

لطلوع الصبح. شعب يعيش، يعرف كيف والحب والحياة. أنا ممكن
أهرب للمكسيك.
- وتترك شغلك؟
- أترك الدنيا وما فيها من هذا الجحيم.
سألت بأسف وبداية إشفاق:
- وتترك لندن؟!
حدق في وجهها وكأنه اتخذ قرارا حاسما:
- أنا بدي أعيش.
وحين رأى في وجهها عدم التصديق، قال بصوت عميق حزين:
- أنا مش عايش، أنا بدي أعيش.
ومدّ يده ليمسك يدها، وهذه المرة سحبها هو حين رأى أمينا فوق رأسه
يمد يده لإبريق الماء.

68

سمعوا هدير طائرة، ثم اثنتين، ثم ثلاث ورصاصا كثيفا وانفجارات
تدوي في البعد فارتعد الجميع وصاحت روزا: My God, my
God, oh my goodness، فقام الحاكم عن الطاولة ونظر من
النافذة ثم فتح الباب وخرج إلى الردهة ليستطلع والكل سكون
ينتظرون تعليقاته وتطميناته. لكنه عاد إليهم وهو يفرك يديه ووجهه
أحمر من شدة البرد في الخارج. قال بسرعة إن الانفجار ليس قريبا وذاك
الرصاص بين القوات وتلك العصابات في رؤوس الجبال. سأله أمين
بقلق واضح: أية عصابات؟ تأمله الجنرال ببرود شديد، لأنه متضايق

من نظراته ومن حركاته وإحساسه المستمر بمراقبته. طوال جلوسه مع ليزا كان يراقبه ويراقبها. ما دخله هو؟ ماذا يريد؟ ماذا يقصد؟ أهو الآخر معجب بها؟ أهو الآخر مغرم مثله؟ هذا الهلفوت، هذا الولد، بعد مراقبه، حتى أنه من غير شنب، وبر ناعم، وخداه مثل حدود البنات، وصوته خافت، ربما مبحوح. هذا الهلفوت، مراسل صغير بلا قيمة وجد نفسه بين الكبار فظن نفسه صار كبيرا. من هو؟ ما هو؟ ولماذا يحس أنه كفؤ أو متكافئ؟!

سألت ليزا:

- عصابات اليهود؟

ابتسم لها ولم يجب السؤال واتجه نحو إبريق الماء وأخذ يشرب. علقت روزا من بعيد وهي ما زالت جالسة وسط الأمريكان:

- أو العرب؟ نحن هنا في هذا الفخ بين الطرفين.

صححها المخرج الأمريكي:

- بل ثلاثة.

قهقه الحاكم وقال مازحا:

- مالكم؟ خايفين؟ أنتم خايفين وأنا معكم.

رشقته ليزا بنظرة لئيمة كي تذكّره بما قاله عن هذا الجحيم وحياته وقبعات القش والتكيلا، فابتسم لها وغمز بعينه.

قال بمرح ليطمئنهم:

- يا جماعة الخير، ولا يهكم، الضرب بعيد، بعيد جدا. أنتم بأمان، أنا معكم. أنتم محاطون بحراسة جيدة جدا. لو تنظرون من النافذة ترون

الحرس في كل مكان. اشتغلوا بالفيلم، ولا يهكم.

عادت روزا تستعجل أمينا:

- مالك يا أمين؟ اقعد، ركز.

جاء واصف بالقهوة فأخذ الحاكم قهوته ووقف بالقرب من النافذة يراقب الجو من خلف الزجاج. نادى ليزا لترى ما يراه ولتشرب قهوتها معه وليستكمل جولة بدأها ولم يكملها. سألها معاتبا:

- أين الشجرة؟ كل كريسماس كنت تزينين تلك الشجرة فتصبح كالعروس، كالمهرجان، كفتاة حلوة مزوقة بأحلى النجمات وشموع الحب. أحب كريسماس. أحب الأجواء الحميمة وكريسماس تري وولائم الأهل والأصدقاء وهم يجتمعون حول المائدة يأكلون ويشربون ويرتلون للعيد السعيد، يرتلون للحب والأمل والعام الجديد. ما أحلى الأمل! ما أحلى الحب! أهناك أمل؟ أهناك حب؟

لم تجبه، بل رمقته بنظرة مهذبة ماكرة. كانت تعرف ما يرمي إليه. كانت تعرف ما هو مطلوب وما يحلم به، وتعرف أيضا أن ما يطلبه بعيد جدا، أبعد بكثير مما يحلم. فلماذا يُصر؟ لماذا يلح؟ ألا يعرف أنه المستحيل؟ رجل بريطاني متزوج وعمره ستين وربما سبعين. كيف يفكر أنه ممكن؟ أهو الهروب؟ أهو الوحدة؟ أم هي الحرب أم المينوبوز وما شابه؟ في هذا العمر يصبح الرجل مثل الضائع، يفقد رشده، يفقد توازنه وميزانه. يصبح كمراهق أناني لا يرى إلا نفسه، مثل ذاك الشاب المراهق الذي لا يملّ الملاحقة بنظراته. شيء مؤسف، من بين الرجال، كل الرجال، من تعرفهم ولا تعرفهم، ألا وجود لرجل واحد بدون مشاكل؟ هذا مسنّ ومتزوج وذاك مراهق وآخر نصاب ومتخلف ورابع وخامس، لم لا تجد في هذا الجو أي واحد، فقط واحد، واحد يرضيها ويقنعها؟ هل العيب فيهم أم فيها؟ هل لأنها تطلب أكثر مما يوجد؟ هل لأن العلم أفسدها؟ هل لأن الغربة جعلتها ترى الأشياء بتلسكوب يصل النجوم ولا يرى

ما هو حوله؟ ويظل القلب بلا مأوى، بلا مرساة ولا ميناء، سفينة هائمة تمخر في البحر بلا نهاية، من غير شراع، ولا مرفأ. وروزا أيضا من غير شراع؟ أليست أنثى وتحلم بالحب؟ أليست امرأة ككل النساء؟ وهذا الرجل، هذا الجنرال، أليس من حقه أن يهرب من هذا الجو، من هذا الجحيم، من وحدته، من وحشته ومسؤولياته. يثير الإشفاق رغم جماله. جميل الشكل رغم سنه. لو لم يكن كبيرا في السن. لو لم يكن بزوجة وأولاد. لو لم يكن من بريطانيا. لو لم يكن الانتداب، هو بعينه!

اقترب الضرب فهرعت روزا نحو النافذة لتستطلع فسمعوا طرقات على الباب. أرادت ليزا أن تفتح ففتح الحاكم ذراعيه ليمنعها وقال بحزم: أنا أفتح. وأشار لروزا أن تتعد عن النافذة وتعود إلى الصوفا بجانب المخرج والأمريكان. سحب مسدسه وخبأه خلف ظهره، فساد الصمت وتوقفوا عن التنفس وتعلقت أعينهم بالمسدس وظهر الحاكم. حين فتح الباب رأوا جنديا من جنوده. ضرب السلام وهمس للحاكم بكلمات لم يسمعوها، فهزّ الحاكم رأسه واستدار لهم، وقال بوجوم:

- الجندي يقول أن من الأفضل عدم الوقوف على النوافذ.

قالت روزا:

- يقصّدي أنا.

أهمّلها الحاكم وشمل الجميع بنظراته، وقال بجدية، بدون ابتسام:

- لا أحد يقترب من النوافذ.

سألت روزا:

- يعني المسألة صارت حامية. يعني ممنوع أن نتحرك. يعني ممنوع أن

تتطلع. يعني صرنا مثل المساجين. يعني ممكن أن يكون الضرب قريبا من الدار.

هز الحاكم رأسه، وقال باقتضاب:

- اقترب الضرب.

صاحت بخوف:

- من هم؟ كم هم؟ عرب؟ يهود؟ من هم؟ قل لي؟

هدأها الحاكم مشيرا بيده:

- هش هش، هش هش، الدار مطوقة بالحراس، وبعثنا نطلب طائرة.

صاحت برعب:

- طائرة؟ لتحميننا نحن؟ يعني المسألة صارت سخنة!

همس أمين، وقد شحب لونه:

- صرنا بحصار؟

قال الحاكم:

- مالكم خايفين؟ لا حصار ولا طوق، هذي إجراءات أمنية. اهدأوا.

روقوا. مالكم شاحبين زي الأموات؟ ها يا واصف، عندك ليكور؟

عندك ويسكي؟ هات أعطينا.

أحضر واصف صينية الليكور وصب جرعات صغيرة في كل الكؤوس

ودار عليهم. فقال الحاكم مداعبا:

- اشربوا، اشربوا، انسوا الموضوع. غني لهم يا واصف دكدوكة.

ضحك واصف، وقال متملقا:

- والله يا سيدي، ما شفت مثلك، لا تخفى عليك أية خافية!

طرب الحاكم للإطراء، ونظر لليزا وغمز بعينه، وقال مرددا كلمات

واصف حتى تستقر في مسمعها:

- لا تخفى علي أية خافية.

قالت ليزا بخبث ساخر:

- ممكن تخفى.

احتضنها بعينيه وهزّ برأسه وكأنّه يقول: سبحان الله! ريتك ستي! الله خلقك وكسر القلب! ما هذا الجمال؟ ما هذا الذكاء؟ ومع خفة دم؟ أنا دخيلك!

همست روزا للأمریکان:

- يمكن جابوتنسكي وجماعته. أنا خايفه منهم يا جماعة.

قال أمين برعب مماثل:

- ويمكن الزبيق وجماعته.

سأله المخرج بتهكم:

- يعني جماعتك؟

حدّجه أمين بنظرة غاضبة ولم يجبه، لكنه تذكّر ما قال أخوه حول التطبيع وما قال الزبيق من بعد أخيه: نحن نعرف كيف نُؤدّب. أخوه لم يقل، الزبيق قال، وربما قول الزبيق هو ما ينفذ. يخاف من الزبيق أم من أخيه؟ يخاف من أخيه؟ هذا مأساة.

قالت روزا:

- يمكن جابوتنسكي وأعوانه.

سألها المخرج وهو يمسح نظاراته:

- خايفة منه؟

وضعت قلمها ونظرت لبعيد، وقالت همسا:

- خايفه منهم.

أحاطها بذراعه فاسترخت بضع لحظات ثم أفاقت، وقالت بعناد:

- ولا يهمني، هذا الفيلم لازم يخلص. لازم نكمل هذا الفيلم.
ضحك المخرج:
- ولو على روحك؟
فَزَتْ قائمة واتجهت نحو النافذة، وقالت بعناد:
- ولو على روحي.
صاح الحاكم:
- ارجعي روزا. روزا مكانك. ممنوع. ممنوع.
صاحت بغیظ:
- ما هذا؟ حصار؟
ابتسم لها:
- لسه شو شفتِ!
حملت برعب فأسرع نحوها وأحاطها بذراعه، وقال ضاحكا:
- أمزح، أمزح. أنت بأمان. أنا أضمن لك.
سمعه واصف، فصاح ضاحكا:
- أغني لها يا سيدي دكدوكة؟
نهره باسما:
- اسكت، بلا مسخرة، أنا جدي وأقول الجد. أنا لا أمزح. هي بأمان
وأنت بأمان وكلنا بأمان.
- رجعت روزا مكانها، ورجع الحاكم للطاولة ورجعت ليزا لتحديد
التطريز بإصبعها. كانت تحسّ بالشك والخوف. كانت تحسّ أن الحاكم
خائف مثلها وأكثر منها. كانت تعرف ما يهدده. هو اعترف لها أن اليهود
لا يحبونه واشتكوا منه. هو اعترف لها أنه منحاز لجانبها لكن العرب،
كما قال بأسف، مثل واصف، غير جديدين يحبون الرقص والغناء والطبل

والزمر ودكدوكة. اعترف لها أنه لا يحب اليهود. لكن أميناً سألها سؤالاً
بقي يدور في رأسها عدة أيام: ويجب العرب؟ يحبها هي، ربما، بل أكيد.
في وضعه هذا بحاجة للحب. كما أنها هي بحاجة للحب، مثل كل
الناس، في هذا الوضع، شيء طبيعي، بحاجة للحب. لو كان أصغر
بعشرين سنة، ثلاثين سنة، أو هي أكبر. لو أن الدنيا تكرمها. لو تجد
الحب.

قال الحاكم:

- الحياة في جامايكا كانت حلوة. الناس في جامايكا زي المكسيك.
رقص وأغاني وموسيقى وحب في الطرقات. لا هم ولا غم ولا عنف
ولا حرب. ناس مسالمون، مش زي ناسكم.
حدجته بابتسامة طيرت عقله:

- ناسنا نحن؟ ما لهم ناسنا؟

لم يجبها، بل هزّ رأسه وكأنه يقول: آه يا خسارة! أو كأنه يقول: أموت
بربك! أو كأنه يقول: خذي عقلي وروحي وأعطيني. لكنه كان يعرف،
أو كان يشك، ألا عطاء وألا أمل، لكن لا بأس، فهو يحاول.

اقترب أمين من الطاولة ومد يده نحو الإبريق وحدج ليزا بنظرة عتاب
وغيظ مكبوت. قال مهدداً حتى يمنعها من الانسجام:

- يمكن الزبيق عرف عنا.

سألت بدهشة واستهجان وكأنها تزجر شكه:

- عرف عنا؟!

لوى شفتيه:

- يعني عن الفيلم والزيارة ...

وتوقف عند كلمة "الزيارة" ليدكرها بمخاوفها من زيارة الحاكم وما

سيقول خوري الأرثوذكس والطائفة ولعن الزعماء، فظلت صامته
تحدق فيه بغیظ مكتوم. فمن هذا الولد ليهدها أو يزجرها ويذكرها؟
من هو؟ من يظن نفسه بالنسبة لها؟ أبوها؟ أخوها؟ ولي أمرها؟ هو ولد
مراهق لا أكثر.

ناداه واصف:

- تعال يا أمين، تع خذلك كاس.

التفت إليه، وقال بغضب:

- حلّ عن ديني.

ضحك واصف، وقال ساخراً:

- أحلّ عن دينك؟ لو دينك نافع ما حلّيت.

نهره الحاكم لأن التعدي على الأديان أمر مشين، أمر مؤسف، فهو
المسؤول عن دين القدس، دين الإسلام ودين اليهود والنصارى وكل
الأديان، وعيب جداً التلفظ بألفاظ تخدش الدين أية خدشة. هذا ممنوع.

- عيب يا واصف. اسكت، اخرس. هذا ممنوع.

ورفع عينيه ورأى أميناً فوق رأسه يحدّق فيه، فقال بغیظ:

- وأنت شوبدك؟!

حمل أمين كأس الماء واستدار بظهره ولم يقل أية كلمة.

انطفأ النور فهب الحاكم واقفاً وصرخ الجميع، وعلّق واصف: يا يسوع

المسيح، انتهينا. لكن الحاكم صاح به:

- اسكت يا واصف وهات شمعة.

- صاح واصف محتجا:
- أنا عندي شمع؟
- سأل الحاكم ليزا:
- ما عندك شمعة يا ليزا؟
- قالت ليزا بصوت خافت:
- ما عندي شمع.
- ولا كبريتة؟
- ولا كبريتة.
- ولا قداحة؟
- ولا قداحة.
- لا عندك شمع ولا كبريتة ولا قداحة؟! أمّا حكاية!
- والتفت نحو روزا وفريق الأميركيان:
- مين عنده شمعة أو كبريتة أو قداحة؟
- سألت روزا:
- ولا واحد فيكم يدخن؟
- لم يجيبها أحد، فقالت للحاكم معذرة:
- ولا واحد فينا يدخن. لا كبريتة ولا قداحة.
- اتجه الحاكم نحو النافذة حيث النور الشحيح من الشارع، وتمتم بغيظ:
- لا شمعة ولا كبريتة ولا قداحة؟ أمّا حكاية!
- واقترب كثيرا من النافذة. ألصق وجهه بزجاج النافذة ليرى الحراس، فلم ير شيئا سوى الظلمة. فتح النافذة وصاح مناديا:
- سيرجنت آيزاك. كابتن روبرت. روني، البرت. من يقف هناك؟ من أنت؟ من أنت؟

انطلقت رصاصة استقرت فيه فسقط على الأرض. صرخ الجميع
وصرخ الحاكم. ركضت ليزا، وركضت روزا، وهرع واصف فارتطم
بالطاولة وإبريق الماء وصاح بأنين:
- سيدي سلامتك. أنا مش شايف.

أحس بيد تلمس جرحه. لم يعرف من. أهى ليزا؟ أهى روزا؟ أم
الاثنان؟ اشتد الألم واشتد الظلام ولم يعرف إن كانت الظلمة في عينيه
أم من حوله، وأيضا لم يعرف ماذا يقول ولمن يقول وبمن يمسك. لوى
رأسه، وقال بأسى:

- آه يا ليزا. غريبة الدنيا! لا عندك شمع، ولا كبريتة، ولا قداحة، ولا
عندك حب؟! أمّا حكاية!

انتهى الجزء الأول

لمعرفة المزيد عن زمن الرواية :

القدس العثمانية في المذكرات الجوهريّة - واصف جوهريّة
القدس الانتدابية في المذكرات الجوهريّة - واصف جوهريّة
كذا أنا يا دنيا: يوميات خليل السكاكيني
يوميات محمد عزت دروزة
يوميات أكرم زعيتر
شجرة المعرفة - حنا ابراهيم
أدوار المرأة الفلسطينية في الثلاثينات - فيحاء عبد الهادي
دروب المنفى - فيصل حوراني
عز الدين القسام - عاصم الجندي
ثورة الشيخ العالم المجاهد عز الدين القسام - رسمي علي عابد
الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشهيد عز الدين القسام ١٨٨٢ - ١٩٣٥ - سميح حمودة
فلسطين وساحة المفتي الأكبر الحاج محمد أمين الحسيني - عيسى خليل
محسن
الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين: مذكرات رشيد الحاج ابراهيم
الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني - ترجمة وتقديم أشرف الصباغ
أعدائي - ممدوح عدوان

- Orientalism - Edward Said**
- Out of Place – Edward Said**
- Before their Diaspora– Walid Khalidi**
- Arab Israeli Conflict – Ilan Pappé**
- A History of Modern Palestine – Ilan Pappé**
- The Ethnic Cleansing of Palestine– Ilan Pappé**
- One Palestine, Complete – Tom Segev**
- The Lemon Tree – Sandy Tolán**
- Palestine Remembered .com – Jabotensky**
- Ze’ev**